



الأساطير العبرية التي تأسست عليها أميركا

تلمود العم سام



منيـر العَكـش

تلمـود العـم سـام

الأساطير العبريـة التي تأسست عليها أميركا



THE TALMUD ACCORDING TO UNCLE SAM
on the Founding Hebrew Myths of America

by
Munir Akash

First Published in July 2004
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
info@elrayyesbooks.com . www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21161-9

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: تموز/يوليو ٢٠٠٤

المحتويات

مقدمة

«هذا ربُّهُم»!

«يزعمون أن الله هو الذي أرسلهم لفتح هذه البلاد الآمنة المطمئنة، وأنه هو الذي وهبهم حق تدميرها ونهب خيراتها. إنهم لا يختلفون عن أولئك يقتلون ويسرقون ثم يقولون: «مبارك هو الرب. لقد صرنا أغنياء».

برتولومي دي لاسكازاس

A Short Account of the Destruction of the Indies

لم يكد بريق الذهب يخطف عيني كريستوفر كولومبس في معابد «الهنود» وبيوتهم وزينة نسائهم حتى باح في يومياته (٢٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٤٩٢) عن رغبته في أن ينكبّ الإسبانُ ثلاثَ سنوات كاملة على حصاد ذهب العالم الجديد ليُعدَّ به عرشُ إسبانيا ما يستطيع من قوة وعتاد لازمين لتحرير «أورشليم». ثم إنه كتب إلى الملكة إيزابيلا وإلى البابا يحضهما على إنفاق غنائم أميركا وثرواتها في سبيل تحرير «أورشليم»[١].

وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة كتب «وصية» أمر بها ابنه أو من يرثه من بعده بأن يتولى هذه المهمة إذا ما تخلى عنها عرشُ إسبانيا[٢]. خلال السنوات التي انقضت بين رحلة كولومبس الأولى إلى العالم الجديد (١٤٩٢) وبين موته في العشرين من أيار/ مايو ١٥٠٦ ــ كما روى شاهد الرحمة الإنسانية المطران بوتولومي دي لاسكازاس في كتابه A Short Account of the Destruction of the Indies ــ «غشيَ الإسبان هذه الخِرافَ الوديعة غشيان الذئاب والنمور والأسود الجائعة فقطعوا أوصالها وقتلوها وروّعوها، وفتكوا بها وعذّبوها وأبادوها من أجل الذهب... كل يوم فظاعة جديدة غريبة مختلفة لم نسمع بها ولم نقرأ عن مثلها من قبل، مما أحال هذه البلاد إلى قفار بعد أن كانت تصخب بالحياة وتعج بالبشر الذين كانوا فيها مثل خلايا النحل حتى ليظنّ المرء بأن الله أسكنَ فيها كل خلقه. لقد قتلوا كل هذه الأنفس البهية، وفتكوا بها ليسرقوا ذهبها وينهبوا ثرواتها»[٣].

غير أن الفاتحين الإسبان لم يكونوا في عير «أورشليم» ولا نفيرها، ولم يكن يعنيهم من وصية كولومبس إلاّ الذهب، فبعد أن يروي لاسكازاس كيف سرق الغزاة من إحدى ممالك كوبا «٤ مليون غرام من الذهب لم يُرسلوا منه إلى ملك قشتالة إلاّ النزر القليل»، يقول: إن زعيماً هندياً يدعى «هاتوي» سأل رعيته: هل تعلمون لماذا يريد الإسبان أن يقتلونا؟ فأجابه بعض البسطاء: إنهم يفعلون ذلك من أجل ربهم. إنهم يريدوننا أن

نؤمن به، ولهذا يقتلوننا. وكان بين يدي الزعيم الهندي سلة صغيرة مملوءة بالذهب، فابتسم وقال لهم: «هذا هو ربهم»! هيا نرقص له ونرضيه، فلعله إذا سمع دعاءنا يأمرهم بأن لا يذبحونا. ثم رقص الناس حتى الإنهاك. وبعدها قال «هاتوي»: اسمعوني جيداً، سوف أرمي بهذا الذهب في النهر لأنهم سوف يقتلوننا بسببه. وكذلك فعل. ولما علم الإسبان بقصته شنقوه وقتلوا من استطاعوا من رعيته[٤].

* * *

أما الإنكليز الذين اجتاحوا الشمال الأميركي فقد بزوا الإسبان في القتل والفتك لكنهم كانوا أكثر روحانية في عبادة عجل الذهب. فمنذ وصول ما يسمى بالحجاج الإنكليز إلى العالم الجديد كانت «الرأسمالية المتوحشة» وتجارة العبيد ونهب أملاك الهنود أسمى تعاليم «إله التراب» الذي لقّنوه ذرائعية جون ديوي وأنكلزوه، ثم عيّنوه مسؤولاً فخرياً عن إدارة «مملكة الله» في وزارة المستعمرات البريطانية.

على مدى أكثر من أربعة قرون ظلت «فكرة أميركا» تخطف روح الدين وتُطوعه لأهدافها الأمبراطورية الثلاثة التي استعارتها من «فكرة إسرائيل» التاريخية:

١ ــ اجتياح أرض الغير؛

٢ ــ استبدال سكانها بسكان غرباء أو استعباد من يعصى منهم على الموت؛

٣ ــ واستبدال ثقافتها وتاريخها بثقافة المحتلين الغرباء وتاريخهم.

ومنذ ما يعرف بالصحوة الكبرى Great Awakening (١٧٢٠ ــ ١٧٤٠) وهذه الروح الرأسمالية تعيد صياغة الظاهرة الدينية الأميركية لتناسب مجتمعات لا تعبد إلاّ السوق ولا تتخلق إلاّ بأخلاق العرض والطلب، فالـمُضارب الأكبر في الوول ستريت هو الذي يحتل العرش الأعلى في البانثيون الأميركي. يكفي أن يصبح اجتياح هذا البلد أو ذلك مفيداً لمصلحة أي أخطبوط صناعي أو تجاري حتى تبدأ عملية غسيل الدماغ على المستوى الشعبي بوضع ملابسات الأحداث في إطار «قيامي». وسرعان ما يحضر الله إلى البيت الأبيض ليُظل تلك المصلحة النفعية بظلال عرشه ويحفّها بملائكته ورسله، يتقدمهم أنبياء العبرانيين وأبطالهم. تلك العصا السحرية لآدم سميث تعمل دائماً على النفعية الخاصة إلى خيرٍ عام مقدس يستأهل حرباً نفعية مقدسة.

خلال الزحف باتجاه الغرب، أباد الغزاة الإنكليز أكثر من ٤٠٠ أمة وشعب في هذه المنطقة التي يطلق عليها اليوم اسم الولايات المتحدة، لكنهم نذروا كل ذلك لربهم الذي كان يكلمهم قبل كل مذبحة ويخوضُ بهم في دم أعدائهم ويضفي على «فكرة أميركا» وما تتضمنه من إبادات عرقية وثقافية بُعداً أخلاقياً نبيلاً مستعاراً بكل تفاصيله من «فكرة إسرائيل» التاريخية.

كل بلاغة العنف الأميركية كانت وما تزال تستمد استعاراتها من أدبيات «فكرة إسرائيل» التاريخية

وأساطيرها المقدسة وأنماط سلوك أبطالها، بدءاً من «العهد المقدس» الذي أبرمه الحجاج في سفينة ماي فلور مع يهوه في عرض المحيط الأطلسي وانتهاء بمكالمة الرئيس جورج بوش معه في البيت الأبيض قبل إعلان الحرب على العراق، واعتقاده بأنه «موسى العصر».

هذه الصيغة الإنكليزية من «فكرة إسرائيل» لازمت تاريخ أميركا منذ موجة الاستعمار الأولى؛ تبناها المحافظون واللاهوتيون بصيغتها المقدسة، كما تبناها العلمانيون والليبراليون في صيغة ما يسمى اليوم بالدين المدني.

إن تاريخ الدين المدني في الولايات المتحدة كما يروي المؤرخ كونراد شيري Conrad Chery هو «تاريخ القناعة الراسخة بأن الأميركيين هم الإسرائيليون فعلاً وشعب الله المختار حقاً»[٥]. وخطرُ هذه القناعة لا يكمن في تَلبُّسها بمصالح شركات النفط ومصانع السلاح وداء الكَلَبِ الإمبراطوري وحسب، بل يكمن أيضاً في استيعاب هذه القناعة لكل ميتافيزيقا الكراهية العبرانية لحضارات العالم العربي القديم، وفي تجسدها في النزعة القيامية التي تنام وتصحو على سعار الانتقام من أعداء إسرائيل الأبديين الذين تترصّدُ دماءَهم منذ الأزل «معصرةُ غضب الرب». وهي قيامة لم تعد بحاجة إلى الله بعد أن تولى أمرها الجنرالات.

ليست هناك جماعة بشرية مسكونة بهاجس صناعة

القيامة ــ مع الله أو بدونه ــ كهؤلاء الأنكلوسكسون في أميركا وبريطانيا. إنهم يتحدثون عن القيامة القريبة في حياتهم اليومية بإلحاح ولهفة، ويعتقدون مخلصين بأنهم محور الدراما الكونية، فيفسرون الحوادث قيامياً ويعيدون تفسيرها واجترارها في في منشورات وكتب وأعمال سينمائية ورسوم تشكيلية وبرامج سياسية وخطط عسكرية لا ترى لها ما يشبهها في أية ثقافة أو أمة أخرى. إن التاريخ الذي يستعجلون نهاياته (وهو أولاً وأخيراً تاريخنا) هو في اعتقادهم مؤامرة نصبتها قوى شيطانية خارقة القوى تستلزم وصف الأعداء وتشخيصهم بلغة حزقيال ودانيال ويوحنا البطمي القيامية. العدو واضح الملامح والمعالم، فهو كلي المكر والخبث، كلي الشر، كلي الفساد، كلي التسلط، كلي الخطر، و... كلي الاستباحة.

وقد واكب هذا الجنوح البارانويي وتلك الاستعارات القيامية حملات كراهية لم ترض بأقل من سفك دم هذا الشيطان الذي تجسد في الهندي والتركي (كل «مواطن» في ظل الدولة العثمانية) والأسود والكاثوليكي والشيوعي والفييتنامي والفلسطيني والعربي والمسلم.

أبداً لم يعجز أنبياء «فكرة أميركا» عن نظم كل شاردة وواردة من نزعتهم الأمبراطورية ورأسماليتهم المتوحشة في عقد الهستيريا القيامية، وأبداً لم يخرج الشيطان من جسد الهندي الكنعاني إلاّ ليدخل في جسد الكنعاني الهندي.

والخطر في كل هذا، يقول ستيفن أوليري Stephen D. O'Leary مؤلف «حِجَاج القيامة: نظرية الخطاب القيامي»، لا يكمن في تلك الجماعات المتطرفة المعزولة بل في «أن غالبية الأميركيين ومعهم كبار المسؤولين السياسيين لا يختلفون عن هذه الجماعات إلاّ في درجة التوتر وطريقة التعبير عن هذا التوتر. إن نزعة الافتراض الروحي تنتشر بينهم... وعلينا أن لا نسرع إلى طمأنة أنفسنا بأن هذا الاعتقاد أحمق، فنحن على أبواب زمن قد تكون فيه الحماقة هي القاعدة»(٦).

* * *

هذا الكتاب الذي كتبتُ معظم فصوله في التسعينيات ونشرتُ بعضها في عدد من الدوريات، هو مرآة لتجربتي وقراءاتي في الولايات المتحدة على مدى عقدين من الزمان. إنه محاولة لتسليط الضوء على هذا الخطر الذي يهدد بقاءنا أمةً وأفراداً؛ الخطر الكامن في «فكرة أميركا» التي استوعبت في نزعتها الأمبراطورية ورأسماليتها المتوحشة ومسيائيتها النووية كل أساطير العبرانيين الأولين عن أنفسهم وعن العالم، كما استوعبت أطروحات وملاحم «نهاية التاريخ» القيامية، بدءاً من قيامة العراق وكل بلدان حضارات الشرق العربي القديم وانتهاء بتوطين يهود العالم في فلسطين وذلك من قبلِ أن تطرّ لحيةُ هرتزل بأكثر من ثلاثة قرون.

منير العكش

١٢ آذار/ مارس ٢٠٠٤

هوامش

(١) *The Journal of Christopher Columbus* (Anthony Blond and The Orion Press, London 1960), p. 128.

(٢) Tzevtan Todorov. *The Conquest of America,* Tran. Richard Howard. (Harper and Row, New York 1984). pp. 11-12.

(٣) Bartolomé de las casas, *A Short Account of the destruction of the Indies* (Penguin Boos, 1992), p.11.

(٤) Ibid, 27-28.

(٥) Conrad Cherry (ed.) *God's New Israel, Religions Interpretations of American Destiny.* p. 19. (The University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1994).

(٦) Stephen D. O'Leary, *Arguing The Apocalypse: A Theory of Millennial Rhetoric* (Oxford University press, 1998).

وانظر أيضاً:

www.mille org/scholarship/papers/olearyl.html

القسم الأول

تلمود العم سام

حق التضحية بالآخر وتطبيقاته
على الهنود الحمر والعرب



الفصل الأول

فكرة أميركا

«تاريخ الدين المدني [في أميركا] هو تاريخ القناعة الراسخة بأن الأميركيين هم الإسرائيليون فعلاً وشعب الله حقاً»

كونراد شيري، إسرائيل الله الجديدة

تحت مدينة واشنطن مقبرة جماعية كانت في يوم من الأيام مدينة «هندية حمراء» مسالمة تدعى «نَكن شَتَنكِه» Naconchatanke[(١)]. كانت مدينة نَكن شَتَنكِه مركزاً تجارياً زاهراً لشعب كونوي Conoy هنا على ضفاف نهر پوتومك قبل أن يبني جورج واشنطن عاصمته على أنقاضها. أما كونوي فكان اسماً لهذا الشعب المدفون تحت مدينة واشنطن عندما مشى الموت نائماً من پالوس إلى سواحل «الهند» ولم يستيقظ بعدها من نومه الزواحفي إلا على سواحل كنعان المستباحة.

كونوي وأكثر من ٤٠٠ ثقافة وأمة طوّحها هذا الموت النائم في هاوية كابوسه الهندي فتطايرت أسماؤها وأشلاؤها وكتبُ تاريخها

إلى «هند» مزورة متعسفة ليس لها وجود إلا في خريطة المنتصر وخرافات المجاهل التي لا تسكنها إلا الوحوش؛ هند لم تعرف نفسها ولم يعرفها الهنود. فجأة تعرت كل هذه الأمم ونبت من رأسها الريش وراحت تعول في براري كنعان الجديدة بصوت طريدة وحشية واحدة اسمها «الهندي الأحمر».

أكثر من ١١٢[٢] مليون إنسان ينتمون إلى أكثر من ٤٠٠ ثقافة وأمة ــ مطرودين من اللغات والألسنة والذكريات ورفوف المكتبات، محرومين من فردوس الموت الإنساني، مسلوخين من أسمائهم وأرواحهم وتوابيتهم وأرحام أمهاتهم ــ يرقدون الآن بسلام دائم كما يرقد شعب كونوي مع عضويات الوحول والطمي والغضار تحت المدن والمزارع والحقول الآمنة التي كانت ذات يوم مدنهم ومزارعهم وحقولهم وملاعب وجودهم.

معظم المستعمرات الإنكليزية بنيت في «مجاهل» العالم الجديد كما بنيت واشنطن الرابضة ببيتها الأبيض وقبّة كابيتولها وپنتاغونها على أنقاض مدينة نَكن شَتَنكِه وأشلاء شعب كونوي. ولعل كثيراً ممن يمشون في شوارع شيكاغو ونيويورك وروانوك وجيمستاون وكليڤلاند وبوسطن «اختيالاً على رفات العباد» قد لا يخطر على بالهم أن تحت أقدامهم أيضاً مدناً وقرى «هندية» مدمرة ومغمسة بدم شعوبها، بعضها أقيم على أنقاض مدن تجارية سياسية كبيرة مثل مكسيكو أو كيتو Quito، وبعضها أقيم على أنقاض حواضر متواضعة كانت تبرعم ما بين المحيطين مع نوار البراري مثل نَكن شَتَنكِه.

إن تزوير المنتصرين يغوص إلى أعماق الغثيان حين يتعمد كتابة

التاريخ وفقاً لسيناريو «الجريمة الكاملة» التي ارتكبها جورج واشنطن. وإنني ما زلت أحتفظ بالدليل السياحي الذي اشتريته من المطار يوم وصلتُ هذه المدينة لأول مرة قادماً من هدسن/أوهايو، وما زلت أذكر أن صفحته الأولى تحمل صورة الرئيس واشنطن بنظراته الناعسة المتكسرة وابتسامته الموناليزية وبعض المعلومات «التاريخية» عن المدينة، وأولها أن واشنطن أجمل عواصم العالم انبثقت من «مجاهل مستنقعية» marshy wilderness.

كل أطفال أميركا يتعلمون في مدارسهم ـ على غرار السياح المغفلين ـ كيف أن جورج واشنطن أحد ما يسمى بـ«الآباء العظام» للأمة الأميركية اختار موقع العاصمة في أرض عذراء على ضفاف نهر پوتومك، وكيف أنه طاف بنفسه في مجاهلها البكر واستحسن موقعها المفتوح على خيرات نهر أوهايو، متوسطاً مجاهل الشمال ومجاهل الجنوب. ليس هناك من طفل أميركي يتعلم شيئاً عما «تحت الحداثة» من دم وسلام؛ عما لا يعرفه إلا الموتى؛ عن أعضاء واشنطن السفلى؛ عن مدينة نَكن شْتَنكِه وشعب كونوي الذي دفن عام ١٦٢٣ تحت عاصمة «إسرائيل الجديدة» في أول لقاء بين مستعمري ڤرجينيا الإنكليز الذين كانوا يزعمون أنهم «شعب الله المختار» وبين هؤلاء «الكنعانيين بالقوة، وحتى الموت». يومها كانت هذه المدينة النهرية مقراً للزعيم «پتومكه» Patawmeke وشعبه، وكان النهر يسمى باسمه ويشق مدينة اسمها نَكن شْتَنكِه. هذا النهر الذي يشق الآن واشنطن ويفصل بين ولايتي ڤرجينيا وميرلاند وتطل عليه المقاهي السياحية وشرفات ووترغايت ومبنى الكونغرس وجنرالات البنتاغون كان قبل أن تخلق كل هذه الأسماء مسبحاً لأطفال كونوي ومغتسلاً لصباياه وريّاً لحقول الذرة وأشجار مثمرة لم تحلم بها فلسفة «هوراسيو».

أما الناجون الذين فرّوا من المذابح إلى جزيرة هيتر Heater في جنوب النهر وأسسوا فيها قرى وحواضر جديدة فسرعان ما أبيدوا بالجدري والسيف ونظرية الأمن وأحرقت قراهم وبيوتهم ومحاصيل حقولهم ليستولي على الجزيرة مستوطن متسلط من عائلة نلسون. وأما جزيرة هيتر التي قيل إنها كانت مجاهل لا يسكنها إلا الوحوش فقد فاضت اليوم عن حاجة البشر وتحول وجه الأرض فيها إلى مجاهل حقيقية مخصصة رسمياً للاستمتاع بالوحوش وحياة البراري. ولطالما زرت هذه «المحمية الطبيعية» وتأملت حيواناتها السعيدة للاستذكار والاستعبار، «فهذا كله قبر مالك».

إن الأسماء «الهندية» لكثير من مدن الولايات المتحدة وولاياتها ما تزال شاهداً على ذلك التزوير الذي أراد أن يبتلع كل شيء ويملأ كل شيء بدءاً من مدينة أركنصا التي جاء منها الرئيس كلينتون، وانتهاءً بمدينة شاتانوغا التي جاء من ولايتها تِننسي نائبه آل غور ومدن كثيرة مثل شيكاغو وتالاهاسي وسياتل وروانوك وكنساس وغيرها من معالم تلك «المجاهل الوحشية».

حين لفظتُ اسم مدينة نَكن شَتَنكه لأول مرة ضحك الطبيب الهندي وقال: «لا بأس! كنتَ ستلفظُ اسم «وا ــ شن ــ غتن» بنفس الصعوبة لو أنها كانت هي المدينة المقبورة تحت نَكن شَتَنكه، أو لو أن أهلها أبيدوا وانمحوا من ذاكرة الإنسانية كما أبيد أهل هذه المدينة».

كان يتفحص نقطة ضئيلة جداً من دم إصبعي على نصل عشبة الحديقة وهي تميل إلى لون القهوة، ويقول: «ربما آن لهم أن يمزجوا

دمنا معاً! أليس أنهم يسموننا أحياناً بعرب أميركا؟[٣] انظر. لقد امتصت العشبة حمرة الدم وصنعت منها ما يشبه بقّة الورد. صار للعشبة شكل ريشة الطاووس. هيا ندفنها عميقاً تحت العشب. نتركها لكيمياء الموت والتراب. إن معظم حدائق واشنطن وبيوتها وقصورها ومتاحفها ترقد فوق بحر من هذا الدم السري». من يعرف بأي قطرة يخفق القلب وتبدأ الحياة وبأية قطرة تتفتح بوابة العدم؟

في حفريات ١٩٧٥ عندما كانت تكنولوجيا الحداثة تحفر مسبحاً داخل حديقة البيت الأبيض للترفيه عن سيد القصر وجد علماء الآثار ما وصفوه يومها بأنه «آثارٌ ورممٌ بشرية تعود إلى مدينة نَكن شَتَنكِه وشعب كونوي». وسرعان ما انعقدت الألسنة الطويلة وصودرت الأشباح وأهيل التراب على جثة الفضيحة وامتد بساط الأعشاب من جديد فوق مقبرة «المجاهل» المعروفة باسم «حديقة الورد» Rose Garden.

هنا فوق أحشاء الموت الحارة احتفل الوجود والعدم بعد أقل من عقدين بتوقيع اتفاقيات أوسلو. وهناك على مسافة قريبة، ما بين البيت الأبيض ومبنى الكونغرس، كشفت الحفريات أيضاً عن مقلع للحجر الصابوني steatite مطمور تحت منطقة المتاحف The Mall وبعض العمائر الرومانية الرسمية تحيط به مواقع صناعية مختلفة كان حرفيو شعب كونوي يصنعون فيها الأطباق والغلايين والجرار والقدور من هذا الصخر الصابوني الناعم[٤]. ومن هذه «المجاهل المستنقعية» التي أقيم فوقها الآن ــ للإمعان في السادية ــ «متحف الهولوكست» كان شعب كونوي ينشط في تجارته مع شعوب «پوهاتان» و«توسكارورا» و«مونتوك» و«نانتيكوك» وغيرها من

الشعوب التي سُلخت من أسمائها وأبيدت ودفنت مدنها وحواضرها وقراها على طول الشاطىء الأميركي الشرقي تحت ما صار يعرف أولاً باسم «اسرائيل الله الجديدة God's New Israel»[٥] ثم باسم إنكلترا الجديدة New England.

هذه المدينة التي نصبت عرشها فوق مقبرة جماعية هي التجسيد الحي لفكرة أميركا، وهي فكرة «استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة وتاريخ بتاريخ. الشعب الأول مختار، أبيض، متفوق، ديموقراطي... إلخ، والشعب الضحية ملعون، ملون، منحط أو همجي...إلخ: إنه أولاً وأخيراً شعب بدون وجود، شعب من عدم ووهم وإحباط، شعب غير موجود إلا في عقلية المؤامرة، شعب أبيد على مستوى الفكرة في التجريد قبل أن يباد جسدياً. أنت لا تجد في قاموس حرب الإبادة التي يتعرض لها الشعب الضحية مباشرة أي ذكر لاسمه أو مشاعره أو تفاصيل موته اليومي، فليس لوجود الشعب الضحية لغة إلا في عدمه. أنت لا تراه بمجهر ولا تلمس له أثراً في الأفق المحدَث event horizon. كيف يموت من لم يولد بعد؟ من يشيع جنازة العدم؟ صارت الإبادة على مستوى الفكرة عنصراً لازماً لتحرير بعض ذوي الضمير من عقدة الذنب، ولازماً لصرف النظر عن حقيقة الإبادة نفسها، ولازماً للرياضة الذهنية ومخيلة اللورد بايرون هنا ووالت ويتمان هناك. إن كل «وجود» الآخر هو في النهاية مجرد «طعام»، وحياته ليست إلا بضع لقيمات أو لعلها فرصة استثمار رابحة في مشاريع «ثروة الأمم». إنه «كائن»، لكن كينونته بدون روح أو حياة. تماماً كأن العالم هنا منظور بعيون الذئاب وخاضع لمنطق أنيابها. وهذا ما أشار إليه رسل مينز Russel Means أحد زعماء الحركة الهندية في سياق نقده للعلاقة النفعية بين الإنسان الأوروبي وبين الطبيعة:

> إن تفريغ الكون من روحه في التقليد الأبيض لا يختلف عن ذهنية تجريد الآخر من إنسانيته. ولكن من هم أولئك الذين يعيشون بذهنية تجريد الشعوب من إنسانيتها؟

> الجنود الذين خاضوا كثيراً من المعارك تعلموا تجريد الأعداء من إنسانيتهم قبل أن يزحفوا إلى جبهة القتال. المجرمون يفعلون ذلك قبل ان ينقضّوا على ضحاياهم. جلادو معسكرات التعذيب النازية فعلوا ذلك بمعتقليهم. وكذلك رجال الأمن. إن أصحاب الشركات الكبيرة أيضاً يجردون عمالهم من إنسانيتهم قبل أن يرسلوهم إلى مناجم اليورانيوم أو مصانع الفولاذ. كذلك حال رجال السياسة مع كل الناس. إن لكل وجوه تجريد الإنسان من إنسانيته عند هذه الجماعات المختلفة قاسماً مشتركاً هو تبرير قتل الآخر، وسحق الشعوب الأخرى. ولكن، بما أن إحدى الوصايا المسيحية تقول «لا تقتل» (البشر في أضعف الإيمان) فقد تفتقت حيلتهم عن تحويل ضحاياهم ذهنياً إلى ما ليس بالبشر، ليضفوا بذلك على القتل وعلى تحديهم وصية ربهم صفة الفضيلة[٦].

من هذا المنطق تتخذ الحملات المنظمة لإبادة هذا الشعب الضحية شكل معارك معذورة مبررة اضطرارية يقودها الله نفسه لتأديب الشيطان الذي أحاله «مسخُ الكائنات» إلى شراذم ملعونة، همجية، منحطة، بربرية، ديكتاتورية، إرهابية... في ثنوية حادة لا يلج فيها ليل بنهار ولا نهار بليل. إنها «الجريمة الكاملة» التي استعصت على

البرهان فشيدت صرحها العقلي بهلوانياً؛ مبتدئة بسقف السماء.

ومن جديد، عبّرت هذه الفلسفة عن نفسها في المذابح التي ارتكبها النازيون ضد الغجر والبولونيين واليهود والسلاف. إن المنطق والتصورات التي حددت طبيعة الضحية في كل حروب أميركا لا يختلف عن المنطق والتصورات التي حدد بها النازيون ضحاياهم، بل إن هناك كثيراً من الدراسات حول إعجاب النازيين بالتجربة الأميركية مع الهنود كما بينت ذلك في «أميركا والإبادات الجماعية». كلاهما يُعرّف عدوه باصطلاحات «التفوق» وعقلية الاختيار ويفهم الحرب بلغة الإبادة الكاملة؛ لغة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة وتاريخ بتاريخ. وكلاهما يخوض هذه الحرب بسبب مجموعة من مفاهيم التفوق وقِيَم السوق. ولا شك في أن لعقلية الإبادة عندهما أساساً واحداً من التصورات والأفكار والقيم والتطبيقات العملية أقوى من كل تلك الأسس التي بنيت عليها ما يسمى بالعقلية البدائية أو عقلية القرود The Mentality of Apes. إن المبررات التي تذرعوا بها لارتكاب ما ارتكبوه تتحدث بلغتين مختلفتين لكن معناها واحد. لقد توهموا بأنهم كائنات متفوقة فأعطوا لأنفسهم حق استباحة كل ما يملكه ضحاياهم وحق تحديد آجالهم ومصائر أرواحهم. كان شعب الله الآري مفتوناً بأسطورة الإنسان الكامل superman ومهووساً بالتوسع في ما آمن بأنه مجاله الحيوي lebensraum بينما كان شعب الله الأنغلوسكسوني مفتونا بعقيدة الاختيار الإسرائيلية وما ترتب عليها من تقليد «عبادة الذات» ومهووساً بالتوسع في ما آمن بأنه القدر المتجلي manifest destiny. وفي الحالين، كان لا بد لتوسع المتفوقين والمختارين في بلاد المنحطين والملعونين من «استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة وتاريخ بتاريخ».

هذه القواسم المشتركة من السلوك والتصرفات التي مارسها غزاة أميركا في زحفهم بقدَرهم المتجلي مع مسيرة الشمس من الشرق إلى الغرب، ومارسها النازيون بعدهم في زحفهم بمجالهم الحيوي نحو الشرق قد يراها بعض أصدقاء من يسمون بـ «المؤرخين الصهاينة الجدد» مقارنة متكلفة أو مغرضة ومتعسفة. لقد ساقتهم أسباب مختلفة إلى الاعتقاد بأن ضحايا «الشعب المختار» هم أيضاً ضحايا مختارة لا يمكن مقارنتها ومساواتها بضحايا منحطة مثل الهنود الحمر والغجر والبولونيين والأوكرانيين أو العرب، ولهذا فهم يقولون إن جرائم النازيين تختلف عن جرائم غزاة أميركا نوعاً وكمّاً، وأن الحديث عن القواسم المشتركة بين غزاة أميركا وبين النازيين هو مجرد بلاغيات غير مقنعة. إن منطقهم ــ وصَغارتَهم inferiority أحياناً أمام أصدقائهم الإسرائيليين ــ يخيل إليهم أن فكرة مقارنة الضحية اليهودية المقدسة بغيرها هي فكرة مستحيلة عقلياً، ومستحيلة بيولوجيّاً (عنصرياً)، وأن أي نقد لمسلمات التاريخ المنتصر هو نقد منحط «رذيل سافل»[٧] لأنه يتضمن ــ في اعتقادهم ــ تحدياً للقدسية التي ألقاها شعب الله على أساطير تاريخه المنتصر، ولأن هذا سيشجع على إنكار دم ضحايانا![٨]. إنهم في نقدهم، وشتائمهم أحياناً، لكل مقارنة بين جرائم النازيين وبين جرائم غزاة أميركا يتجاهلون أن الخلاف بين ما فعله النازيون ومستعمرو العالم الجديد يعود إجمالاً إلى:

أولاً، طبيعة وسائل الإبادة المتاحة. وقد استخدم الشعبان المختاران وسائل الإبادة المتاحة لهما بكل طاقاتها. فلو أننا أعطينا كل طرف سلاح الآخر لما تغيرت إلا أسماء الضحايا.

ثانياً، طبيعة الكثافة السكانية بين أوروبا والعالم الجديد. وهذا ما يجعل نسبة القتل التي ارتكبها مستعمرو أميركا أكبر بعشرات المرات من نسبة القتل التي ارتكبها النازيون (١١٢ مليوناً في الأميركيتين، و١٨,٥ مليون في الشمال الأميركي، لم يبق منهم في إحصاء أول القرن العشرين سوى ربع مليون).

ثالثاً، الخلاف بين طبيعة التاريخ المنتصر والتاريخ المهزوم. فمن «موقع التاريخ المنتصر» تطلق الولايات المتحدة على سفاحيها ومجرميها ــ مثل الرئيس ابراهام لنكولن صاحب المشانق الجماعية للأسرى الهنود والرئيس أندرو جاكسون Andrew Jackson الذي أباد أكثر من نصف شعب الشيروكي وأباح قانونياً لكل فرد أميركي أن يطرد الهندي من أرضه ويستولي عليها ــ لقب الأبطال ورجال الدولة statesmen الذين بنوا عالماً ديمقراطياً متقدماً[٩]. إنك لو أردت أن تعرف أي تاريخ منتصر سيكتبه الألمان للشعوب المهزومة وما كان يمكن أن يجري لو أن النازيين انتصروا في أوكرانيا وبولندا وبريطانيا وفرنسا وغيرها من المناطق التي اجتاحوها فما عليك إلا أن تعيش في واشنطن القابعة فوق مدينة نكن شتنكه وأن تقرأ هذا التاريخ المنتصر الذي تجسده فكرة أميركا.

صحيح أن فكرة أميركا استمدت مثالها وأخلاقها ومعظم إسقاطاتها من حكايات العبرانيين وأساطير «إسرائيلهم» في العهد القديم والتلمود والأفكار القبالية، وصحيح أنها أسقطت هوية العبرانيين على الغزاة الأوروبيين وهوية الكنعانيين على شعوب أميركا، واستمدت هستيريا الإبادة من وهم تحويل كنعان الجديدة إلى إسرائيل جديدة، لكن فكرة أميركا التي استنسخت فكرة

«إسرائيل الأولى» تميزت عنها بشموليتها. ففكرة إسرائيل وتجميع اليهود في فلسطين، وتأسيس دولة يهودية فيها واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة أخرى؛ كل ذلك ليس إلا عنصراً واحداً من عناصر «فكرة أميركا» ومشروعها لـ«نهاية التاريخ». لقد استوعبت «فكرةُ أميركا» فيما استوعبته معظم أطروحات هرتزل وأحلامه وخططه قبل أن يخلق هرتزل بثلاثة قرون، ووضعت كل أطروحات وملاحم «نهاية التاريخ» من طقوس تدمير بابل وإبادة أهلها قبل أن تُختَلق دولة إسرائيل بأكثر من خمسة قرون. وكما سيرى القارىء فإن هاجس أميركا بتأسيس دولة يهودية في فلسطين أعرق من الحركة الصهيونية اليهودية وأشد تطرفاً وطموحاً. إن الصهيونية اليهودية لم يكن لها أن تظهر تاريخياً بالزخم الذي ظهرت فيه في نهاية القرن التاسع عشر لولا أن صهيونية الشعب الإنكليزي على طرفي المحيط الأطلسي تبنت كل أحلام هرتزل منذ نهاية القرن السادس عشر. وإذا كانت الصهيونية اليهودية تستهدف «أرض إسرائيل» فإن الصهيونية غير اليهودية تستهدف أرض إسرائيل وإسماعيل وإبراهيم، بل إنها تستهدف اليهود أنفسهم في النهاية وتتبنى أبشع مشاعر ما يدعى في التقليد الغربي بالعداء للسامية.

إن الثوار الإنكليز من البيوريتان Puritans (المتطهرين) الذين استوطنوا أميركا الشمالية وأورثوها أبرز خصائصها وملامحها لم يستوطنوها لأسباب تجارية خالصة، ولم يهاجروا إليها طلباً لحرية العبادة وحسب، وإنما كانت تجسد لهم أيضاً فكرة مستمدة من أدبياتهم العبرية ونظرياتهم عن «نهاية الزمان». ففي أقل من خمسين سنة مضت على تأسيس جون سميث John Smith للمستعمرة الإنكليزية الدائمة الأولى في جيمستاون Jamestown عام ١٦٠٧

وصل إلى العالم الجديد ٨٠ ألف مستوطن إنكليزي أسسوا فيه ١٨ جماعة مستقلة مختلفة تمتعت كل واحدة منها باستقلالها وسيادتها الكاملة على مستعمرتها، لكن كل هذه الجماعات منحت نفسها وسام العبرية ولقب «الشعب المختار» وقدست اللغة العبرية، وطالبت بتطبيق شريعة موسى وسمّت مجالها الحيوي lebensraum من الأراضي المغتصبة باسم «أرض كنعان» أو «إسرائيل الجديدة» أو «صهيون» أو «أرض الميعاد» أو غير ذلك من التسميات التي أطلقها العبرانيون على فلسطين. كذلك كانت كلها تتلذذ بإبادة شعوب أميركا بسادية واحدة ومبررات أخلاقية وأسطورية واحدة أسقطت فيها على نفسها وعلى ضحاياها معظم الروايات العبرانية عن أرض كنعان وأهلها. كانت «نهاية الزمان» تنتظرهم مثل السفنكس على رمل الساحل عارية تلّوح بعناقيد غضب الرب. إن مجرد خروجهم من «مصر/ إنكلترا» إلى «أرض الميعاد/ أميركا» كان دليلاً على أن رياح العبرانيين الإنكليز تجري بسفينة التاريخ البشري إلى جهنم، وأن الله قد صاغ منهم المعنى الذي يمحو كل معنى آخر، واختارهم لبناء أمبراطورية المحو هنا على الأرض ليحكمها مع قديسيه مدة معلومة هي ألف سنة (تعرف بالمملكة الألفية). وفعلاً فقد تخلت مملكة الله للإنكليز عن تعاليها ومثاليتها وتساميها واعتنقت ذرائعية جون ديوي. بذلك سقطت من السماء إلى الأرض ومن مملكة يحكمها القديسون إلى مملكة يحكمها «الشعب الإنكليزي المختار»، وانتصر ــ في السماء كما على الأرض ــ مبدأ استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة، وألحقت «مملكة الله» بوزارة المستعمرات البريطانية.

كان رمز «المدينة الجبلية» The City upon a Hill في اللاهوت الاستعماري الإنكليزي واحداً من أقدس رموز «فكرة أميركا»[١٠]

وأنفذها في الزمن، فهو يماهي بين أميركا وبين «أورشليم الجديدة» عاصمة مملكة الله التي ستبنى في آخر الزمان على جبل فوق أنقاض مدينة «القدس»، تماماً كما بنيت واشنطن الجديدة فوق أنقاض مدينة نَكن شَتَنكه. ولطالما كان رمز «المدينة الجبلية/أورشليم الجديدة» أحد مفاتيح فكرة أميركا لدى السياسيين والزعماء الأميركيين من جورج واشنطن إلى جورج بوش. فإذا تعذرت القدس وكانت دونها الأهوال ولجج الدم وهيبة «الرجل المريض» فلتكن نكن شَتَنكه. إن أورشليم هي «حجر رشيد» كل اللغة الهيروغليفية التي كتبت بها النصوص والخطب والاستراتيجيات الجيو/قيامية على طرفي المحيط. بدون «أورشليم» سيُحرم الإله من شعبه الذي أعطاه معناه، وبدونها لن يكون للزمان نهاية ولن يستمتع «الشعب المختار» بطقس الإبادة وأرض صارت كلها «عاي»[١١]. لن «يأكل لحم الجبابرة إلى التخمة، ولن يشرب الدم إلى السكر» لهذا ظل رمز أميركا/المدينة الجبلية/أورشليم» إلى الآن، كما يقول المؤرخ البريطاني پول جونسون Paul Johnson صاحب *A History of the American People* في محاضرة له في مكتبة پييرپونت مورغن بنيويورك Pierpont Morgan Library: «يُحيي في النخبة الأنغلوسكسونية [الحاكمة] مشاعر عقيدة الاختيار، ويؤكد قناعتهم المتوارثة بأن أميركا هي الجسر إلى مملكة الله، وأنهم هم يد الله التي ستبني أورشليم الجديدة على أنقاض القدس. وظلت هذه النخبة تعتقد أن الاختيار الإلهي لها قدر محتوم أو أنه إرادة الله التي عبر عنها أنبياء إسرائيل الجديدة في بداية القرن السابع عشر ثم أكد عليها كل رؤساء الولايات المتحدة بلا استثناء»[١٢] بدءًا من جورج واشنطن في خطبة الوداع عام ١٧٩٦ وانتهاء بالرئيس بيل كلينتون في خطابه المسكوني اليوم (الخميس، الخامس من شباط/فبراير ١٩٩٨) أمام ألفين من رجال

السياسة والفكر وأعضاء الكونغرس حيث شبه نفسه عن جدارة ـ في أوج فضائحه الشبقية ـ بالملك سليمان، وشبه الأميركيين بشعب الله المختار[١٣]، وحيث شكر للأميركيين إرشاداتهم ونصائحهم التوراتية للتعامل مع العراق، ورسائلهم المشجعة على قصفه.

إنه حبل من مسد لم ينقطع من جون سميث إلى نورمان شوارزكوف ومن سفينة المستوطنين الإنكليز الأوائل «مايفلور» إلى حاملة الطائرات «جورج واشنطن». فلطالما أباد شعب الله الإنكليزي أولئك الهنود نيابة عنا بعد أن جعلهم كنعانيين بالقوة وتدرب فيهم وأسقط عليهم كل ما يكنّه لنا من صداقة وحب. لقد ظلت أميركا دائماً وأبداً ـ والكلام لپول جونسون ـ تعد العدة لتلك «المدينة الجبلية/أورشليم الجديدة» التي ستبنى على أنقاض مدينة القدس.

الهوامش

(١) قصة نكن شتنكه المدفونة تحت مدينة واشنطن مذكورة في كتاب *Indian Givers* لجاك وذرفورد Jack Wetherford، ص ٢٣٠ وما بعدها، **نيويورك** ١٩٨٨. وهناك خلاف في لفظ اسم المدينة الهندية بين المصادر التي ذكرتها. راجع *The Indian Tribes of North America* لجون سوانتون John R. Swanton، ص ٨٥. صادر عن Smithsonian Institution Press، واشنطن العاصمة ١٩٦٩.

(٢) هذا الرقم مستقى من *The Native Americans, An Illustrared History, Ed. by Betty& Ian Ballantine, Atlanta.* لكن التقديرات متفاوتة كثيراً. ويحاول التاريخ المنتصر حصرها بخمسة ملايين ، وأحياناً بمئات الآلاف.

(٣) إشارة إلى تيارات عنصرية أميركية تسمي هنود أميركا بالعرب تحقيراً. ويروي وولتر كاواموتو Walter Kawamoto من جامعة ولاية أوريغن Oregon State University والمسؤول عن الأقلية العرقية في المجلس الوطني للعلاقات العائلية National Council on Family Relations أن اسم «عرب أميركا» يطلق على الهنود الأميركيين في دروس العلاقات العرقية وفي أدبيات عدد من المنظمات الوطنية الأميركية. كذلك يطلق عليهم اسم «المسلمين الأميركيين» كما في حالة الدراسة العرقية لأسرة Harried McAdoo. (راجع: http:// bioco2.uthscsa.edu/.aises/gst/mhx/chot/msg01235.html). وتسمية الهنود الحمر بالعرب في النهاية ليست جديدة، ففي دراسة عما يسمى بالهنود الخفاء أو اللامرئيين Invisible Indians تتحدث العالمة الأنثروبولوجية Louise Heite وزوجها إدوارد عن الهنود الذين كان المستعمرون الأوروبيون يسمونهم باسم «المور» لا سيما أولئك الذين نجوا من الإبادة وتم استيعابهم في المجتمع الأوروبي الاستعماري، أو الذين نجوا من المذابح على طول الشاطىء الشرقي وعاشوا خارج المنعزلات الهندية Reservations أو خارج التجمعات التي تعترف وزارة الداخلية الأميركية بهنديتها. فكل هندي نجا من الإبادة ولم يعش في «المنعزلات» أنكرت الولايات المتحدة عليه هنديته وصارت تطلق عليه اسم «مور= مسلم» أو «مُبَغَّل» Mulato (كلمة مستمدة من تهجين البغال mules)، أو «زنجي». وقوانين ولاية فرجينيا ما تزال إلى الآن تصف طفل الهندي الذي لا يعيش في المنعزلات بأنه مبغّل. والغريب أن بعض عملاء البيض ممن أثروا على

حساب إبادة شعوبهم الهندية تمتعوا بصفة «البيض» فيما ظل آباؤهم أو أخوتهم أو أبناء عمومتهم تحت صنف «الزنوج» أو «المبغلين» (راجع *The Africans and Native Americans: Language of Race and the Evolution of...,* لجاك فوربس Jack D. Forbes، ص ٦٧ و١٣١، University of Illinois Press. وكذلك راجع: http://home.dmv.com/~eheite/indians/invisible.html). كان تعبير «المور» (المسلم) لدى بعض مثقفي وكتاب أواخر القرون الوسطى يعني كل من ليس أبيض. فالإنسانية التي رسمها عصر ألبرت دورر Albrecht Drer هي إما أبيض أوروبي مسيحي أو زنجي عبد مسلم moore=mohr. ويقول فوربس: إن كلمة more الفرنسية وmaurus الإسبانية و moro الفالنسية اشتقت جميعاً من الكلمة اللاتينية morus وتعني الزنجي.

(٤) *Indian Givers*، ص ٢٣١.

(٥) تجد عدداً كبيراً من الأسماء العبرية التي أطلقت على المستعمرات الإنكليزية في العالم الجديد في *«God's New Israel»;* لكونراد شيري Conrad Cherry الصادر عن Englewood Cliffs، عام ١٩٧١.

(٦) راجع مقالة The Same Old Song لرسل مينز Russel Means في كتاب *Marxism and Native Americans* تحرير Ward Churcill، بوسطن، ص ٢٢.

(٧) بمثل هذه الصفات التي لا تثبت حقاً ولا تدحض باطلاً استعان عرب «المؤرخين الصهاينة الجدد» على شتم كل من يشكك في أساطير التاريخ المنتصر. ولأسباب لا علاقة لها بحرية التعبير فتحت بعض الصحف العربية الباب لمن هب ودب لشتم كل من يصف الإسرائيليين بأنهم أعداؤنا. إن القول بأن الإسرائيليين أعداء صار ــ كما يقولون ــ «صراخاً ونباحاً وأصولية وتخلفاً وسلبية وشعارات طنانة وأحقاداً مجانية ومماحكات سفسطائية وأطناناً من القمامة وجهلاً بالواقعية الجديدة» وغير ذلك من هذا اللبط والقصف العشوائي الذي يريد منك أن تعلن استسلامك.. وإلا، مما لا تقرأه حتى في «هآرتز» و«دافار». وسأذكر هنا مثلاً واحداً على هذه الصهيونية العربية المتصاعدة في خطاب أنظمة ودوائر إعلامية عربية تؤكد يوماً بعد يوم أنها صارت مكاتب فرعية لحزب العمل الإسرائيلي ودائرته الإعلامية: إن أحد كتاب صحيفة «الحياة» السعودية (٢٤ آب/ أغسطس ١٩٩٨، ص ١٦) بعد أن يعدنا ببركات حزب العمل الإسرائيلي وخيراته، ويطمئننا إلى أن العالم العربي سيتحول سمناً وعسلاً بفضل الديموقراطية

الإسرائيلية، وأن إسرائيل هي التي ستشفينا من عاهاتنا. يقول مقرراً ثقته العمياء بحزب العمل الإسرائيلي ومعرفته بنواياه:

«بعد سقوط نتنياهو ستكون إسرائيل حكومة وشعباً جارتنا الطيبة... نقيم (وهنا يتحدث باسم الأمة العربية) معها المشاريع الاقتصادية والثقافية والعلمية المشتركة وسنتعلم ونستفيد منها أكثر مما ستتعلم وتستفيد منا».

ويستغرب صاحب هذا الكلام كيف وصل بنا الانحطاط والتخلف الحضاري والسلوك الإجرامي والنوايا العدوانية إلى وصف الإسرائيليين بأنهم عدو. (لاحظ أنه يتحدث عن الإسرائيليين وليس عن اليهود) فيقول:

«إنني أضع واعياً [كلمة] عدونا بين قوسين لأن الإسرائيليين ليسوا أعداء لنا [مرة ثانية لاحظ أنه يتحدث عن الإسرائيليين وليس عن اليهود] بل أبناء عمومتنا وجيراننا الذين قضت علينا حقائق التاريخ والجغرافيا بأن نتعايش معهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والله خير الوارثين. وهم فوق ذلك إخوة لنا في الإنسانية... ويعملون مئة ألف مرة أفضل مما نعمل... (راجع جريدة **«الحياة»** السعودية، لندن، ٢٤ آب/أغسطس ١٩٩٨).

هذه عينة واحدة من خطاب الذين قضت عليهم حقائق التاريخ المنتصر والجغرافيا المنهوبة وحضارة الوعي الشقي وحرية الصحافة في الشؤون التي لا تسيء إلى الاستعمار الصديق أن يصيروا إخوة الإسرائيليين وأبناء عمومتهم وأن يتعايشوا معهم في فلسطين المحتلة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. أما ملايين الإخوة في المخيمات والمهاجر والمعتقلات فقد طردوا من فردوس الإخوة الإنسانية وملكوت التعايش بين الإسرائيليين وإخوانهم العرب الذين أصروا على توظيف الله شاهداً على هذا السفاد الانفرادي. ولعل فاجعة هؤلاء بأنفسهم أشنع من فاجعتنا بهزيمتهم الروحية والأخلاقية والوطنية والعقلية. مثل هذه الأوهام والتمنيات والإسقاطات لم تخدع أصحابها إلا لأنهم أسقطوا من حسابهم أن الغرام حين يكون «عزفا منفردا» يصبح مرضاً أو شذوذاً، وأنهم أعموا عيونهم عن حقيقة أن إخوانهم الإسرائيليين وهم دينياً وأيديولوجياً وتاريخياً وعملياً على أرض الواقع لا يعترفون بإنسانيتهم. إنهم لا يكتفون بالتمييز العنصري بينهم وبين كل البشر بل إن المجتمع الإسرائيلي ــ كما يقول إسرائيل شاحاك في «عنصرية الدولة الإسرائيلية» ــ المجتمع الوحيد على الأرض الذي يميز بين «دجاجة يهودية» و«دجاجة غير يهودية»، و«خسة يهودية» و«خسة غير

يهودية» ولا يرى في العربي (الأخ والعدو) شيئاً أعظم في عينه من عبد أو حيوان.

في سياق هذا الردح والشتم والتهويل والمقارنات الفظة بين «التخلف العربي والتحضر الصهيوني، والإنسانية الصهيونية والإجرام العربي، والأخلاقية الإسرائيلية والسلوك الإجرامي العربي»، يدعونا أخو الإسرائيليين في آخر كلامه إلى علاج كل مصائبنا بالسلوك الحضاري الذي دعا إليه ــ كما يقول ــ صديقه الحميم وأستاذه أحد موظفي الصحيفة. وقد ظللت أبحث عما يقصده صديقه موظف هذه الصحيفة بالسلوك الحضاري الذي يحسّن صورتنا في أعين العالم وكأننا نحن الذين نحتل بلاد العالم وننهب ثروات العالم ونمارس حرب الإبادة المنتظمة لشعوب العالم ونسيطر على مقدرات بلدان العالم برؤساء وملوك وأمراء وسدنة يتلقون أوامرهم مباشرة من أجهزة استخباراتنا إلى أن قرأت لهذا «الصديق الأستاذ تعليقاً بهذا الخصوص («**الحياة**» السعودية، ٥أيلول/سبتمبر ١٩٩٨، ص ١٤) يدعو هذه الأمة المنكوبة به وبتلميذه أخي الإسرائيليين إلى تحسين صورتها بالترويج للرقص الشرقي والتبولة والكسكس، فيقول:

«... نحن العرب لم نعمل مرة على تطوير (صورة) لنا ذات جاذبية، وذات قدرة على دخول عقول الغربيين وقلوبهم وبيوتهم... من أين تبدأ هذه الصورة؟ من مهام متواضعة نطرحها على أنفسنا، مستفيدين من نجاح المآكل العربية (من التبولة اللبنانية إلى الكسكس المغربي) وغيرها مما وجد له استقبالاً حسناً في الخارج، والعمل بالتالي على:

أ ــ ترويج الرقص الشرقي

ب ــ وتعليمه، مثلاً

ج ــ ودفع من يملك المال بيننا لإنفاق بعضه في هذا المجال (مجال ترويج الرقص الشرقي) أو ما يشابهه من مجالات ثقافية وحضارية راهنة. [ولا يوضح ما هو الفن الذي يشابه الرقص الشرقي من مجالات ثقافية وحضارية، لكنه يدعو إلى ضرورة أن لا تكون لهذا الفن صلة بتاريخنا وتراثنا وثقافتنا وحضارتنا التي عشناها فيقول]: مجالات لا صلة لها بالماضي الذي لا يُلمس له أثر، من نوع: نحن كنا كذا ونحن كنا كذا...

قبل أوهام هذا الفيلسوف المتسعود وتلميذه أخي الإسرائيليين كان بعض من أصحاب الوعي الشقي من قبيلة الشيروكي قد ظنوا مثل ظنهما في أعدائهم

الأميركيين فراحوا يشتمون أهلهم كما يشتمان ويمدحون عدوهم كما يمدحان، ويقلدونهم في المأكل والملبس والسلوك الحضاري حتى إنهم شقّروا شعورهم وبيّضوا وجوههم وشاركوا الأميركيين في معاركهم ضد شعوبهم، بل اتخذوا في بيوتهم عبيداً من أهلهم الهنود راحوا يبالغون في احتقارهم وتعذيبهم أكثر مما كان يفعل السادة النجب. كانوا يعتقدون أن الأميركيين سيرفعون لهم تمثالاً ويقدرون لهم هذا الاستلاب التطوعي. ولكن ما إن وضعت الحرب أوزارها حتى ألحقهم الأميركيون بركب أهليهم ولم يجدوا فيهم شيئاً مختلفاً عن بقية شعب الشيروكي. وكان مما قاله الجنرال توماس غايج Thomas Gage لمثل هؤلاء المخدوعين: ألم يحن الوقت لكي يفهم هؤلاء الهنود أنهم لم يكونوا حلفاء بل حثالة من العملاء الأنذال! (راجع جسور ٨/٧. ١٩٩٦، ص ٣٧ ـــ ٣٨).
وأذكر أنني حين فررت بجلدي من نار الحرب الأهلية اللبنانية في كانون الثاني/ ١٩٧٦ كان معي في الطائرة واحد ممن كانوا يسمون فرنسا بأمهم الحنون. وقد نخر أذني بالحديث عن «تميزه العرقي» والثقافي عن العرب، وعن علاقته المميزة بفرنسا والحضارة الفرنسية حتى ظننت أن باريس ستمد له السجاد الأحمر تقديراً لعواطفه ومواقفه. وكانت أول مفاجأة لهذا المسكين أنه احتجز في مطار أورلي وأهين لأسباب شكلية تافهة، ثم كانت القاضية عندما اكتشف ان الفرنسيين لم يسمحوا له بالعمل وأنهم لم يكونوا يرون فيه شيئاً مختلفاً لا عن العرب الذين يحتقرهم ولا عن بقية المهاجرين من فيتنام والصومال والكونغو وجزر الغويان كما حدثني عندما التقيته ذات ليلة يستجدي لقمتَه على باب البيت اللبناني.

(٨) أما الاستحالة العنصرية فنتركها لأصحاب الوعي الشقي من أصدقاء «المؤرخين الصهاينة الجدد»، فهذا التمييز العنصري بين ضحايا اليهود وضحايا الهنود الحمر قادهم من أنوفهم إلى شتم مقاومة أبناء شعبهم للاحتلال واتهامهم بـ «السلوك الإجرامي والنوايا العدوانية». وكانوا بذلك أول المشجعين على إنكار دم ضحايانا. لقد أرغمهم ذلك أيضاً على تمييز عنصري بين اليهود وبين أهلهم الفلسطينيين فراحوا يصفون ضحايا أهلهم بلغة لا تختلف عن لغة مئير كاهانا.
هذا الفخ الذي وقع فيه أصدقاء المؤرخين الصهاينة الجدد لم ينجم عن حماستهم لكسب الأصدقاء من المعسكر الآخر، فهذا عمل مشروع وضروري، وإنما نجم عن اعتقادهم الساذج بأن ما بيننا وبين الصهاينة هو خلاف في الرأي أو الذوق مثل الخلاف على عمود الشعر ونواقض الوضوء وتعريف مابعد الحداثة. وفعلاً فهناك تيار إسرائيلي وعربي رسمي يصر على أن الخلاف بين العرب والإسرائيليين

ليس على وطن محتل بل هو مجرد تباين في وجهات النظر، وبالتالي فإن حل هذا الخلاف يبقى بالضرورة في إطار الحكي. لم يعد ما بيننا وبين الإسرائيليين في مناخ هذا المنطق المستسلم للموت المجاني صراعاً وطنياً نبيلاً ومشروعاً لتحرير ثلاثة أوطان عربية يرزح بعضها أو كلها تحت أبشع نظام استعمار عنصري على وجه الأرض. لقد انتهى كل شيء وانسدت كل السبل ولم يبق إلا استجداء الشفقة وعقد الآمال على «الفضائل اليهودية». هذا التزوير في طبيعة الصراع يعني كما يقول الزعيم الهندي رسل مينس القبول بأن نضحي بأوطاننا وننتحر ثقافياً. إن مجرد التسليم بنهاية هذا الصراع الوطني على فلسطين وتحويله إلى سفسطة وخلاف في وجهات النظر ولهاث وراء تحسين الصورة واستجداء شهادات حسن السلوك وَصَلَ بأنظمة الاستعمار الداخلي وأصدقاء «المؤرخين الصهاينة الجدد» إلى عكس ما يريده أصحاب النوايا الحسنة منهم، فقد ساقتهم هذه الهزيمة النفسية والأخلاقية والوطنية للوقوف في خندق أعدائهم. لهذا كانت كتابات «المؤرخين الصهاينة الجدد» أكثر صدقاً ونبلاً من كتابات أصدقائهم العرب ومعهم غوغاء وبلطجية كثيرون لم يقرأوا كلمة من كتابات «المؤرخين الصهاينة الجدد» فراحوا يأخذوننا بالعَرض باسم الحضارة والفكر والواقعية الجديدة وعقلية المؤامرة وهذه الكلمات والاصطلاحات التي صارت أقنعة تهريج في كرنفال الصهيونية العربية المنتصرة. حين سئل الزعيم الهندي رسل مينس عن إمكانية التحالف مع الماركسيين وما يمكن أن يفعله هؤلاء للقضية الهندية قال:

«إنك [أيها الهندي] لا تستطيع أن تحكم على طبيعة عقيدة أوروبية ثورية انطلاقاً من «التغيير» الذي قالت إنها ستحدثه في بنية المجتمع الأوروبي وسلطته. إنك لا تستطيع أن تحكم عليها إلا من خلال التأثيرات التي ستحدثها في المجتمعات غير الأوروبية. فكل ثورات التاريخ الأوروبي كانت في النهاية تدعم قدرة أوروبا ونزعتها إلى إبادة الشعوب الأخرى وتدمير ثقافاتها وبيئاتها. وإنني أتحدى أي إنسان يعطيني مثلاً على بطلان ما أقول... طبعاً، قد يكون هناك بعض الالتباس اللغوي . فالمسيحيون، والرأسماليون، والماركسيون، كلهم كانوا ثوريين في منطقهم وأفكارهم وعقولهم، ولكن ليس هناك واحد من هؤلاء كان يعني الثورة بقدر ما كان يعني «الإستمرار». لقد فعلوا ما فعلوه من أجل أن تستمر الحضارة الأوروبية في الوجود والتطور وفقاً لحاجاتها. إن الحضارة الأوروبية قد تصاب بما تصاب به الجراثيم والميكروبات من تشنجات عنيفة موقتة، بل قد تتعرض إلى انقسامات في داخلها من أجل أن تمضي في حياتها ونموها. هذه ليست ثورة بل وسيلة لاستمرار ما هو موجود. إن «المتمورة» وحيدة الخلية amoeba تظل بعد

انقسامها وحيدة الخلية. ولربما أن مقارنة الحضارة الأوروبية بها ليس إنصافاً لها. فمقارنتها بخلايا السرطان أدق وأوفى لأن الحضارة الأوروبية على مدى تاريخها دمرت كل شيء حولها وهي فعلاً ستدمر نفسها.. لهذا فإن تشكيل قوى مشتركة بيننا وبين الماركسيين يعني أن علينا أن نقبل بالتضحية بأوطاننا وننتحر ثقافياً». (الزعيم الهندي رسل مينز في كتاب *Marxism and Native Americans* تحرير Ward Churchill، بوسطن، ص ٢٤ و٢٦.)

(٩) انظر Richard Drinon في *Facing West:*، ص ١٠٣ ــ ١١١. منشورات (University of Oklhoma Press, Norman & London). والواقع أن الألمان كانوا يرون في أدولف هتلر نفسه بطلاً ورجل دولة من الطراز النادر في التاريخ. وكانت حكوماته أكثر ديموقراطية وشعبية من كل الحكومات الإسرائيلية والأميركية. لكن ما يميز ألمانيا النازية عن الولايات المتحدة وما يسمى بإسرائيل أن ألمانيا خسرت حربها وأن التاريخ المنتصر لم يلصق بأبطالها وزعمائها سوى الجرائم والفظاعات بعد أن سطر ما يحلو له فمحا ما محا واخترع ما اخترع. ليس في ألمانيا الآن شوارع أو متاحف أو عمارات أو أوراق نقدية تحمل اسم واحد من مجرمي النازية وتخلد مساهماتهم الإيجابية كما هي الحال في أميركا وما صار يسمى باسرائيل.

(١٠) ترى هذا الرمز واضحاً في عقيدة الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان. ولعل كتاب **المدينة الجبلية: تحقيق رؤيا رونالد ريغان لأميركا** *The City on a Hill: Fulfilling Ronald Reagan's Vision for America* لميكائيل ريغان وآخرين Michael Reagan (١٩٩٧) يعطي صورة واضحة عن تجذر فكرة أميركا في هذا الرمز. أما تاريخ هذا الرمز وتجلياته الاجتماعية والسياسية والفكرية فيمكن مراجعته في كتاب: **مدينة على جبل** ... *City on a Hill; A History of Ideas and Myths in America* للورين باريتز Loren Baritz. نيويورك ١٩٦٤.

(١١) عاي مدينة فلسطينية يقول ما يسمى بالعهد القديم إن الإسرائيليين اقتحموها ودخلوها عنوة ثم أحرقوها بالنار... ولما انتهى جيش إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقول والبراري عاد إلى المدينة وأفنى من بقي فيها بحد السيف. بذلك أفنى جيش إسرائيل في يوم واحد جميع أهل عاي: اثني عشر ألفاً... ومن يومها صارت عاي تلة أنقاض مهجورة. أما ملك عاي فشنقه يشوع على شجرة (يشوع: ٨: ٩١ ــ ٩٢). وقد استمد المستعمرون الأوروبيون

أخلاق إبادة «كنعانيي» العالم الجديد من مثل هذه النصوص االشائعة في أسفار العهد القديم.

(١٢) راجع *Commentary Magazine*، عدد كانون الثاني/يناير ١٩٩٥، ص ٣١ – ٣٣.

(١٣) مما قاله الرئيس كلينتون:

Solomon said in First Kings, "I am only a little child and I do not know to carry out my duties. Your servant is here among people you have chosen, a great people too numerous to count or number. So give your servant a discerning heart to govern your people". (AP Feb 5, 1998).

الفصل الثاني

من الافتراس إلى الهضم

منذ الأيام الأولى في [مستعمرة] وِسّاغوسِت وحرب [هنود] البيكو ... كان التعامل مع الأعراق الدنيا بالسكين والبندقية هو الأجدى... نعم! كانت عملية إبادة ... ولكنها كانت خلاصاً لعرقنا [الأنكلوسكسوني] وطهوراً لصفائه. لقد حفظت نِجارَ الأنكلوسكسون من التهجين.
ـ فلماذا لا تستمر عملية الإبادة أثناء التوسع خارج القارة إذن؟

شارل فرانسيس آدامس جنيور

والسناتور جورج هوَر، ١٨٩٨

كاد فضولي إلى معرفة «كل شيء» عن «هنود» أميركا أن يؤذيني، فكل الذين طلبت العلم لديهم في البداية كانوا ـ كما علمت لاحقاً ـ من «مكتب الشؤون الهندية» Bureau of Indian Affairs الذي يزعم بأنه «يمثل أكثر القبائل المعترف بها رسمياً» ويشكل ما يشبه «مجلس التعاون الخليجي» للهنود الحمر. وكانت معظم المعلومات والمصادر التي زودني بها رفاق المكتب عن إبادة شعوب أميركا الأولى لا تختلف عن معلومات دليل واشنطن السياحي وأفلام الكاوبوي على الرغم من أنها متبّلة بعيار ثقيل من

شعارات الصمود والغيرة المحترقة على ماضي الهنود ومستقبلهم. وكدت أصاب بالإحباط واليأس لولا أن تلمست طريقي بعد ذلك إلى بعض أصدقاء «الحركة الهندية ــ الأميركية» American Indian Movement فعرفت عندها أن الرفاق في «مكتب الشؤون الهندية» وسلطتهم فرع من وزارة الداخلية الأميركية، وأن للولايات المتحدة فضل اختراع ألطف نظام تطهير عرقي على وجه الأرض.

برغم أن كنعانيي فلسطين استعادوا دورهم واسمهم السليب في دراما نهاية التاريخ بعد انتصار المارشال أللنبي Allenby علينا في معركة «تل مجدو» القيامية واحتلال القدس في مطلع هذا القرن فإن إبادة «هنود» أميركا مضت قدماً على هامش هذه الدراما، وما تزال حتى هذه الساعة تنزف وراء ستارة الموت بهدوء وصمت ودم بارد. إنه الموت والموت الظل : شمس كنعان وقمرها.

صحيح أن الحكومة الأميركية وقعت ٣٧١ معاهدة مع الشعوب الهندية خرقتها كلها ولم تحترم واحدة منها، لكن البقية الباقية من هذه الشعوب في أعلى مزولة الموت الرملية ما تزال تمتلك قانونياً ثلاثة بالمئة من مساحة ما يسمى اليوم بالولايات المتحدة لم تتنازل عنها قط، هي بلادها المغتصبة التي دفنت بشعوبها في «مقبرة الهند» ولم يعد هناك من يصدق أنها بلادها. إنها شظايا من المساحات مخردقة معزولة مطوقة ملغومة متباعدة لكنها بمجموعها (٢٨٥٨٨٦ كلم^2) أكبر من مساحة كل الجزيرة البريطانية وأكبر بعشرات المرات من الزرائب التي حشر فيها هؤلاء الأشقياء بالقوة والإرهاب والمجازر وقوافل الدموع، وحرموا فيها عمداً من أبسط شروط الحياة. إنهم ينامون جياعاً عراة محاصرين فوق أغنى كنوز بلادهم، فلديهم ثلثا احتياطي اليورانيوم، وربع الفحم الكبريتي،

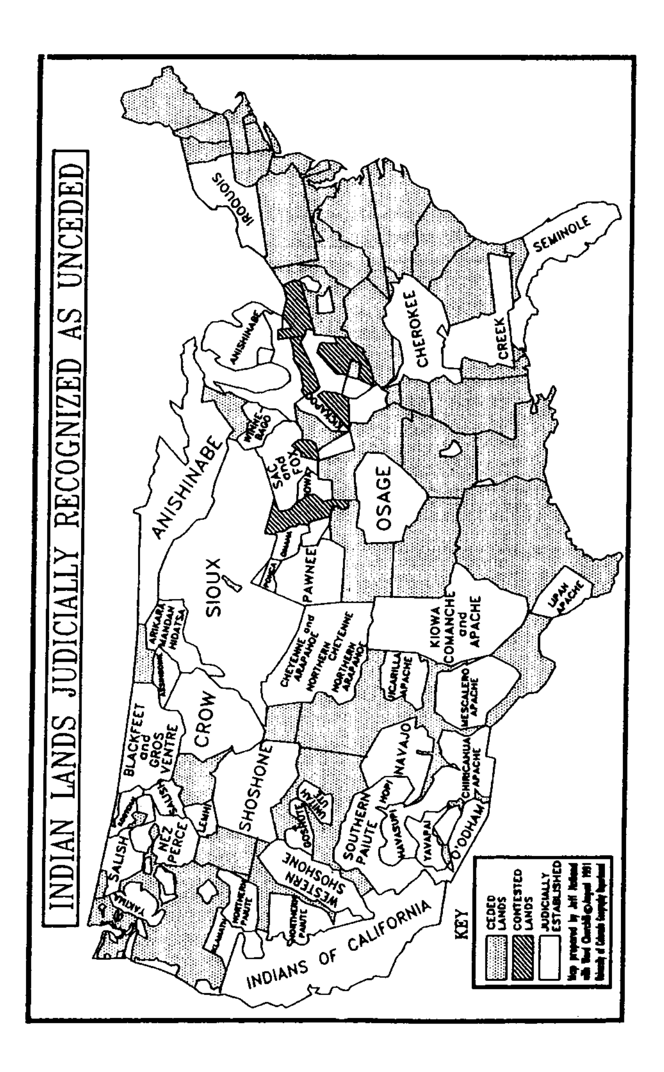
وخمس الغاز والنفط، ومخزون هائل (لم يعلن عن مقداره) من الذهب والنحاس والماس وبوكسيت الألمنيوم وغير ذلك من الكنوز التي أعطت «ثروة الأمم» مبرراً إضافياً قوياً لتحديث تكنولوجيا المحو والاستمرار في حرب الإبادة على هامش دراما نهاية التاريخ. وكان نبي الرأسمالية المتوحشة آدم سميث قد استطار لبه بالتجربة الإنكليزية الفذة في العالم الجديد فدعا في ترجمته الاقتصادية لاصطلاح التطهير العرقي «الأمة [الإنكليزية] المتمدنة إلى استعمار كل بلد بور أو قليل السكان، [ونادى بضرورة] أن يحل المستوطنون الجدد محل السكان الأصليين لأن ذلك يسرع في نماء ثروة [الأمة المتمدنة] وعظمتها». كذلك كتب جون لوك John Locke «فيلسوف التسامح الإنكليزي» قبله أن الله أعطى المسيحيين [في غرب أوروبا فقط] حقاً طبيعياً في امتلاك الأراضي البور الخاوية أو شبه الخاوية من السكان، وأوجب عليهم الإمتثال لإرادته بغزو المجاهل واستثمارها، ذلك أن مكتشف هذه المجاهل هو مالكها الطبيعي. وكان ونستون تشرشل، في خطاب له أمام لجنة پيل peel الصهيونية عام ١٩٣٧، قد عبر عن هذه الفلسفة الإنكليزية السمحة فيما هو يتحدث عن حق الفلسطينيين في بلادهم فلسطين، فقال كما يذكر كلايف بونتنغ Clive Ponting في كتابه عن تشرشل Churchill:

> إنني لا أعتقد أن كلباً في مذود يستطيع الادعاء بأن له حقاً نهائياً في مذوده مهما طالت إقامته فيه. إنني لا أعترف له بذلك الحق. إنني لا أعترف مثلاً بأن ما أصاب الهنود الحمر في أميركا أو الشعب الأسود في أستراليا خطأ فاحش. إنني لا أعترف بأن ما أصابهم كان سوءاً، لمجرّد أن جنساً أقوى، جنساً أعلى، أو لنقل

جنساً أكثر حكمة قد حل محلهم[١]:

> I do not agree that the dog in a manger has the final right to the manger, even though he may have lain there for a very long time. I do not admit that right. I do not admit, for instance, that a great wrong has been done to the Red Indians of America, or the black people of Australia. I do not admit that a wrong has been done to these people by the fact that a stronger race, a higher grade race, or at any rate, a more worldly-wise race, to put it that way, has come in and taken their place.

هذه الثلاثة بالمئة من مساحة ما يعرف اليوم بالولايات المتحدة هي ملك شرعي لهذه الشعوب «الهندية» ولا تستطيع حكومة الولايات المتحدة قانونياً أن تتصرف بها، كما يقول «المجلس الدولي للمعاهدات الهندية» The International Indian Treaty Council التابع للأمم المتحدة، وباعتراف الحكومة الأميركية نفسها[٢]. أما ما اعترفت به المحاكم الأميركية لهذه الشعوب المنذورة للفناء ورفضت الدولة الإقرار به فيزيد على ثلث مساحة الولايات المتحدة (انظر الخريطة). ومع ذلك فإنها تعيش في هذا العالم السفلي منتوفة الريش معصورة المعدة تعاني أسوأ أعراض الفقر وتقتات هي أيضاً من «عازارية» أورشليم الأميركية. إن نسبة فقر التغذية بينها أعلى من المعدل الأميركي باثني عشر ضعفاً، ونسبة تعاطي الكحول أعلى بتسع مرات، ونسبة موت الأطفال أعلى بسبع مرات، ونسبة الموت عامة أعلى بخمس مرات. وهي



خريطة ما يسمى اليوم بالولايات المتحدة: الأراضي التي اعترف القضاء الأميركي بملكيتها للهنود... ولكن المنطقة الرمادية هي التي تم اغتصابها بالقوة وعبر ٣٧١ معاهدة «سلام» لم يحترم الأميركيون واحدة منها. المنطقة المخططة تشمل الأراضي المتنازع عليها المنطفة البيضاء هي ملك شرعي للهنود. أعد الخريطة جل هولاند Jell Holland وورد تشرشل Ward Churchill، جامعة كولورادو، قسم الجغرافيا

لهذا أكثر جماعات هذه الأمبراطورية المتخمة عرضة للأمراض والأوبئة التي اختفت نهائياً، ولديها أعلى نسبة انتحار وإدمان على المخدرات[٣]. أما الحكومة الأميركية فلم تقف مكتوفة اليدين بل أسرعت إلى علاجها بأن اعتقلت ٢٥ بالمئة من رجال «الهنود» داخل السجون وفرضت نظام التعقير الإجباري على ٤٠ بالمئة من نسائهم[٤].

عندما تتوجه إلى مناطق الهنود مدفوعاً بالفضول لرؤية هذه المخلوقات النادرة لا تجد في طريقك إليهم علامة أو سوراً أو حاجزاً أمنياً، فلا دليل لك إليهم أو عليهم غير الفقر. فجأة تختفى أميركا عن العين لتطل عليك أكواخ باهتة متداعية تعج بالبشر، لولا مذاقها الهندي لظننت أنك تعيش في صبرا أو شاتيلا أو مع شعب البدون. هنا يبني الهنود بيوتهم مستديرة على شكل الخيام المخروطية، ويجعلون الباب للشرق تكريماً للطبيعة وتحية لشمس الصباح، كما توارثوا ذلك في روحانياتهم وفلسفتهم الطبيعية جيلاً بعد جيل. ليس هناك من شذوذ على هذا التقليد إلا العمائر المعلبة التي بناها «مكتب الشؤون الهندية» لموظفيه في اتجاهات عشوائية كأنها تتعمد تشويش المشهد وجرح مشاعر الهنود. إنها تذكرة يومية بالاستعمار الداخلي الذي تجسده السلطة الوطنية وشخصياتها الطاووسية في هذا المكتب، ونصُبٌ حية تشهد على احتقار إنتلجنسيا الأنابيب لمعتقدات أهلها وثقافتهم وذوقهم ووضعهم الخاص. إن هذه البيوت المستديرة مصممة روحانياً للتعبير عن دورة الحياة المتواصلة للعائلة الإنسانية، ومصممة وظيفياً للتعبير عن وحدة العائلة التي لغمتها «ثروة الأمم» ونسفت أواصرها فلم تحفظ منها إلا ما يترجم إلى دولارات. إن السائح يعرف أنه صار في بلاد الهنود عندما يُطوى بساط العشب وتنهض البريّة؛ عندما تختفي المزارع والحقول وتتقدم

الأحراج؛ عندما تنتهي الطرقات المعبدة وتبدأ الحفر بترقيص سيارته ورجرجة ما تهدل من شحمه ولحمه؛ عندما تحاصره الكلاب الهزيلة الجائعة فتتقافز على شبابيك سيارته وتصم أذنيه بالنباح؛ عندما يصبح السوبرماركت ذكرى بعيدة وتظهر الدكاكين الكهفية المحشوة بأسوأ أنواع الطعام. حتى هذه الدكاكين المظلمة ما عافها البيض للهنود. إنهم طبقة فقيرة رثة لكنها تعيش بين الهنود بعجرفة سيسيل رودس. لقد منحها «مكتب الشؤون الهندية» حق مص دم هؤلاء الأشقياء في الدكاكين والخمارات ومحطات البنزين وعلب القمار وغيرها من أكشاك جيش الخلاص الصفيحية. هناك طبقة أرفع من مخلوقات «ثروة الأمم» تستولي على المرافق العامة والمزارع الكبيرة ومراتع تربية المواشي وآبار النفط والغاز ومناجم المعادن الغنية وغير ذلك مما تنتجه أرض الهنود من خيرات ليس للهنود الحق في استثمارها أو استهلاكها. في ظل مجلس الحكم أو السلطة الوطنية الهندية سطا الشعب المختار على أخصب أراضي الهنود وأغناها فلم يُبق لأهلها سوى أطراف الجبال أو المفازات الجرداء. ويروي داڤيد هنري David L. Henry في كتابه «سلب الهنود»(٥) *Steeling from Indians* أنه ما حل عليه الليل في نزل بالقرب من إحدى هذه المعتزلات الهندية إلا تذكّر أن الفقر أبو العهر. في تلك الساعة من كل ليلة وكل فصل تتسلل من باب النزل الخلفي فتيات هنديات بشعرهن الأسود المسترسل وراء ظهورهن ليغادرنه بعد منتصف الليل مباشرة إلى دكاكين البيض المفتوحة في النهار والليل. وهناك يشترين الطعام وبعض حاجاتهن قبل أن يمضين إلى بيوتهن. ويقول داڤيد هنري: إنني أعتقد أنني أعرف ما سيقال عندما يستقبلهن آباؤهن أو أزواجهن وراء الباب.

ـ كنتُ قلقا عليكِ! هل أنتِ بخير؟

ـ نعم. أنا بخير! وها قد اشتريت زجاجة حليب

للطفل. وغداً نستطيع أن نأكل حتى نشبع. إن السيارة الآن ممتلئة بالبنزين. وها هي علبة دخانك. إنني أحبك. أنت تفهمني، أليس كذلك؟[٦].

إن نهب ثروة هؤلاء التعساء التي تتدفق بالمليارات على مصارف أميركا وتمد اقتصادها بالقوة وتخلق ملايين فرص العمل المحرّمة على الهنود يعتبر من أنجع وسائل الإبادة الحديثة وما بعد الحديثة. هناك جدل حيوي متلازم بين النهب من أجل الإبادة وبين الإبادة من أجل النهب. وهناك طبقات جيولوجية مختلفة من الموت البيئي والاقتصادي والثقافي والجسدي والروحي والترفيهي...، تتراكم فوق بعضها وتتراص فتتحلل وتتخلل وتتكامل لتشكل هذه السلسلة الطويلة من جبال «فكرة أميركا»؛ فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. أما أقوى البراهين على هذا الجدل الأميركي الحميم بين الإبادة والنهب فليست في هيروشيما وناغازاكي ومجاهل ڤييتنام ونيكاراغوا، وليست في رحلة العالم العربي إلى نهاية التاريخ مشيعاً في نعش «الشرق الأوسط» (مثلما تمددت شعوب أميركا في نعش «الهند») بل هي هنا داخل البيت الأميركي في رحلة «فكرة أميركا» من الافتراس إلى الهضم.

إنك تلمس أقوى البراهين على هذا الجدل الإبادي في قضاء شانن Channon County الهندي الذي يعتبر أفقر قضاء في الولايات المتحدة على الإطلاق؛ هنا حيث ترى في مرابع هذا القضاء مشاهد ساتيريكونية لا تراها في الصومال أو راوندا أو جيكور ولا حتى في أبشع كوابيس فرانتز فانون. فالولايات المتحدة ـــ كما يقول وورد تشرشل Ward Churchill أحد أعمدة فكر «الحركة الهندية» المعاصرة ـــ تتزعم أكثر أنظمة الاستعمار الداخلي تطوراً وإحكاماً على

وجه الأرض، وإن الولايات الاستيطانية في كل أنحاء أميركا [ما تزال إلى الآن] تنتهج سياسات إبادة لشعوبها الأولى(٧):

> In many ways, the United States wields the most advanced and perfected of the internal colonialist systems by which settlers-States throughout the Americas visit Genocidal policies upon native peoples.

هؤلاء الجياع في قضاء شانن يعيشون فوق أرض غنية خيّرة هي ملك لشعب لاكوتا Lakota وفقاً لمعاهدة «فورت لارَمي/١٨٦٨» Fort Laramie. وفي هذه الأرض من الثروات الباطنية المنهوبة ما يكفي لأن يجعل دخل «الهندي» في شانن أعلى من دخل بياعي دم الشهداء. إن مناجم هومستيك Homestake للذهب وحدها درت على ناهبيها أكثر من ٤١ مليار دولار خلال الخمسين سنة الأخيرة. لكن واشنطن تحكي رواية مختلفة مكتوبة بلغة جمعيات البر والإحسان. إنها لا تكتفي بزعمها أنها تتكرم على هؤلاء التعساء المحتاجين بصدقات لا يستأهلونها بل إنها تمن عليهم بأنها منذ ١٩٣٤ أعتقتهم لأنفسهم وحرياتهم و«حكمهم الذاتي» فلم يفلحوا في تدبير حياتهم بل ازدادوا شقاء وصار لا بد من مساعدتهم بفرض الوصاية عليهم.

وكانت أجهزة الدولة قد فرضت في تلك السنة تطبيق ما يسمى بقانون التنظيم الجديد للهنود Indian Reorganization Act واختارت هي ممثليه ورجاله وشخصياته في «مكتب الشؤون الهندية»، فمنحتهم امتيازات استثنائية وسلطات وهمية وأبهات وألقاباً طاووسية لقاء أن يوقعوا من آن لآن على ورقة مكتوبة في

واشنطن. إنهم يوقعون على تعديلات تنقض المعاهدات وتعطل شرعيتها الدولية وتبخر ما تبقى من السيادة الاسمية للهنود على أراضيهم، ويوقعون على قرارات تمدد موافقتهم «باسم الشعوب الهندية» على عقود تَنازُلٍ عن ثروات بلادهم مقابل پنس واحد عن كل دولار (١٪) منهوب من كنوز أراضيهم، ويوقعون على ورقة تعاون هدفه استئصال خصائص التحدي ومقومات البقاء، ويوقعون على مهمات إقناع الهنود بعدم المقاومة ونبذ العنف والعيش على عسل التسويف والاعتماد على النوايا الحسنة التي ستعود بالخير (على غير الهنود)، ويوقعون على تفريغ مأساتهم من بُعدها الحضاري والثقافي والإنساني والأخلاقي وعلى كل ما أحال قضية اغتصاب قارة كاملة وإبادة أكثر من ١١٢ مليون إنسان ينتمون إلى أكثر من ٤٠٠ أمة وثقافة في أبشع تطهير عرقي منظم ومدروس ومقدس عرفه تاريخ البشر إلى مساومة مسرحية على ما عافته الذئاب من عظام كلب المرحوم.

لقد أناطت الحكومة الأميركية حق تقرير مصير ما تبقى من الهنود بذيول الطواويس، وهو الحق الذي كانت تملية واشنطن إملاءً على هذه الأدوات التي تحولت إلى «استعمار داخلي» فشاركت في حملات التشنيع والتشويه والتزوير وحرب الإبادة الاقتصادية والجسدية والثقافية، وكانت سلاح وزارة الداخلية الأميركية في استئصال كل من يرفض هذا السخاء المسموم.

بدأت قصة هذا «الاستعمار الداخلي» عندما أناطت الولايات المتحدة بمجلس التعاون الهندي المتمثل بمكتب الشؤون الهندية كل المهمات النبيلة التي كان الجيش الأميركي يضطلع بها في بلاد الهنود. كانت الدولة الأميركية ترمي لطواويس المكتب بالفتات من

ثروة شعبهم المنهوبة لقاء مساعدتها على سلب هؤلاء الأشقياء ما لم يستطع الغزاة سلبه بقوة السلاح. ويشبه داڤيد هنري في كتابه «سلب الهنود» نشاط هذا المكتب بمستعمرات هائلة من النمل الأبيض termite تنخر ما تبقى من قواعد البيت الهندي إلى أن ينهار، كما يشبهه أيضاً بسلاح مكتوم الصوت يقتل بدون ضجة. ومنذ ١٨٤٩، راح هذا الاستعمار الداخلي يخلق للشعوب الهندية مشيخات وأمراء وأسراً حاكمة من المنتفعين الهنود تفتك بأهلها لحساب الدولة الأميركية وحساب حركات الاستيطان وأخطبوط الشركات الكبرى؛ فتنهبهم وتسحب الأرض من تحت أقدامهم، وتعمل على تجويعهم وإفقارهم وإذلالهم وتعقير نسائهم وقتل أبطالهم دون رحمة في بعض الأحيان.

في تلك السنة المشؤومة جن الغرب الأميركي بحمّى البحث عن الذهب الذي كان راقداً تحت أرواح الهنود. وبينما كان المستوطنون والمغامرون ينقبون عن الذهب أولاً في عروق هؤلاء الأشقياء كانت الحكومة الأميركية تبحث عن وسيلة ناجعة لمنع الهنود من المقاومة. وكان لا بد للجيش الأميركي من «تفاحة حمراء» كما يقول الهنود، حيث يختفي الإنسان الأبيض وأطماعه تحت البشرة الحمراء لموظفي مكتب الشؤون الهندية، وحيث تعاد صياغة القيم والمسلّمات والعقائد والعواطف وحقائق الأرض والتاريخ بما يناسب زحف الشعب المختار إلى أرضه الموعودة. إن هذا الزحف يتم الآن لمصلحة الهنود وخيرهم وانتشالهم من همجيتهم. وما على الهنود لنيل هذه النعمة إلا «تحسين صورتهم» بسلوك حضاري متمدن يرفض الشغب وينبذ العنف والمقاومة ويذعن لإرادة «مكتب الشؤون الهندية» المتطابقة مع إرادة الدولة الأميركية التي لم تتغير عما كانت عليه منذ عهد الاستعمار

الأول: السيطرة على الأرض والتخلص من شعبها. هكذا صار أكبر هموم الضحية الحصول على شهادة «حسن سلوك» من جلادها. وهكذا راح المكتب ينفق ملايين الدولارات لتحسين صورة الهنود وترقيصهم وسط زرائبهم بأزياء مصممة في هوليوود خصيصاً لتسلية السياح وإقناعهم بأن هذه البهائم البشرية هي المسؤولة عن شقائها وأن ليس بالإمكان أحسن مما كان. ملايين الدولارات من مال الهنود لا يستفيد منها الهنود فلساً واحداً ينفقها المكتب لإقناع الرأي العام الأميركي بأن الهنود قطيع مسالم يعطي لثروة الأم حليبه وصوفه ولحمه دون مقاومة. كذلك تم تحسين الصورة على الطرف الآخر من المعادلة، فقد اختفى جيش الغزو الأميركي وأنيطت مهماته بمشيخات وإمارات وسدنة «مكتب الشؤون الهندية». فما كان يسمى بحرب الإبادة صار يسمى بالتعاون الأمني، وما كان يسمى بالغزو والاستيطان والتهجير والنهب والتدمير الجماعي وقوافل الدموع صار يسمى اليوم مشاريع مشتركة وإنماء وتحالفاً وممارسة لحق تقرير المصير الذي تشرف عليه وزارة الداخلية الأميركية ويتولى أمره «مكتب الشؤون الهندية».

من مهمات السلطة الوطنية الهندية كما تقول المادة الأولى من البيان التأسيسي لمكتب الشؤون الهندية الذي أعده الكونغرس الأميركي: «رعاية الحقوق المتوارثة للحكومة القبلية المحلية والحفاظ عليها، وتعزيز قدرة القبيلة على حكم نفسها»:

To recognize and preserve the inherent rights of tribal self government and to strengthen tribal capacity to govern.

ومن مهماته في المادة الثالثة: «إن المكتب سيحامي عن حقوق

القبائل وسيادتها أثناء تعاملها مع الكيانات الحكومية الأخرى أو مع القطاع الخاص».

To serve as an advocate for the sovereignty and rights of American Indian Tribes in dealing with other governmental entities and the private sector.

لكن، حين تريد الحكومة المحلية للشعب الهندي أن تسن قانوناً لشعبها وعلى أرضها، على غرار ما تفعله كل حكومات الأقضية الأميركية counties، لا تستطيع تنفيذه إلا بعد تصديق «مكتب الشؤون الهندية» برغم أن المعاهدات تضمن لها حق سيادة تشريعية أقوى من حق الأقضية، وبرغم الخطاب الرسمي للسلطة التشريعية الأميركية العليا. فللمكتب الحق في تعطيل كل قانون تتخذه الحكومة المحلية في منعزلاتها حين يتعارض مع مصلحة أي شركة أو أي عرّاب في مافيا «ثروة الأمم»، وحين يعاند إرادة «القدر المتجلي» ومسيرة شمس الله البيضاء باتجاه الغرب. هذه الحكومة المحلية الهندية لا تملك، مثلاً، أن تتعاقد مع محامين يرافعون عنها ويدافعون عن حقوقها أمام المحاكم الأميركية إلا بعد موافقة «مكتب الشؤون الهندية» القادر على تعطيل أي قضية يرفعها الهنود أمام القضاء ضد من يعتدي عليهم جنائياً أو مدنياً، فرداً كان أو شركة أو ميليشيا أو إدارة رسمية. إن الهنود يعلمون جيداً أن هذه السلطة الوطنية الهندية المتجسدة في مكتب الشؤون الهندية والمشغولة بتحسين صورة الهنود لدى الرأي العام الأميركي ليس لها من همّ إلا انتزاع أملاك الهنود والتخلص من وجودهم، وأنها ليست إلا تجسيداً للاستعمار الداخلي الذي يحاصر الهندي في هنديته وملكه وحياته ومصيره. ويقول رسل مينز أحد أكبر

زعماء الحركة الهندية المعاصرة في إحدى رسائله الدورية[٨] إلى شعبه أن إنقاذ هنود أميركا من فقرهم وشقائهم لن يتم إلا بعد القضاء على «مكتب الشؤون الهندية» الذي يصفه أحياناً بأنه عملياً «مكتب الشؤون اليهودية» Bureau of Jewish Affairs. إن المكتب مثلا هو المالك الحقيقي لأراضي الهنود، فالملكية في التراث الهندي هي للقبيلة، وليست للفرد. ولهذه العلاقة النبيلة بين الإنسان والطبيعة فلسفة وعالم قيم وأدب هندي رائع لا تستسيغه وزارة المستعمرات البريطانية، بل لطالما عبرت عنه «ثروة الأمم» باحتقار. فالهندي يتعامل مع الأرض كما يتعامل مع الهواء والماء والسماء. إنه لا يستطيع أن يتصور كيف يبيعها أو يشتريها. ليست هناك لغة هندية لهذا الجنون؛ لهذا القطران الذي تغرق فيه حياتنا:

> كيف نستطيع أن نبيع أو نشتري السماء ودفء الأرض؟ ما أغرب هذه الأفكار! كيف نبيع طلاقة الهواء؟ كيف نبيع حباب الماء ونحن لا نملكها؟ كل شبر من تراب هذه البلاد مقدس عند شعبي. كل خيط من ورق الصنوبر، كل شاطىء رملي، كل مدى من الضباب في غياهب الأحراج. كل حشرة تمتص ما تمتص أو تطن. كله مقدس في ذاكرة شعبي وتجربته مع الحياة.
>
> النسغ الذي يسيل في الأشجار يجري بذكريات الإنسان الأحمر. موتى الإنسان الأبيض ينسون مهدهم عندما يمشون بين النجوم. أما موتانا فأبداً لا ينسون الأرض الطيبة لأنها أم الإنسان الأحمر؛ نحن منها،

وهي منا. الأزهار العاطرة أخواتنا. الغزال، والحصان، والنسر العظيم كلهم إخوتنا. القمم الصخرية، وندى المروج، ودفء جسد الحصان، كلها من هذه الأسرة الواحدة.

إذن، فزعيم واشنطن الكبير الكبير حين يقول في رسالته، إنه يريد أن يشتري بلادنا، إنما يسألنا ما لا يطاق... لأن أرضنا مقدسة. هذه المياه التي تشع وهي تجري في السواقي والأنهار ليست مياهاً. إنها دماء أجدادنا... كل طيف يتراءى في صفاء مياه البحيرات ينبئك عن ذكريات شعبنا وتاريخه. وما تهمس به المياه هو صوت جدي. هذه الأنهار إخوتنا. إنها تطفىء ظمأنا، وتحمل مراكبنا، وتطعم أطفالنا. وإذا قررنا أن نبيعك بلادنا فاذكر وعلّم أبناءك أن هذه الأنهار إخوتنا، وعليك أن تحبها كما تحب من ولدته أمك.

ينهزم الإنسان الأحمر أمام زحف الإنسان الأبيض مثلما ينقشع ضباب الجبال أمام شمس الصباح. لكننا نرى رماد آبائنا مقدساً، وقبورهم بقيعاً مقدساً. وهكذا نرى الهضاب والأشجار، ونعتبر هذه البلاد قسمتنا، ونعرف أن الرجل الأبيض لا يفهمنا. تستوي هذه الأرض عنده وتلك الأرض المجاورة لأنه الغريب الذي تسلل في ظلمات الليل فنال من هذه الأرض كل ما تمنى. إنه لا يرى الأرض أختاً له بل عدواً يقهره ثم يمضي. ها هو يهجر قبر أبيه ولا يعبأ، ويتركه وراء ظهرانيه ولا يعبأ. إنه يسرق الأرض من أبنائها ولا يعبأ.

هذه قبور آبائه ومهاد أبنائه منسية. وها هو ينظر إلى أمه السماء فلا يراها إلا سلعة تسرق أو تباع كالأغنام والخرز. إن جشعه يلتهم الأرض فلا يغادرها إلا صحراء...

لا يترك هذا الرجل الأبيض ــ حيث يحل ويرحل ــ شبراً من أرض دون ضجيج. لم يبق لديه مكان لسماع حفيف الأوراق وتفتحها في الربيع، أو لسماع طنين أجنحة الحشرات. ولكن، لربما أنني متوحش لا أفهم. إن الضوضاء تصم الأذنين. وماذا يتبقى للحياة حين يعجز الإنسان عن سماع صرخة طائر السَبَد، أو يصغي في أعماق الليل لنقاش الضفاع وحوارهن حول البركة. لكن، لربما أنني إنسان أحمر لا أفهم.

الهنود يفضلون صوت الريح العذب وهي ترمح فوق بركة المياه، ويفضلون رائحة الهواء المعشق بمطر الظهيرة أو المعطر برائحة الصنوبر. الهواء عند الإنسان الأحمر ثمين فكل ما على الأرض يتنفس منه. الحيوانات والأشجار والبشر كلهم يتنفسون من نَفَس واحد. أما الإنسان الأبيض فيبدو أنه لا يعرف أنه يتنفس وكأنه رجل مات منذ أيام. كل ما فيه بليد حتى النتانة. ولكن إذا قررنا أن نبيعك بلادنا فاذكر أن الهواء ثمين عندنا وأن روح الهواء تتغلغل في كل من يتنفس منه. إن الريح التي وهبت جدنا الأكبر أول شهيق هي التي استردت منه زفيره الأخير. إن على هذه الريح أن تمنح أبناءنا روح الحياة، فإذا بعناك بلادنا فاجعلها حراماً

وقدّسها كأنها مقام يحج إليه حتى الرجل الأبيض ويتذوق فيه الريح المحلاّة بأزهار المروج.

وإذن فسننظر في عرض شرائك بلادنا، وسيكون لنا شرط واحد، إذا قبلنا البيع: أن يعامل الرجل الأبيض حيوانات الأرض كما يعامل إخوته. لربما أنني متوحش لا أفهم... ما الإنسان بدون هذه الحيوانات؟ إذا انقرضت فسوف يموت من توحش روحه. ما يصيب الحيوانات سرعان ما يصيب البشر، فكل الأشياء متمارجة متمازجة. لا بد أن تعلم أبناءك أن أديم الأرض تحت أقدامهم من رفات أجدادنا. بذلك يحترمون الأرض. علمهم ما علمنا أولادنا أن هذه الأرض أمنا، وأن المكروه الذي يصيبها سوف يصيب أبناء الأرض. إذا بصق الإنسان على الأرض فإنما يبصق على نفسه.

هذا ما نعلم. إن الأرض لا تعود إلى الإنسان، بل هو الإنسان الذي يعود إلى الأرض. هذا ما نعلم: كل الأشياء متمارجة كما الدم الذي يوحد العائلة. كل الأشياء متمارجة. ما يصيب الأرض سوف يصيب أبناء الأرض. الإنسان لا ينسج عنكبوت الحياة، بل هو خيط في هذا النسيج. وما يفعله لهذا النسيج يفعله لنفسه...

لم يعد يعنينا أين نمضي بقية حياتنا. إنها أيام معدودة. بضع ساعات إضافية، بعض شتاءات.. ثم لن يكون هناك أطفال من هذه القبائل العظيمة التي عاشت يوماً

على هذه الأرض. وها هي ذي شراذم ضئيلة تتسكع في أعماق الأدغال.. لن يكون هناك أطفال يبكون على قبور بشر كانوا ذات يوم مثلكم أقوياء طافحين بالآمال.

ولكن لماذا أبكي زوال شعبي؟ إن القبائل لا يصنعها إلا الرجال. أما الرجال فيجيئون ويرحلون مثل أمواج البحر. حتى أنت أيها الرجل الأبيض الذي يمشي مع ربه ويحاكيه صديقاً لصديق، لن تنجو من هذا المصير. ولعلنا ــ في النهاية ــ إخوان. وسوف نرى.

أعلمُ شيئاً واحداً، قد يكتشفه الرجل الأبيض يوماً. أعلم أن إلهي وإلهه واحد. إنكم تعتقدون أنكم تستملكون هذا الإله مثلما أنكم تستملكون أرضاً. إنه إله الإنسان. وقد وسعت رحمته الإنسان الأحمر والإنسان الأبيض. إن هذه الأرض غالية عنده. وإن إيذاء هذه الأرض سيغضب خالقها لا ريب. لسوف تمضي أنت أيضا أيها الإنسان الأبيض، وربما ستمضي قبل غيرك من القبائل. هيا، أمعن في تلويث فراشك ولسوف تختنق يوماً في قمامتك...

حينما يزول آخر إنسان أحمر فوق الأرض، ولا يبقى منه إلا ظلال سحابة تعبر البراري، ستظل هذه الشطآن والغابات مسكونة بروح شعبي...»[٩].

هذه الفلسفة الهندية كانت من أكبر العقبات التي اعترضت انتقال

الأراضي إلى الأفراد بالبيع أو الشراء على غرار ما حصل في فلسطين، على الرغم من المحاولات المتعددة لتشويه هذه الفلسفة واختراقها والتشنيع عليها بل ونسبتها إلى الماركسية أو الشيوعية البدائية! بذلك صارت مسألة الاستيلاء على الأرض تتضمن مشروع التخلص من القبيلة كلها قتلاً أو تهجيراً، وصار انتقال ملكية الأراضي الهندية من القبيلة إلى «مكتب الشؤون الهندية» من أدهى وأرخص وسائل استلابها. فللمكتب سيطرة كاملة ومُحكمة على حكومات القبائل والشعوب الهندية وعلى كل مرافق حياتهم في المعتزلات. إنه يمسك بحركة المال الهندي والمعلومات عن حركة هذا المال، ويسرق من الفقراء الهنود ليملأ جيوب أغنياء شعب الله.. لكنه في كل هذا يختبىء وراء الكلمات المعسولة عن المستقبل السعيد والوئام والسلام وضرورة التحلي بالصبر، ونبذ الشغب والعنف والشعارات ومظاهر العمل السلبي، والعمل على «تحسين الصورة» في أعين الرأي العام الأميركي.

صحيح أن للحكومات الهندية رجال أمنها، لكنهم يتلقون أوامرهم ويرفعون تقاريرهم إلى «مكتب الشؤون الهندية» مما ينسف كل أمل في تحكم هذه الحكومات بأمن شعبها. وصحيح أن لديها محاكمها لكنها لا تستطيع أن تحكم إلا في قضايا رعاية الأطفال وتنفيذ وصايا الموتى. أما الجنح والجرائم فمحرومة من الفصل فيها. ويكفي أن تجرؤ إحدى هذه المحاكم على الفصل في القضايا التي أنشئت لها حتى تصادر ميزانيتها وتتبخر من الوجود هي وحكامها وموظفوها.

عندما اغتصبت الدولة الأميركية من شعب سيك سيكا[١٠] Siksika ما صار الآن «محمية طبيعية» تعرف باسم Glacier National Park وافقت على ممارسة هذا الشعب حقه التاريخي

في الصيد واستثمار أخشاب الغابات. في هذه المحمية الطبيعية التي تبلغ مساحتها ما يعادل نصف مساحة لبنان، قاوم شعب سيك سيكا جراثيم الموت التي أهداها لهم شعب الله في أغطية الصوف والملابس الملوثة في مستشفيات الجدري، وقاوم الأغذية المسمومة التي تصدق بها عليهم «مكتب الشؤون الهندية». لقد أمدّهم نقاء الطبيعة وغناها وتنوعها وجمالها بما ساعدهم أكثر من غيرهم من الشعوب الهندية على مقاومة الحرب الجرثومية. بذلك ظل الناجون منهم يزرعون المدارج الجبلية تحت الشعف الصخرية الشاهقة المكسوة بالجليد، يبنون قراهم فوق عباءات الزهور البرية وعلى ثغور الغابات العذراء، يرعون ماشيتهم في أعماق الوديان الخضراء التي تتفجر بالينابيع وتتساقط من حافة سمائها شلالات المياه، أو يصطادون غزلانهم وجواميسهم البرية على أطراف البحيرات المتجمدة وضفاف أنهار الصقيع. فجأة جاء شعب الله فطردهم من جنتهم، لكنه منّ عليهم بمعاهدة تسمح لهم بحق الصيد واستثمار الأخشاب في أرضهم المغتصبة. كان ذلك في عام ١٩١٠ عندما كان الصديق الجنرال بيرسي كوكس Sir Percy Cox يؤسس للأپاشي العرب «مكتب الشؤون العربية». أما الآن فلا صيد إلا صيد الهنود والعرب. إن نصيب كل من يقترب من جنة آبائه وأجداده الاعتقال والسجن. لقد رمت الولايات المتحدة بكل معاهداتها مع الشعوب الهندية في سلة المهملات. فعندما توقف الهنود عن المقاومة وتخدروا بمعاهدات لا تعني شيئاً في منطق القوة لم تعد هناك حاجة إلى معاهدات جديدة، بل استعيض عنها باتفاقيات تعيد تفسير تلك المعاهدات لصالح الاستيطان والنهب ورشوة الشخصيات الكبيرة في «مكتب الشؤون الهندية» الذي يتولى عادة إطلاق رصاصة الرحمة على شعبه.

طبعاً لم يستطع المكتب أن يفسر للشعوب الهندية لماذا لم تتوقف حرب الإبادة بعد أن ألقى الهنود سلاحهم واستسلموا لمخدرات المستقبل السعيد والآمال والأحلام التي وعدوا بها، ولا لماذا يتولى «مكتب الشؤون الهندية» باسم الهنود أنفسهم تحقيق استراتيجية شعب الله في الاستيطان والنهب والإبادة! وتتساءل أدبيات الحركة الهندية: إذا كان الهنود المقاتلون منهم والمستسلمون يلاقون مصيراً واحداً فلماذا يُهدي «المكتبُ» أراضي الهنود وثرواتهم وأرواحهم لأعدائهم مجاناً؟ والجواب بكل بساطة: إنها في النهاية تجارة رابحة قامت عليها إمارات ومشيخات وأسر مالكة هندية تدير نيابة عن الدولة الأميركية شركة استثمار عملاقة تسمى «مكتب الشؤون الهندية» وتتولى ضخ ثروة أراضي الهنود إلى مصارف «ثروة الأمم». وهي أولاً وأخيراً إبادة لم تكن «فكرة أميركا» لتنهض بدونها حتى بعد تأسيس الدولة ووضع الدستور . فمنذ تأسيس هذه الدولة وسياسيو الولايات المتحدة وقادتها العسكريون يصرحون جهاراً نهاراً، وباستمرار، أنهم لن يقبلوا بأقل من «التصفية الكاملة» لكل شعب هندي يقاوم تسليم أراضيه أو يرفض الخضوع المطلق للسلطة الاتحادية والانحلال أو الاستيعاب في ثقافة المستعمرين(١١). وفي سبيل هذه الغاية ارتكبت الولايات المتحدة رسمياً سلسلة طويلة من المذابح المقدسة في زحفها نحو الغرب(١٢)، ثم توجتها بعد ذلك بتأسيس «مكتب الشؤون الهندية».

إن هذا المكتب الذي يحول بين الهنود واستثمار خيرات أراضيهم هو الذي يبيع الأراضي أو يؤجرها لغيرهم، وهو الذي يضع أثمان هذه الأراضي وقيمة الإيجارات ويوقع على عقود التنقيب عن النفط والغاز والمعادن الثمينة باسم الهنود من غير أن يعرف الهنود أين تذهب أثمانها أو عائداتها. هناك مليارات الدولارات التي

تتبخر كل سنة، ففي السنوات ما بين ١٩٧٩ و١٩٨٦ كما يروي داڤيد هنري في تقريره *Stealing the Indians* تغاضى المكتب عن تحصيل ٨,٥ مليار دولار من شركات النفط والغاز المستثمرة في أراضي الهنود. ولا شك في أن «شيئا تافهاً» من هذه المبالغ ظل عالقاً بدبق أصابع أمراء المكتب ومشايخه[١٣].

في ١٩٨٧ قاضى شعب كرو (الغراب) Crow مكتبَ الشؤون الهندية بتهمة حجز أرصدته وإخفاء المعلومات عنها. واستجابت الحكومة الأميركية لهذه الدعوى بأن أرسلت قوة مسلحة بالبنادق والمسدسات فأغارت على أراضي شعب الكرو «ذات السيادة» واقتحمت مكاتبه الحكومية وصادرت كل سجلاتها المالية. أما مكتب الشؤون الهندية وهو الممثل الشرعي الوحيد للهنود أمام الدولة الأميركية، فإنه تابع عملية الانتقام بأن رفض التصديق على الميزانية السنوية لشعب الكرو فحجز بذلك كل الواردات الحكومية لهذا الشعب وقطع عنه شريان الحياة. بذلك ظل موظفو حكومة الكرو بدون رواتب وظلت الحكومة نفسها عاجزة حتى عن شراء وقود لتشغيل سيارات الإسعاف والإطفاء. كذلك حجز المكتب كل المعونات الإنسانية عن شعب الكرو بحيث صار يصعب على بعض الهنود دفن موتاهم. وارتأى زعماء الكرو ــ وقد خلت أيديهم إلا من المعاهدات مع الحكومة الأميركية ــ أن يوفدوا ممثلين عنهم إلى مدينة بيلينغز (في ولاية أريزونا) لاستعطاف ممثل السلطة الوطنية وتذكيره بنصوص المعاهدات المعقودة مع الحكومة الأميركية. وهنا يصف الصحافي ستيف ديڤيت Steve Devitt كيف صرخ مدير مكتب بيلينغز للشؤون الهندية ريشارد وايتسل Richard Whitesell في وجههم قائلاً: خذوا أوراقكم هذه واغربوا عن وجهي. هذه الأوراق لا تصلح إلا لتمسيح

طيـ... I use them for ass wipe[١٤].

«إن أولى واجبات الهندي في مكتب الشؤون الهندية كما يقول داڤيد هنري، هي إلحاق الأذى بشعبه. ولا شك في أن تدميره المنظم لحياة الهنود وحكوماتهم وأنظمتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية والروحية، ونهب ثرواتهم، وتجويعهم، وتفريق كلمتهم — لجعلهم يواجهون مصيرهم فرداً فرداً — هو عمل من «أعمال الإبادة». وينقل هنري هنا عن كتاب «**سود الأقدام**».. *Blackfeet ; Raiders on the Northwestern Plains.* لجون إيورس John C. Ewers قصة تسميم المكتب لشعب السيك سيكا بعد الحملة التي شنها عليهم الجيش الأميركي فأحرق قراهم ومحاصيلهم ومخزونهم الشتوي من الطعام، ثم قتل منهم ١٧٣هندياً، وأسر ١٤٠ طفلاً وامرأة اغتصبن جميعاً قبل قتلهن وطرحت جثثهن في الصقيع. كان البرد في ذلك النهار القيامي قد وصل ٣٠ درجة مئوية تحت الصفر، وراح الناجون من المذبحة يتراكضون في تيه ذلك العالم القطبي ويموتون من الجوع والزمهرير والإرهاب إلى أن أنجدتهم سلطتهم الوطنية في «مكتب الشؤون الهندية» بشحنة غذاء من قديد الخنزير تبين أنها مسمومة ومدوّدة.

بمكتب الشؤون الهندية بسطت الولايات المتحدة على الشعوب الهندية استعماراً داخلياً راح ينسف كل المعاهدات المعقودة ويتابع مسيرة الاستيطان والغزو والنهب والإبادة. عندما كانت القوة والمقاومة هي اللعبة المفضلة، كانت الولايات المتحدة قبل الرئيس أندرو جاكسون تعامل هذه الشعوب معاملة «الولايات» states فتحترم سيادتها وقضاءها وحرية استثمار بلادها على كره وتتسنح الفرصة لنقض المعاهدات معها وإجبارها على مزيد من التنازلات.

ولكن حين عرفت الولايات المتحدة أن ميزان القوة مال وقضى نهائياً على أمل الهنود في المقاومة المسلحة تدنت تلك المرتبة من الولايات إلى «الأقضية» counties فإلى «منعزلات» reservations أو «معسكرات إبادة» معزولة ومتشظية في طول البلاد وعرضها، لا يشبهها اليوم إلا ما يسمى مناطق الحكم الذاتي الفلسطيني، تديرها «حكومات هندية محلية» تتحكم بها وزارة الداخلية الأميركية عبر مكتب الشؤون الهندية.

كانت الثقة بالمعاهدات مقتل الشعوب الهندية. فقد ألقت سلاحها ووجدت مصيرها أمام عينيها فريسة بين أشداق الضباع. خلال أقل من ١٥٠ سنة صارت «الدولة الهندية» معسكرات تعذيب وإبادة يتولاها الجلادون الهنود في مكتب الشؤون الهندية، وصار الموت الهندي مجانياً تقرر الحكومة الأميركية شكله ومكانه وموعده في حروب استيطانية ضارية يسميها التاريخ المنتصر باسم «حروب الهنود» Indian Wars وهي تسمية لئيمة لا يعادلها لؤماً وتزويراً إلا تسمية جيش الغزو والعدوان الإسرائيلي باسم «جيش الدفاع». إن هذا الاسم كما يقول وورد تشرشل فضيحة تاريخية لأنه ليس هناك أي سجل لحرب أشعلها الهنود. كل ما يسمى بحروب الهنود في «التاريخ المنتصر» غارات وغزوات وحروب شنتها الولايات المتحدة أو مستوطنوها لاغتصاب المزيد من الأرض وإبادة المزيد من البشر ونهب المزيد من الثروات. بهذه الاجتياحات توسعت «إسرائيل الله الجديدة» من مجرد شريط ضيق من المستعمرات المبعثرة على شاطىء الأطلسي في القرن السابع عشر لتبسط سيطرتها الآن على قارة كاملة.

ليس غريباً أن نفهم الآن لماذا هيأت الولايات المتحدة لاستسلام

الهنود بسلسلة من القتل المتواصل لزعماء المقاومة الهندية، وبتدمير مستمر للحكومات الهندية، وبغارات إرهابية لا نهائية لتمزيق أواصر الأخوة والوحدة بين الشعوب الهندية. هكذا نفهم اليوم لماذا أصر الجيش الأميركي على قتل الزعيم الهندي تيكومش Tecumesh الذي أسس اتحاداً من الشعوب الهندية امتد على طول الشاطىء الغربي، من كندا شمالاً حتى خليج المكسيك جنوباً. كانت فرق الموت الأميركية في فترات السلم تغتال القادة والزعماء النشطين الذين كانوا يرفضون إلقاء السلاح أو الركون إلى المعاهدات كما هو الحال في اغتيال الزعيم أوسيولا Osceola زعيم شعب سيمينول Seminole في عام ١٨٣٨، والزعيم تيسكونه ويتكو Tesunke Witko المعروف باسم «الفرَس الجموح» Crazy Horse عام ١٨٧٧، والزعيم تاتانكا ياتنكا Tatanka Yatanka المعروف باسم «الثور الرابض» Sitting Bull عام ١٨٩٠. أما في الحروب فكان الأميركيون بعد نهاية المعركة يقتلون زعماء المقاومة الهندية مثلما فعل الرئيس ابراهام لنكولن في عام ١٨٦٢ عندما أمر بالشنق الجماعي لثمانية وثلاثين زعيماً هندياً من «سنتي داكوتا» Santee Dakota، ثم سحل الزعيم كنتپواش Kintpuash الذي قاد مقاومة شعب المودوك Modoc.

كان الهدف من هذه التصفيات الجسدية لأبرز رموز المقاومة الهندية شعباً بعد شعب هو كسر روح المقاومة والقدرة على الدفاع عن النفس. وكان يواكب هذه الجرائم محاولات شراء من يبيع نفسه من المهزومين وتمكينه من «مهمة النمل الأبيض» termite في قواعد البيت الهندي. معظم هؤلاء الشخصيات لاقوا عقابهم بأيدي شعبهم عندما أصبحوا مثل الجرذان التي تسمن في زمن الطاعون. كذلك كان من أهداف التصفيات الجسدية التدمير

المنظم لقدرة الهنود على حكم أنفسهم بأنفسهم وتقرير مصيرهم بأيديهم. إن معظم الأمم المنكسرة في الحروب وجدت سبيلاً إلى إنقاذ نفسها من الإبادة حين أحبطت كل محاولة أراد بها المنتصر أن يفرض عليها «حكومة دمية» تترجم الهزيمة العسكرية إلى هزيمة ثقافية سياسية أخلاقية؛ حين تكافح هذا «النمل الأبيض» الذي ينخر قواعد البيت ويعده للدمار النهائي.

لم يضطلع «النمل الأبيض» بمهمة الجيش الأميركي وعصابات الاستيطان إلا بعد عام ١٨٨٠ عندما توقفت المقاومة المسلحة وتخدرت الشعوب الهندية بمعاهدات لم يكن لها من هدف إلا كسب الوقت وكسر السلاح. كانت الشعوب الهندية في غرب المسيسيبي قد وعدت بوقف المقاومة المسلحة لقاء الاستقلال بجزء من بلادهم بموجب المعاهدات التي عقدها زعماؤهم مع الحكومة الأميركية. أما في شرق النهر فإنهم راحوا بعد كل معاهدة يُقتلون ويتقهقرون غرباً ويخلون بلادهم شبراً شبراً إلى أن عبروا النهر إلى إخوانهم واصطيد الآلاف منهم أثناء العبور فطافت جثثهم مع التيار وكانت وليمة شهية وقرابين قدمها شعب الله للتماسيح والوحوش المائية. وكانت كل هذه الشعوب قد تلقت الضمانات المتعددة بأن الحكومة الأميركية ستعترف لهم بحكم أنفسهم داخل ما تبقى لهم من بلادهم حكماً ذاتياً تضمنه المعاهدات. لكن لم تمض سنوات قليلة حتى بدأت الحكومة الأميركية تلغم «الحكم الذاتي» بصيغ براقة وسموم معسولة. وقد بدأت الخطة ــ كما تقول ريبيكا روبنز Rebecca L. Robins رئيسة تحرير مجلة *Thought and Action* ــ مع ما يسمى بقانون الجنايات الكبرى Major Crimes Act الذي وضع الهنود في دائرة اختصاصه، ثم بقانون توزيع الحصص General Allotment Act الذي نسف نظام الملكية الجماعي، وهو

النظام الذي حال دون انتقال أراضي الهنود إلى المستوطنين بالشراء الفردي وربطَ مصير الأرض بمصير الجماعة كلها. بهذا القانون الجديد اختلست الولايات المتحدة ملكية المساحات الشاسعة من أراضي الهنود التي خصصت لهم بموجب المعاهدات ودمرت معنى سلطتهم وسيادتهم عليها. كان سن القوانين أحد ألطف وسائل الاحتيال الرسمي على القوانين والمعاهدات والالتزامات الدولية وتنظيم جرائم الإبادة والسطو والهيمنة والنهب بموجب القانون[١٥]. وكانت الولايات المتحدة ــ منذ أن سن الرئيس أندرو جاكسون في عام ١٨٣٠ قانون طرد الهنود من أراضيهم Indian Removal Bill فسمح لكل مستوطن أميركي بطرد الهندي من بيته وأرضه أو قتله، وحتى صدور ما يسمى اليوم بقانون مكافحة الإرهاب أو قانون التجسس على المواطنين Intelligence Authorization Bill لممارسة التمييز العنصري ضد العرب والمسلمين، وسلبهم الكثير من حقوقهم المدنية، والتجسس على هواتفهم وحركاتهم وسكناتهم في بيوتهم وأثناء سفرهم، واعتقالهم «لأسباب لا يمكن الكشف عنها»، وإهانتهم في المطارات ــ تلجأ إلى سن قوانين تسمح بها لنفسها خرق روح القوانين والشرائع.

وفعلاً فإن فرانسيس لوپ Francis Leupp مفوض الشؤون الهندية (١٩٠٥ ــ ١٩٠٨) لم يخف حقيقة أن الهدف الأول من قانون توزيع الحصص هو : **أولاً**: كسر التماسك الجماعي للقبيلة الهندية لأنه يشكل عائقا كبيرا في وجه الهيمنة الأميركية. **وثانياً**: فرض الجنسية الأميركية على الهنود لتذويبهم نهائياً وتذويب ملكيتهم للأراضي الهندية الغنية»[١٦].

ولم تمض سنوات حتى دق الكونغرس مسماره الأخير في نعش ما

يسمى بالسلطة الوطنية بسلسلة من القوانين أنبلها قانون إعادة التنظيم Reorganization Act وقانون التصفية Termination Act وأخيراً قانون التجنس الهندي Indian Citizenship Act الذي فرض الجنسية الأميركية على الهنود بالقوة.

لقد أحكم «الاستعمار الداخلي» الطوق على حياة الهنود، ولم يبق أمام مجلس تعاون الهنود الحمر إلا أن يقرر ماذا سيفعل بما تبقى من الشراذم الهندية الخارجة على القانون وكيف يمكن استئصالها داخل معتزلاتها فرداً فرداً. بمثل هؤلاء الهنود لم يبق لدى الهنود أي أمل في الحياة، وبهم استكملت «فكرة أميركا» رحلتها من الافتراس إلى الهضم.

* * *

منذ البداية كانت «إسرائيل الله الجديدة» God's New Israel التي أراد المستعمرون الإنكليز تأسيسها في أرض كنعان تعني في ما تعنيه أن فكرة أميركا لن تبلغ مُرامها إلا بعد استئصال كنعانيي العالم الجديد وتدمير ثقافاتهم. كانت عقيدة الاختيار على مدى خمسمئة سنة تتقمص وتتناسخ وتسلخ جلد مفرداتها لكن معانيها وأهدافها ظلت ثابتة تعمل في «فكرة أميركا» كما تعمل قوانين الطبيعة. وعندما انتقل مذاق كنعان من عالم الروح إلى الجسد والدم بعد جيلين أو ثلاثة أجيال فلم تعد «إسرائيل الله» نصاً في أسفار العهد القديم بل واقعاً يعيشه الغزاة صارت علاقة هذه الأجيال الجديدة بالأرض تسمح لهم بالقول إنهم هم «أهل هذه البلاد» natives وأبناؤها وأن إسرائيليتهم ليست مستمدة من الكتاب المقدس ولا من الاختيار والتفضيل السماوي وحسب بل إنها مستمدة أيضاً من ولادتهم في أرض إسرائيل. وهنا تطور

شكل الإبادة فراحت تنتزع جوهر وجود الهنود. لم تعد «فكرة أميركا» تكتفي باستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة، ولم تعد تعني مجرد الاغتصاب المنظم للأرض وخيراتها ولا ما يستتبع ذلك من شقاء وتعاسة وقتل. إنها الآن مذبحة من نوع متطور يستولي فيها الغزاة على هوية أهل الأرض وخصوصياتهم وحقيقة انتمائهم إليها على مدى آلاف السنين.

الهوامش

(١) ص ٢٥٤، Sinclair Stevenson لندن ١٩٩٤.

(٢) راجع مقالة Indian Land Claims Policy in the United States التفصيلية المنشورة في مجلة *North Dakota Law Review*. العدد ٥٨، ١٩٨٢. وكذلك تقرير لجنة مراجعة الأراضي العمومية بعنوان «ثلث أراضي الأمة» One-Third of the Nation's Land. وهو تقرير صادر عن وزارة الداخلية الأميركية، واشنطن العاصمة، ١٩٧٠.

(٣) أرقام رسمية منشورة في وثائق وزارة الصحة والخدمات الإنسانية [الأميركية] لعام ١٩٨٨ Chart Series Book.

(٤) كما سنرى لاحقاً، وكما بينتْ ذلك روبين جيريل Robin Jarrell في رسالة ماجستير بعنوان «النساء والأطفال أولاً: التعقير القسري لنساء هنود أميركا»، *Women and Children First: the Forced Sterilization of Native American Women*، وكما جاء في دراسة لديلنغهام برينت Brint Dillingham في مجلة **الأميركيين الهنود** American Indian Journal (العدد ١، مجلد ٣، ١٩٧٧) بعنوان: «الهنديات الأميركيات وممارسات التعقير» لدى مكتب الخدمات الصحية الهندية *American Indian Women and IHS Sterilization Practices*.

(٥) كتاب *Steeling from Indians: Inside the Bureau of Indian Affairs* هو خلاصة تجربة عمل المؤلف David L. Henry في «مكتب الشؤون الهندية»، يصف فيه ما اكتشفه من اختلاسات ودسائس وجشع على مدى أكثر من ١٨٠ صفحة من القطع الكبير. والكتاب الذي يقدم لك صورة هندية حمراء عن سلطات الاستعمار الداخلي في كل المحميات الأميركية هو من وثائق «الحركة الهندية الأميركية»، ويمكن مراجعته أو الحصول عليه من http://www/dickshovel.com/browse.html.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٧ من نسختي.

(٧) وورد تشرشل Ward Churchill في: *Fantasis of The Master Race*، ص ٢٣١، مونرو/ ماين، ١٩٩٢.

(٨) رسل مينز Russel Means (رسالة كانون الثاني/يناير ــ شباط/فبراير ١٩٩٨) American Indian Movement Club Notice.

(٩) من وصية ألقاها الزعيم الهندي سياتل في شعبه، سنة ١٨٥٤ في حفل استسلام

تاريخي لإبرام معاهدة أجبر فيها على تسليم بلاده دواميش (هي الآن في ولاية أوريغن). راجع **مقدمة جسور**، العدد ٢/٣، ١٩٩٣. وعلى الرغم من أن هذا النص منحول كما تبين لاحقا، إلا أنه يمثل الفلسفة الهندية الطبيعية أفضل تمثيل، كما أرجو أن أبين ذلك في مكان آخر.

(١٠) تعرف القبيلة اليوم باسمها الأميركي Blackfeet «سود الأقدام». وهناك خلاف في لفظ اسمها الهندي، لكن السائد لفظان هما Siksika كما ورد في موسوعة *The Indian Tribes of North America* لجون سوانتون John Swanton (انظر: **قبائل إنديانا**، ص ٣٨٧)، وهذه موسوعة رسمية اعتمدت معلومات «مكتب الأعراق الأميركي». أما اللفظ الثاني Sihasapa فقد اعتمدته الحركة الهندية. انظر *The State of Native America* الذي حررته أنيت جيمس Annette Jaimes، ص ٣١٨.

(١١) تركت لنا «فكرة أميركا» تراثاً هائلاً من خطاب الإبادة الرسمي يمكن مراجعته في كتاب تحليلي مذهل عن هذه اللغة الدموية لدافيد سفالدي David Svaldi بعنوان: **مذبحة ساند كريك وخطابيات الإبادة** *Sand Creek and the Rhetoric of Extermination...*، مريلاند ١٩٨٩.

(١٢) من هذه المذابح التي تشكل اليوم صفحات من البطولة والمجد في التاريخ الأميركي، مذبحة النهر الأزرق Blue River في نبراسكا، (١٨٥٤) ومذبحة نهر الدب Bear River في أيداهو (١٨٦٣)، ومذبحة ساند كريك Sand Creek في كولورادو (١٨٦٤)، ومذبحة نهر واشيتا Washita في أوكلاهوما (١٨٦٨)، ومذبحة سابا كريك Sappa Creek في كانساس (١٨٧٥)، ومذبحة كامب روبنسون Camp Robinson في نبراسكا (١٨٧٨)، والمذبحة الشهيرة Woundded Knee في داكوتا الجنوبية (١٨٩٠). وهناك الآن عشرات من الكتب عن كل مذبحة من هذه السلسلة لكنني أنصح بقراءة الكتب الستة التالية فهي شبه معتمدة من قبل الحركة الهندية.

Stan Hoig, *The Sand Creek Massacre*, University of Oklahoma Press, Norman, 1961.

—— . *The Battle of Washita; The Sheridan-Custer Campaign of* 1868, University of Nebraska Press, Lincoln, 1976.

- Mari Sandoz, *Crazy Horse: Strange Man of the Oglalas*, University of Nebraska Press, Lincoln, 1961.

—— . *Cheyenne Autumn*, Avon Books, New York, 1964.

- Dee Brown, *Bury my Heart at Wounded Knee; An Indian History of the American West*, New York, 1970.
-Brigham Madsen, *The Shoshone Frontier and the Bear River Massacre*, University of Utah Press, Salt Lake City, 1985.

(١٣) راجع *Steeling from Indians*، ص ٥٤ ومابعدها.

(١٤) المصدر السابق، ص ٥٨.

(١٥) عن هذا الابتذال الأميركي التاريخي لمعنى القانون من أجل حماية الجرائم الرسمية والممارسات غير القانونية راجع مقالة Savage Law لإريك شايفيتز Eric Cheyfitz، ومقالة Terms of Assimilation لبريسيللا والد Priscilla Wald، وكلتاهما منشورتان في كتاب رائع وغني بالمعلومات عن ثقافات الإمبريالية الأميركية *Cultures of United States Imperialism* أصدرته Duke University Press وشارك في كتابته عدد كبير من أخصائيي علم السياسة والأكاديميين الأميركيين، تحرير Amy Kaplan وDonald E. Pease، ص ١٠٩ ــ ١٢٨ و٥٩ ــ ٨٤، درهام ولندن ١٩٩٣.

(١٦) فرانسيس لوب Francis Leupp في كتابه *The Indian and His problem*، نيويورك ١٩٧٦، ص ٩٣.

الفصل الثالث

الثقافة المستباحة
شيء عن كارلوس كاستنيدا

هذا التزوير [الأميركي لثقافة الهنود] يهدف إلى اختراق وجدان الهنود وخلقه من جديد لكي يروا أنفسهم بعيون جلاديهم. إننا نتحدث هنا عن استعباد روحي مطلق يستكمل أهداف الاستعباد الجسدي. أما إذا نجحوا بهذا فإن أرواحنا التي لم يبق لنا غيرها ستتبخر كما تتبخر حبات المطر في فوهة البركان.

پام كولورادو

باحثة هندية من شعب أونيدا Oneida

داخل كرة اللفظ البلورية هناك عوالم ذات طبقات بصلية رقيقة لانهائية في لغة السحر التي يكتب بها كارلوس كاستنيدا Carlos Castaneda عن روحانيات هنود أميركا. صحيح أن دارسيه سافروا في كل الاتجاهات والمستويات وكشفوا الكثير من سحر هذه العوالم وشفافيتها، لكن شيئاً واحداً غاب عن كل دراساتهم وهو الرائحة الكريهة لهذه البصلة الفاسدة التي تختفي في لبّها المنتن «فكرةُ أميركا»؛ فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. إن

عمارة كاستنيدا الثقافية لا تختلف عن «عمارة متحف الهولوكست» الذي يخفي تحت قواعده في واشنطن تلك المقبرة الجماعية لشعب كونوي. هنا في هذا اللب المنتن من «فكرة أميركا» يتخطى الافتراس جسد الفريسة ليتلمظ بروحها، يعجنها ويصهرها ويعيد خلقها وإحياءها دميةً للترفيه والمتعة في سوق الاستهلاك اليومي للروح.

وعلى غرار جورج واشنطن في جريمته الكاملة بدأ كاستنيدا في عام ١٩٦٨ يختلق «المجاهل الروحية الهندية» فيقص ويلصق من تيموثي ليري Timothy Leary ويوغي راماشاركا Yogi Ramachraka وبارباره مايروف Barbara Mayroff والتراث الغنوصي والباطني والصوفي الذي كان يطليه بألوان خيالاته وهلوساته وعطشه للشهرة والثروة والتمثيل بالأشباح.

في تلك الفترة كان افتراس الروح الهندية قد بلغ مرحلة الاجترار والاستهتار الذي يصفه أحد فلاسفة الحركة الهندية ڤاين دولوريا Vine Deloria Jr. (من شعب سو) صاحب **الإله الأحمر** *God is Red* بقوله:

> إن الوجود الملتبس للهنود قد انعكس على معتقداتهم الروحية فأغرى الكثيرين باستباحة تزويرها وتشويهها وتسويقها إلى درجة أن «الهندي» صار يتعرض للسخرية والضحك حين يقف في وجه هذا السيل من التلفيق ليقول الحقيقة. إنهم لا يكتفون بتكذيبه بل إنهم سرعان ما يوبخونه ويسألونه بعجرفة أن يتعلم تراثه جيداً وفقاً لما كتبه الخبراء (غير الهنود). وها إن أبناء الهنود في

> المدارس والجامعات الأميركية اليوم يروّضون على رؤية أنفسهم وثقافاتهم ومعتقداتهم الروحية وفقاً لما يقوله هؤلاء «الخبراء» وليس وفقاً لتقاليد آبائهم وأجدادهم التي ورثوها جيلاً عن جيل. هناك ثقافات ومعتقدات هندية يختلقها هؤلاء «الخبراء» ويجبرون الهنود أنفسهم على اعتناقها بعد أن صارت لهم وحدهم الكلمة الفصل في ما هو هندي وليس بهندي[١].

أما الباحثة الهندية (الكندية) پام كولورادو Pam Colorado فتذهب أبعد من ذلك حين تقول : إن هذا التزوير يهدف إلى اختراق وجدان الهنود وخلقه من جديد لكي يروا أنفسهم بعيون جلاديهم. إننا نتحدث هنا عن استعباد روحي مطلق يستكمل أهداف الاستعباد الجسدي. أما إذا نجحوا بهذا فإن أرواحنا التي لم يبق لنا غيرها ستتبخر كما تتبخر حبات المطر في فوهة البركان. وفعلاً فإن كثيراً من أطفالنا فقدوا أنفسهم ومعنى حياتهم بعد أن تحولت ثقافتهم إلى عجينة من الشمع المحترق. فاللعبة المفضلة لدى أطفال الهنود اليوم كما يقول الممثل الهندي Charlie Hill هي «لعبة الكاوبوي» حيث يرتدي الطفل الهندي ملابس الكاوبوي ويتسلى بتصويب مسدسه على الهنود كما في السينما. ولكي نتصور فظاعة هذه الهيمنة الثقافية [والكلام لهيل] دعنا نتخيل أطفال اليهود يلعبون لعبة اسمها «النازي» حيث يتزين الطفل اليهودي فخوراً باللباس والشعار النازي ويتسلى بحرق اليهود. إن الحديث عن المذبحة الروحية التي نتعرض لها ليس استعارة بلاغية، فأرواحنا الآن هي التي تباد[٢].

نشر كاستنيدا كتابه الأول «**تعاليم دون جوان: طريقة العرفان**

اليـاكيـة» *The Teachings of Don Juan: The Yaqui Way of Knowledge* عن دار نشر أكاديمية محترمة تابعة لجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس UCLA. ثم إنه بعد ثلاث سنوات ألحق كتابه الرائج الذي استباح فيه الروح الهندية وفبركها تجارياً بمجلد جديد مكمل عنوانه **«الحقيقة المعتزلة: مزيد من المحادثات مع دون جـــوان»** *A Separate Reality: Further Conversations with Don Juan*. ولم يمض عام واحد حتى أصدر ثالث كتبه **«رحلة إلى إكستلان: العبر الدونجوانية»** *Journey to Ixtlan: The Lessons of Don Juan* عن دار نشر تجارية بلغ ربحها وربح كاستنيدا من هذا الهولوكست الروحي أحد عشر مليون دولار في أقل من عشر سنين.

بدأت قصة هذه الروحانيات الغريبة في عام ١٩٦٣ عندما كان كاستنيدا طالباً يدرس الأنثروبولوجيا في جامعة كاليفورنيا UCLA. وقد زعم سنتها أنه قطع المفازات والقفار إلى صحراء سونورا Sonora ليدرس ويتحنث على يدي ساحر عجوز من قبيلة ياكي Yaqui يدعى دون جوان ماتيس، وأنه أمضى بين يديه خمس سنوات يصلى الحر والقر؛ يتعلم منه، ويشطح معه، ويدون بالإسبانية ما يمليه عليه من غرائب طريقته العرفانية قبل أن يتوج هذه المغامرة الروحية النادرة بكتابه الأول: **«طريقة العرفان الياكية...»**.

أول ما أثار الريب في قصة هذه الرحلة الروحية هو قصة كاستنيدا الشخص كارلوس سيزار سالڤادور أرانا(كاستنيدا) الذي انتحل لنفسه سيرة ذاتية ملفقة أثارت عليه وعلى كتاباته عاصفة من التساؤلات. لقد زعم أنه من مواليد سان پاولو/البرازيل في زمنين مختلفين هما ١٩٣١ و١٩٣٥ علماً بأنه من مواليد ١٩٢٥ في

كاجاماركا/پاليرو. وقال إن والده كان أستاذاً للأدب فيما كان أبوه صائغاً. ثم ادعى أنه خدم مظلياً في الجيش الأميركي خلال الحرب الكورية وأنه جرح وأصيب في خصيتيه فيما كان في تلك الفترة مشغولاً بولادة طفلة غير شرعية له في البرازيل. أما نضاله واستبساله وتضحياته في سبيل ثروة الأمم فليس لها أي ذكر في سجلات الجيش الأميركي، لا قبل الحرب الكورية ولا خلالها ولا بعدها.

كانت سيرة حياة كاستنيدا الملفقة أول حبل الكذب. وتكاد تشبه في مفاجآتها حفريات حديقة البيت الأبيض التي كشفت عن آثار ورم بشرية تعود إلى مدينة نَكن شَتَنكِه وشعب كونوي. فهذه السيرة الذاتية الملفقة هي التي أغرت بتحليل معلومات مغامرته الروحية بعين الشك، وهي التي كشفت أن كثيراً من ادعاءاته مستحيلة فيزيائياً. إنه يزعم في عرفانيته مثلاً أن الصحراء كانت تدب بأسود الجبال التي انقرضت من هذه الصحراء قبل رحلة كاستنيدا إليها بخمسين سنة. كذلك حال حديثه عن نمر پالوما المنقرض. وكذلك قوله إنه تسلق شجرة هرباً من وحش متعطش للدم، ثم تبين أن الوحش الوحيد المتعطش للدم في هذه الصحراء هو القطة الوحشية (من فصيلة النمور)، وهي من أرشق الحيوانات تسلقاً للأشجار.

وفي «العرفانيات» وصف مريب غير واقعي لصيف صحراء سونورا وشتائها، فهو يروي أنه تجول الساعات الطوال في تلك الصحراء بوصية من معلمه الروحي في ظهيرة ٢٩ حزيران/يونيو، و٢٤ تموز/يوليو، و١٩ آب/أغسطس، وأنه كان مجذوباً مأخوذاً تحت عراء الشمس لم يشعر بالوقت إلى أن انقضى النهار. أما سجل الأرصاد الجوية فيقول إن حرارة تلك الأيام في جنوب صحراء سونورا

كانت تزيد على ١١٥ فهرنهايت وأن الضِّباب نفسها تختبىء في جحورها فراراً من حرارة الشمس القاتلة. ويبدو أن كاستنيدا لم ينتبه إلى أنه هو الذي وصف هذا العراء الشمسي في مواطن أخرى من عرفانياته بأنه «لا بد أن يصيب الإنسان بالحمى أو الإغماء أو الموت».

يبقى أن هذه الأوديسه الروحية التي نال كاستنيدا ببعض معلوماتها درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا ونفذ بها إلى أعمق أسرار ممالك الروح الياكية تحتاج إلى شيء من الوثائق والتسجيلات والصور وغير ذلك من أدوات البحث الأنثروبولوجي. لكن كاستنيدا كان يكتب على طريقة «حدثني قلبي عن ربي»، ويزعم أن معلمه دون جوان ماتيس يرفض مثل هذه الأدوات رفضاً نهائياً. وعندما ووجه في السبعينيات بالأسئلة المحرجة عن اختفاء تلك الأدوات أجاب بأنه سيشعر بسعادة غامرة لو استطاع أن يقدم مدوناته ووثائقه للباحثين لكنها «للأسف الشديد تلفَت في فيضان غمر قبوَ بيته»! وقد تكون قصة الفيضان صحيحة، ولكن الحركة الهندية تتساءل: لماذا لم تطّلع لجنة الدكتوراه على شيء من هذه الوثائق والمدونات عندما كانت تفحص رسالته وتنظر في قيمتها المنهجية؟ ومن أين استلهم كاستنيدا مادة كتبه اللاحقة إذا كانت وثائقه قد تلفت فعلاً في ذلك الفيضان؟

إن أدبيات الحركة الهندية «الغاضبة من خيال كاستنيدا الاستهلاكي» وفي مقدمتها كتابات جانيت ماكلاود Janet McCloud وأنيت جايمس Annette M. Jaimes تذهب إلى ما هو أبعد من الملاحظات الشكلية والفحص المباشر لـ«هذه الاستباحة الجريئة والتزوير المستهتر للمعتقدات الهندية». فما دامت

المغامرة الروحية في صحراء سونورا تنشد المتابعة الأنثروپولوجية المتأنية للحكمة الياكية القديمة، فإن من المفترض بالمريد المطيع الذي رفع النقاب عن كنوز هذه الحكمة أن يكون ذرب اللسان يملك من اللغة الياكية ما يساعده على التعبير والفهم بين يدي معلمه، لكن الكلمات القليلة التي تورط في نسبتها إلى الياكية فضحت جهله المطبق بهذه اللغة. أما قول كاستنيدا بأن أكوام وثائقه قد صنفت باللغة الإسبانية فقد ورطه في المزيد من الفتق والرتق. فإذا كان كاستنيدا لا يحسن لغة دون جوان الياكية، وكانت وثائقه قد صنفت بالإسبانية فإن هذا يعني أن معلمه دون جوان ماتيس في تلك البقعة النائية من جنوب صحراء سونورا لم يكن يلم بالإسبانية إلماماً عابراً بل كان بها طلق اللسان قادراً على أن يترجم إليها أفكاره واصطلاحاته المعقدة لمساعدة كاستنيدا على إتمام دراسته الأنثرپولوجية. وللأسف فإن الوريقات القليلة المخربشة من الوثائق التي عرضها كاستنيدا وزعم أنها نجت في سفينة نوح ساعة فيضان قبو بيته لم تكن مكتوبة بالياكية ولا بالإسبانية (المكسيكية) بل بالبيروڤية. فإما أن يكون دون جوان ماتيس الساحر الياكي من المهد إلى اللحد قد تعلم الپيروڤية لغة كاستنيدا الأم أو أنه كان اختراعاً. وأرجح الظن أن كاستنيدا لم يقابل إلا نفسه، وأنه نسج هذه الكومة من الأكاذيب وفبرك هذه العقائد الهندية فبركة تجارية وراء مكتبه، لا في تلك الصحراء التي تبين أنه لا يعرفها.

لو أن كاستنيدا واجه الشكوك والتساؤلات بعيّنة واحدة من نبات تلك الصحراء أو من «فطر الهلوسة» الذي زعم أنه دخنه مع دون جوان الساحر، أو بصورة، أو بحفنة رمل، أو بخرقة من ملابس دون جوان ماتيس، لبخر الكثير من الشكوك والتساؤلات، كما يقول عالما الحياة جوناتن أوت Jonathan Ott وجيرمي بيغوود

Jeremy Bigwood، لكنه تهرب وراح يقوم من مطب ليقع في مطب آخر. وكان غوردون واسون Gordon Wasson عالم النبات المتخصص في أعشاب الهلوسة والتخدير قد استثير بما كتبه كاستنيدا عن «فطر الهلوسة» فقلب ظهر صحراء سونورا وبطنها بحثاً عن هذا الفطر الخرافي دون أن يعثر له على أثر حتى بين شعب الياكي الذي لم يعرف شيئاً عن هذا الفطر ولم يسمع شيئاً عن ساحر يدعى دون جوان ماتيس. وظل غورودن واسون يطارد كاستنيدا ويلح عليه بالسؤال عن تفاصيل هذا الفطر وعن المكان والزمان والشكل إلى أن اضطر كاستنيدا إلى اختلاق عذر مشابه لذلك الفيضان المأساوي الذي ذهب بكل وثائق مغامرته الروحية فقال إن العينة الوحيدة التي حملها معه من صحراء سونورا قد ضيعها موظف مختبر الجامعة. أما الجامعة ومختبراتها وموظفوها فليس في سجلاتهم ـ وفقاً لأوت وبيغوود ـ أية إشارة تدعم حكاية كاستنيدا.

هنا أيضاً، امتد بساط الأعشاب على جثة الفضيحة وحوصرت أصداؤها في اللعبة الأكاديمية التي اقتصرت أخيراً على مجرد التشكيك بحقيقة وجود دون جوان ماتيس الساحر وحقيقة المغامرة الروحية الكاستنيدية وإرجاع الكثير من أفكارها إلى مصادرها ومظانها من كتابات تيموثي ليري ويوغي راماشاركا وباربارة مايروف وكتب المتصوفة والبوذيين وغيرهم. كذلك أهيل التراب فوق مدينة الروح الهندية وتم اختصار كل ما جرى بأنه مجرد هزيمة في العالم الأكاديمي كما جاء في الكتاب السنوي للأكاديمية الأميركية للتعليم العالي، عام ١٩٨٥. لكن مكتبة الكونغرس للأسف ما تزال تصنف «عرفانيات» كاستنيدا بين المراجع الأنثروپولوجية عن الهنود وشعب ياكي. أما غضب «الحركة

الهندية» من هذا الاستحلال والتزوير والارتزاق بثقافات الهنود ومعتقداتهم فإنه ضاع في لجج خيال كاستنيدا الذي استحوذ على قلوب وعقول الملايين من القراء. ومعظم هؤلاء القراء لا تعنيهم تنظيرات «عقلية المؤامرة» وتلك التفاصيل التافهة لإبادة ثقافات أكثر من ١١٢ مليون إنسان ينتمون إلى أكثر من ٤٠٠ أمة أحرقت أرواحهم بعد أن أحرقت أسماؤهم وأشلاؤهم وكتبُ تاريخهم في جحيم «فكرة أميركا» التي استكملت رحلتها من الافتراس إلى الهضم... فإلى الاجترار في أعالي البحار.

الهوامش

(١) شاهد مأثور عن فيلسوف الحركة الهندية ڤاين دولوريا جينيور Vine Deloria Jr. وهو هنا مقتبس من *The State of Native America* (Edited by Annette Jaimes), Chapter XIV «The Great Pretenders: Further Reflections on Whiteshamanism by Wendy Rose:

(٢) المصدر السابق، وفي سياق النص نفسه. وراجع أيضاً *Native AIR* (١٥ ت٢/نوفمبر ١٩٩٥، بقلم Hal & Ron, من Cheyenne River Sioux.



الفصل الرابع

بيضة الأفعى

تأثير اليهود المباشر على الحياة الأميركية لا يكاد يذكر ، إذ لم يكن لديهم ما يعطونه للمستعمرين [الإنكليز] البيوريتانز الذين كانوا أكثر يهودية منهم.

الحاخام لي ليفنجر،

تاريخ اليهود في الولايات المتحدة

الإنكليز هم الإسرائيليون الذين خاطبهم الله وأراد لهم أن يصنعوا نهاية الزمان بأيديهم.

الموسوعة اليهودية Encycopedia Judaica

لا أعتقد أن كلباً في مذود يستطيع الادعاء بأن له حقاً نهائياً في مذوده مهما طالت إقامته فيه.

«الصديق» ونستون تشرشل عن عرب فلسطين،

في خطاب له أمام لجنة بيل peel

الصهيونية عام ١٩٣٧

عندما بنى جون سميث المستعمرة الإنكليزية الأولى في العالم الجديد كان اليهود والإنكليز على قناعة ضمنية مشتركة بأن

استمرار التفكير في ما جرى على أرض فلسطين ما بين سنة ١ وسنة ٣٢ [الفترة التي ظهر فيها السيد المسيح] سينكأ الجراح ويلهب نار العداوات والضغائن، ولا بد لهؤلاء وهؤلاء من تناسي ما جرى في تلك الفترة الملتبسة وطيّ صفحتها المؤلمة. كانوا يعتقدون بأن عليهم أن يفكروا في ما سيجري بعد سنوات قليلة عندما سيتحقق أملهم جميعاً بظهور المسيا في نهاية الزمان مابين ١٦٥٥ و ١٦٥٦ كما يفصل ذلك ريتشارد پوپكين في **«يهود مسيحيون ومسيحيون يهود من النهضة حتى عصر التوير»**:
Jewish Christians and Christian Jews from the Renaissance to the Enlightenment

هذه النزعة المستقبلية التي بنيت عليها فلسفة ما بعد العهد الجديد كانت تعني أن يتبرع الإنكليز بخلع صاحبهم لا جزاءً ولا شكوراً، وتعني أن يمحوا كل ما ترتب على ظهوره من آثار، ويرموا بستة عشر قرناً من تاريخه في بئر النسيان، وأن يعيشوا على أمل مجيئه من المستقبل بصيغة جديدة مقبولة للشعبين المختارين. كانوا جميعاً متفائلين بأن «العبرانيين الإنكليز» في العالم الجديد يضعون اللمسات الأخيرة لنهاية الزمان ويكتبون آخر سطور التاريخ البشري، وأن الأرض تعيش آخر أيام العالم كما رسمتها النصوص القيامية المقدسة في «رؤيا يوحنا» و«سفر دانيال». لقد وجد شعب الله الإنكليزي على طرفي المحيط أنهم يحتلون ضفتين متقابلتين لنهر القيامة، ويتنافسون على مملكة الله «الفلسطينية»: أهل الضفة الأولى شاهدوا علامات القيامة تنادي بالإنكليز أن يقودوا زحف بني إسرائيل المقدس إلى فلسطين من كل جهات الأرض، وأهل الضفة الثانية احتكروا هذه القداسة لأنفسهم بعد أن جعلتهم نعمة السماء «يهود الروح» spiritual Jews وفضلتهم على يهود اللحم والدم

وأوكلت إليهم ــ دون يهود اللحم والدم ــ قيادة جيوش القيامة إلى فلسطين وفي فلسطين. لقد استبعد هؤلاء يهودَ اللحم والدم من سيناريو السماء واحتلوا مكانتهم المفضلة عند الله بزعم أنهم هم الذين يمتلكون الجوهر الروحي ليهود التوراة وأنهم هم الآن شعب الله المختار. وقد بلغت هذه الموجة عرامها عند الملكة ڤيكتوريا. وكان هؤلاء أيديولوجياً من أشد أنصار «مملكة إسرائيل»، لكنهم كانوا في الوقت نفسه «لاساميين» من ألد أعداء اليهود كما هو حال كل الجماعات الفاشيّة التي تسمي نفسها اليوم زوراً وتضليلاً باسم «المسيحية الصهيونية». كانوا على يقين من أن الإنكليز هم الإسرائيليون الذين خاطبهم الله وأراد لهم أن يصنعوا نهاية الزمان بأيديهم كما ورد في الموسوعة اليهودية *Encycopedia Judaica* (مادة «البريطانيين ــ الاسرائيليين» The British Israelites).

وفيما كانت الجزيرة البريطانية سنة ١٦٢٣ تحشش بالكتابات الألفية والنبوات القيامية وقصة مصرع «الدجال» ومحو بابل وتدمير إمبراطورية الترك (كل شعوب العالم الإسلامي ذلك الزمان) وتحلم بتجميع اليهود في فلسطين وظهور قبائل إسرائيل الضائعة ومجيء المسيا، وتتلهف إلى نزول أورشليم الجديدة من السماء ما بين ١٦٥٥ و١٥٥٦، كان كنعانيو العالم الجديد من شعوب كونوي والألغونكين والموهيكان يفْدون كنعانيي العالم القديم بأرواحهم ويكتبون بدمهم دراما نهاية الزمان. وكانت مدينة نَكن شَتَنكِه ومعها كل مدن شعوب أميركا على الساحل الشرقي في قيامة جهنمية؛ فهي تمحي من وجه الأرض وتدفن بشعوبها في «المجاهل المستنقعية» استعداداً لنزول «أورشليم الجديدة/المدينة الجبلية/أميركا» فوق جثثها الهامدة. لم تعد القيامة تحتاج إلى إله في السماء فقد

قعدت بندقية الغزاة الإنكليز على عرش الله وصاغت إرادة السماء وكتبت مصير شعوب العالم الجديد فأعطتهم حظهم من الحياة والموت والجنة والنار والسعادة والشقاء والحرب والسلام، وصار على قوانين الطبيعة نفسها أن تتخلى عن عرشها لهذه الأنثروبولوجيا القيامية المتعطشة للدم والدمار.

كانت الدراسات القبالية والزهارية اليهودية طاغية على الفكر الاستعماري البريطاني كما يقول پويكين في «الجذور المسيحية للصهيونية» The Christian Roots of Zionism (مجلة *Contetion*، ع ٢، ١٩٩٣)، ومنها استمد القياميون حساباتهم لنهاية الزمان. وفي تلك الفترة التي غرقت فيها مدينة نَكن شْتَنكِه تحت المستنقعات أطلق جوزيف ميد Joseph Mede (Mead) أستاذ اليونانية في كلية المسيح بكامبردج نظريته الجيوقيامية، وهي نظرية ترى في «الرؤيا» تاريخ المستقبل وتؤمن بترابية مملكة الله وحتمية تجفيفها لنهر الزمان. ويروي ماير ڤيرتيه Mayir Vereté في مجلة **«دراسات الشرق الأوسط»** *Middle Eastern Studies* (ع ٨، ١٩٧٢) أن ميد هو أول من نبه إلى أهمية تهويد القدس و«استعادتها» ملامحها الروحية اليهودية قبل ظهور المسيح، وهو الذي أطلق تقليد الأسلوب القيامي في الأدب الإنكليزي.

مع بداية ما يعرف بالثورة البيوريتانية هندس «فلاسفة» الثورة جون دوري John Dury وصموئيل هرتليب Samuel Hartlib وجان عموس كومينوس Jan Amos Cominus مسرح القيامة المقبلة كما يقول پويكين في **«القوة الثالثة في فكر القرن السابع عشر»** *The Third Force in 17th Century Thought* وتوزعوا مهمات تدبير المصير البشري فيما بينهم. وكان من أبرز معالم مشروعهم الكوني

ضم اليهود إلى صفوفهم وتوحيد الجهود الخيرة معهم. ذلك ما تقوله النبوات عن هذه المصالحة الوجودية التي ستسبق نهاية الزمان وظهور المسيا الذي ينتظره اليهود والپيوريتان معا ليجمع كل يهود العالم في فلسطين ويبني أورشليم المقدسة ومعبدها فوق «المجاهل المستنقعية»التي كانت تسمى القدس. عندها سينكشف الحجاب عن القبائل اليهودية المختفية وسيشهد العالم زحفها المقدس بالتسبيح والتهليل إلى مملكة الله.

كان الفلاسفة الثلاثة من مريدي الحاخام الأسطوري منسّى بن إسرائيل Menassah ben Israel. ومعروف أن «دوري» المعلم الروحي للأميرة ماري تتلمذ على يدي بن إسرائيل، وأنهم جميعاً ــ بعد نجاح ثورتهم الپيوريتانية ــ أعدوا لإنشاء «أكاديمية الدراسات اليهودية» في لندن لنشر فضائل اليهودية بين أكبر عدد ممكن من الإنكليز وكبح جماح العداوة التقليدية لليهود. وقد رشحوا أعلام اليهودية ونجومها للإشراف على هذه الكلية، من بينهم الحاخام بن إسرائيل والحاخام يهودا ليون الذي بدل إسمه إلى تمپلو Templo. ثم شرعوا في تحقيق وتحرير «المشنا العبري» الذي طبع في عام ١٦٤٦. ويقول پوپكين في **مجموعة العلاقات اليهودية المسيحية في القرن السابع عشر** *Jewish Christian Relations in the Seventeenth Century*: «كان الهدف الأول من طباعة المشنا ــ في هذا الوقت الذي اقترب فيه موعد تحرير أورشليم ــ أنه يتضمن الوصف الدقيق الكامل لهيكل سليمان والشعائر التي كانت تقام فيه». وفي تلك الفترة الحرجة من عمر الإنسانية كان السياسي الثري آدم بوريل Adam Boreel والحاخام يهودا ليون يتزعمان «حركة الوحدة اليهودية الإنكليزية»، وقد جسّدا ذلك في تحقيق أنموذج مجسم لهيكل سليمان برعاية بوريل

وتمويله وباستضافته الحاخام في بيته عدة سنوات. وكان المجسَّم رائعة مقدسة ظل لفترة من الوقت محجّة للثوار البيوريتان في حديقة بيت الحاخام بأمستردام قبل أن يهدى للملك تشارلز الثاني.

ثم كانت المفاجأة الكبرى عندما بدأ فلاسفة الثورة البيوريتانية الثلاثة يشيعون أن هنود أميركا هم قبائل بني إسرائيل الضائعة وأن العالم الجديد بهذا هو أيضاً إسرائيل الضائعة. وكانت هستيريا «آخر الزمان» وتهويد العالم الجديد تتخبط في كل اتجاه مما شجع توماس ثوروغود Thomas Thorowgood واعظ نورفولك على تأليف كتابه الجنائزي **«يهود في أميركا، أو احتمال أن يكون الهنود من جنسهم»** *Jews in America, or the Probability that the Indians are of that Race* الذي استهله دوري بمقدمة قال فيها إنه استخار الحاخام بن إسرائيل في هذه المعجزة وأنه أكد له أن «الهنود اليهود» من علامات نهاية الزمان. أما الحاخام نفسه فأثنى على الثورة البيوريتانية وفلسفتها، وكتب، بتشجيع من دوري، رسالة استعطاف رقيقة الحاشية لكرومويل Cromwell «مولانا حامي حمى عموم إنكلترا» Lord Protector of the Commonwealth of England يذكّره فيها بالآيات والمعجزات التي تظهر في الجو والبر والبحر، ويتحسر لأن كل النبوات التي تتحدث عن «نهاية الزمان» قد تحققت إلا واحدة غالية على قلب الله آن أوانها وهي «تجميع اليهود في فلسطين من كل أرجاء الأرض». وفعلا فقد تأثر حامي الحمى البريطاني برسالة الحاخام فأوفد إليه سفيراً فوق العادة يدعوه لزيارة بلاطه في إنكلترا والتفاوض معه في مسألة تجميع اليهود في فلسطين. وكان منسى بن إسرائيل قد هيأ لرسالته بنشر رائعة أفكاره القيامية Piedra Gloriosa عن حلم دانيال (زينها رامبراندت بمجموعة رسوم

قيامية) أكد فيها دقة الحسابات النبوية الإنكليزية التي توقعت نهاية الزمان في ١٦٥٥ ــ ١٦٥٦، مما فتح بوابة السماء لوحدة الشعبين المختارين: الإنكليز واليهود.

كان الإنكليز يؤمنون بأن لدى اليهود في كتاباتهم القبالية مفاتيح التدبير الإلهي وأسراره، والكلام ما يزال لپويكين في «القوة الثالثة». فمنذ بداية الثورة الپيوريتانية التي صنعت أميركا و«فكرة أميركا» ومشروعها كان معظم الإنكليز على طرفي المحيط يصلّون مع اليهود في معابدهم ويتعلمون العبرية ويجعلونها لغتهم اليومية لأنهم يعتبرون أنفسهم عبريين، ولأنهم يؤمنون بأن العبرية هي اللغة المقدسة لمملكة الله الوشيكة. كان هناك إجماع بينهم أن اليهود أكثر شعوب الأرض حاجة إلى الحماية والرعاية والتميز لأنهم «شعب الله»، فحبهم يستدعي رضا الله، وكرههم يستنزل غضبه وتباره وثبوره. «نحن نرى ــ كما كتب توماس نيوتن Thomas Newton في أطروحاته عن النبوات *Dissertations on the Prophecies* ــ ما حل بالإمبراطوريات العظمى التي ظلمت الشعب المختار. لقد انتهت جميعاً إلى الخراب. وعلينا أن نعتبر بذلك فالله يحاسب الأمم وفقاً لموقفهم من اليهود. إن الأمة التي تحمي اليهود إنما تحمي نفسها من غضب الله». وهذه مقولة صارت النكهة المفضلة للعلكة الأميركية، وما تزال تتردد شعبياً ورسمياً ولاهوتياً في العالم الانغلو/أميركي إلى الآن. وكان آخر من رددها رسمياً الرئيس الأميركي كلينتون حين أكد وصية كاهنه له: «إذا تخليت عن اسرائيل فإن الله سيغضب عليك».

في صيف ١٦٥٥، الصيف الوجودي الأخير، كتب السفير السويدي لدى بلاط كرومويل تقريره الشهير عن هستيريا التوقعات

والمفاجآت التي كان ينتظرها الإنكليز على شفا «نهاية الزمان» وصف فيه الحمّى اليهودية التي انتابت سكان لندن وعبّر عنها خير تعبير جورج فوكس George Fox مؤسس طائفة الكويكرز بقوله: «أن تكون يهودياً بالمظهر لا يعني شيئاً، أما أن تكون يهودياً بالمخبر فهذا يعني كل شيء.

To be a Jew externally is nothing; to be a Jew internally is everything.

كان «كل من في لندن يتحدث عن الإنكليزي اليهودي واليهودي الإنكليزي، وكان الكثيرون من الإنكليز يصلون في معابد اليهود» كما يقول بويكين في «**اليهود المسيحيين والمسيحيين اليهود من النهضة إلى عصر التنوير**». وفي ذلك الصيف الوجودي الأخير شاعت تسمية إنكلترا باسم «إسرائيل الجديدة»، وكان الثوار البيوريتان ومعهم كرومويل حامي حمى عموم إنكلترا يعتقدون بأن الله وهب الإنكليز على طرفي المحيط قدراً عظيماً من النقاء والطهارة سيجعل اليهود يخجلون من أنفسهم ويدركون أن ما يؤمن به الإنكليز هو التجسيد الفعلي لليهودية».

وعندما وصل منسى بن إسرائيل إلى أورشليم الإنكليزية في خريف ١٦٥٥ أقيمت له الاحتفالات والمهرجانات في شوارع لندن وكنائسها ومحافلها السياسية. وبعد أن تدارس مع كرومويل مشروع تجميع يهود العالم في فلسطين أطلعه على رسالة مؤثرة حملها من حاخام القدس ناتان شابيرا يشرح لكرومويل فيها ما يلاقيه يهود القدس من عذاب واضطهاد. وقبل أن يغادر بن إسرائيل لندن كانت حملة التبرعات ليهود القدس قد فاقت كل التوقعات، لا سيما أن «فيلسوف الثورة البيوريتانية» دوري هيأ لرسالة حاخام القدس بنشر كتاب عن «**الحال الراهنة للشعب**

اليهودي في أوروپا ويهودا» *An Information Concerning ... the Present State of the Jewish Nation in Europe and Judea*. ثم توجه بن إسرائيل إلى أكسفورد فكامبردج حيث لقي فيهما ما لقي في لندن من حفاوة وتكريم. كان هناك اجماع إنكليزي ــ والكلام لپوپكين ــ على أن «المسيح» حل في الحاخام بن إسرائيل وأن دخوله لندن وركوبه الحمار في بريستول يعيد إلى الأذهان دخول السيد المسيح إلى أورشليم ومعه الحواريون ينشدون نشيد المجد «أوصَنّا» Hosanna ويتوّجونه ملكاً على اليهود.

عندما حوكم جيمس نايلر James Nayler أحد زعماء الكويكرز أمام البرلمان الانكليزي بتهمة التجديف والهرطقة بسبب قوله: «إن المسيح حل في الحاخام... إلخ» كان كروموِيل أبرز محاميه. وكروموِيل هو الذي قاد الثورة الپيوريتانية المظفرة التي انتهت بإعدام الملك شارلز في ١٦٤٩. وقد رأى الإنكليز في إعدام الملك شارلز إحدى علامات نهايات الزمان، ذلك أن مصرعه أرسى قواعد المملكة الإنكليزية الطاهرة التي سيحكمها القديسون، وعلى رأسهم أوليڤر كروموِيل الذي خلع عليه الحاخام بن إسرائيل وسام المسيا. ويقول لورنس إبستين Lawrence J. Epstein في «**نداء صهيون**» *Zion's Call* إن كثيراً من أهل لندن كانوا يشيعون أن كروموِيل يهودي وأنه سيبيع اليهود كاتدرائية القديس بولص Saint Paul's Cathedral.

لكن ١٦٥٦ مرت كغيرها من مواعيد نهاية الزمان السابقة. ما نزل من السماء سوى الخيبة، ولا صعد إلى السماء إلا المكابرة. أما لماذا تلكأ الرب؟ فتلك مسألة عويصة اخترع لها المستعجلون آلاف الأعذار. فلم تمض تسع سنوات على تداعي الأسطورة حتى

انتصبت فوق قبرها الفارغ مثل أبي الهول. لقد خسرت «نهايةُ الزمان» الإنكليزية معركة واحدة، لكنها لم تخسر الحرب. وها إن «شعب الله المختار» على طرفي المحيط يجدْول حسابات القيامة من جديد ويذبح «التركي» في عيد الشكر.

بعد تسع سنوات من «نهاية الزمان» المؤجلة تشكلت حكومة الثوار البيوريتان وانتشر الطاعون في شعب الله الإنكليزي وأكلت الحرائق عشرات آلاف البيوت في لندن وصار لا بد من «ميثوس» مخلص. وفجأة انتشرت في لندن شائعة ظهور المسيا في القسطنطينية متجسداً في حاخامها الأكبر سابتاي (شابتاي) تزفي Sabbatai Zevi وهذا ما أحيا الأمل في قرب انهيار العالم الإسلامي وألهب الهلوسات القيامية وأعطى للطاعون والحرائق وجثث شعب الألغونكين الذي كان يباد في تلك السنة معنى نبوياً. لقد كانوا ينتظرونه على نار الصبر في ١٦٥٦ فتلكأ وخذلهم. لكنه يمهل ولا يهمل، وها هو الآن قادم من القسطنطينية وتحت لسانه «نهاية الزمان». وها هي وحدة الشعبين المختارين تتجذر في السماء والأرض، ولم يبق إلا أن ترتفع أمواج الدم إلى لجم الخيل من «عاهرة بابل» إلى شواطىء كنعان. أما بطرس سراريوس Petrus Serrarius الذي قاد حركة الساباتيين، فكتب كراساً عن الآيات والعجائب التي واكبت ظهور المسيا وعن تلك السفينة التي أبحرت من مرفأ أبردين [إلى فلسطين] بأشرعة بيضاء وزرقاء من حرير ترفرف فوق صواريها رايات منقوشة بلغة مملكة الله العبرية. ثم إنه ــ كما يقول پويكين في «**المسيحيين اليهود واليهود المسيحيين**» وفي «**الجذور المسيحية للصهيونية**» ــ أضرم المشاعر وأجج الحماسات بحديثه عن ظهور القبائل اليهودية المفقودة التي بدأت بمحاصرة مكة.

كان شعب الله الإنكليزي في هذا الكارنڤال القيامي، كارنڤال الفرح والنار والطاعون، ينتظر المسيا سابتاي تزڤي ليقود سراياه وسرايا يهود العالم إلى آخر جثة في أرض كنعان. لكن المسيا الذي يحب المطل والدلال منذ أن ولد في ذهنية الإحباط الأرضي والانتقام السماوي خيب الآمال ولم يترك لأهل لندن إلا النار والطاعون وأشباح نهاية الزمان. ومع ذلك ظلت ألسنة الإنكليز تتطاير بالنبوات كالفراش المبثوث، بعضهم يذكّر بما قاله بن إسرائيل عن «المسيا المزدوج»، وبعضهم يعتذر على لسان «فيلسوف الثورة» دوري بأن سابتاي ليس إلا ملك اليهود في تركيا وحدها. لكنهم جميعاً ـ والكلام لپوپكين نقلاً عن غيرشوم شوليم Gershom Scholem كاتب سيرة «حياة سابتاي تزڤي» ـ أصيبوا بالخيبة والانكسار وتحولت أعراسهم إلى مآتم وأتراح عندما تبين لهم أن المسيا الموعود موحّد الإنكليز واليهود أعلن إسلامه ومضى حاجاً إلى مكة. أما المؤرخون اليهود فلهم قصة مختلفة عن المسيا فمنهم من يقول إنه كان مختلاً وأنه كان يوقع رسائله «أنا ربكم الله سابتاي تزيي»، ومنهم من يؤكد أنه حوكم بحضور السلطان وخيّر بين الإسلام وبين الموت مما اضطره إلى إعلان إسلامه.

مع انتصار الثورة الپيوريتانية على طرفي المحيط بكل ما يعنيه امتثالها للأخلاق العبرانية وعدم تمييزها بين الله والتراب، تزعم الإنكليز في جزيرتهم وفي مستعمراتهم الأميركية مهمة الاستيلاء على فلسطين وتجميع اليهود فيها، مرة على شكل رمزي إسقاطي في العالم الجديد، ثم على شكل استراتيجية واقعية كاملة طويلة الأمد للاستيلاء على الأراضي المقدسة وكسر نواة المقاومة الصلبة لهذا المشروع بدءاً من القسطنطينية وانتهاء بمكة. كان شعب الله الإنكليزي في هذه الفترة أكثر واقعية وصلابة وقوة من «شعب الله

الاسرائيلي»، فقد جعلته تجربته في العالم الجديد أكثر ثقة واطمئناناً إلى واقعية مبدأ «استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة». ومع انتصار الثورة البيوريتانية ــ كما يقول لورنس ابستين في **نداء صهيون** ــ أقام الإنكليز واليهود حلفاً مقدساً، وأنشأوا حركة ملموسة تستعجل ظهور المسيا بتوطين اليهود في بلادهم القديمة. وراح رئيس الحكومة البريطانية شخصياً يقضي ويمضي باسم اليهود:

> An Alliance was forged between English Christians and Jews. A movement to hasten the Messiah through eventual restoration of the Jews to their ancient homeland had in a fumbling way begun, and the British head of Government had personally acted on behalf of the Jews.

في هذه السنوات التي شهدت أعلى موجات «الخروج» من أرض مصر الإنكليزية إلى أرض كنعان الأميركية كان هناك نوع من الداروينية التطورية في وعي «شعب الله» على طرفي المحيط لأرض كنعان، وكانت عقيدة الاختيار الإلهي والأسس العبرانية للهوية الإنكليزية تتبلور وتترسب في كل الطبقات الجيولوجية لجزيرة الدم الأزرق: في سياسات سيد البلاط أوليڤر كرومويل «حامي الحمى البريطاني»، وفي الخطط العسكرية لقائد قوات الثورة اللورد فيرفاكس، وفي كتابات فلاسفة وأنبياء الثورة البيوريتانية مثل هنري جيسي Henry Jessey ومعه الترويكا القيامية: دوري /هرتليب/ كومينوس، وفي أعمال نخبة العقول الإنكليزية وفي مقدمتهم صاحب نظرية الجاذبية إسحق نيوتن Sir Isaac Newton الذي وضع نظريته القيامية في كتاب مستقل بعنوان: «**ملاحظات عن**

نبوات دانيال وقيامة القديس يوحنا» *Observations upon the Prophecies of Daniel, and the Apocalypse of St. John.* وترك للمؤمنين تراثاً قيامياً أكبر من تراثه العلمي كما يقول جامع هذا التراث هنري مكلاكلان Henry McLachlan في كتابه **«مخطوطات السير إسحق نيوتن اللاهوتية»** *Sir Isaac Newton's Theological Manuscripts*.

كان نيوتن مسحوراً بـ «التجربة اليهودية» وبمفهوم الألوهة العبراني الذي سال في عروق نزعته التوحيدية وأعماله الميتافيزيائية بما في ذلك فهمه لطبيعة السيد المسيح بل وفهمه للطبيعة نفسها. وكان في النهاية إنكليزياً يهودي المشرب يهجس في الشكل والحجم الحقيقي لمعبد سليمان لأنه يعتقد أن هذا المعبد صورة مصغرة عن أورشليم السماوية وأنه الهيئة التي ستكون عليها صورة العالم بعد النزول. هذا ما يرويه عنه ريتشارد وستفول Richard Westfall كاتب سيرته الذاتية: *Never at Rest, A Biography of Sir Isaac Newton*. ويروي أيضاً أن نيوتن كان يعتبر القياس بالذراع مقدساً لأنه قياس معبد سليمان، وأنه قرأ سفر حزقيال بالعبرية لكي يتمكن من أن يرسم مخططاً دقيقاً للمعبد، كما كتب أطروحة خاصة عن «قدسية الذراع اليهودي» يبدأ عنوانها الملحمي الطويل بهذه الجملة *A Dissertation upon the Sacred Cubit of the Jews...*، ووضع دراسات مفصلة لبناء المعبد في مكان المسجد الأقصى. وهناك محادثة طريفة حول هذا المعبد دارت بين نيوتن وبين معاصره الطبيب وعالم الآثار وليم ستكلي William Stukeley قبيل موت نيوتن بسنتين، رواها ستكلي في **«ذكرياته عن حياة نيوتن»** *Memoirs of Sir Isaac Newtonís Life* فقال:

خلال زيارتي له في عيد ميلاد ١٧٢٥، تحدثنا عن

> معبد سليمان. وهذه مسألة كنت قد أوليتها عناية خاصة في دراساتي، وأعددت لها رسوماً كثيرة قدمتها لمولاي اللورد [توماس] پمبروك Pembroke وغيره. وقد وجدتُ أن السير إسحق أعد للمعبد بعض الرسوم، وأنه تفكر كثيراً في المسألة وأحاط بكل جوانبها. ثم إننا اتفقنا معاً على أن هندسة معبد سليمان لا تشبهها أية هندسة معروفة، وليس لها ما يشبهها بين المعابد القديمة لأنه أقدم كل المعابد المذكورة في التاريخ، بل كان المثال الذي احتذته كل المعابد. فمنه استعار المصريون واليونان أشكال معابدهم...

ويقول پوپكين في «**الجذور المسيحية للصهيونية**» إن نيوتن أسس مدرسة قيامية دشنها وليم وستون William Whiston الذي خلفه على كرسي الرياضيات في كامبردج، وجون تولاند John Toland الذي طالب بتأسيس دولة يهودية «يجب أن تكون أقوى دولة في العالم»، وداڤيد هارتلي David Hartley أحد مؤسسي علم النفس الحديث الذي ختم بحثه العلمي بفصل عن توطين اليهود في فلسطين وبشرنا في كتابه «**ملاحظات على الإنسان**» Observations on Man بأنه لن تكون هناك سعادة حقيقية خالصة ولن تنزل أورشليم السماوية ولن تقوم مملكة الله إلا بعد دمار فلسطين وبابل وأهلهما بالنار.

وفي ظلال تفاحة نيوتن اكتشف جون هتشنسون John Hutchinson القوانين العبرانية للجاذبية واتهم نيوتن «بالشعوذة التي ما أوقعه فيها إلا جهله بلغة الله المقدسة». كان هتشنسون

صديقاً حميماً لجون وودورد John Woodward الذي أفنى طاقات عقله في المصالحة بين مكتشفات الجيولوجيا «الحديثة» وبين جيولوجيا العهد القديم. وهكذا استعان به هتشنسون ليجمع له عاديات ورمماً وآثاراً تؤكد الجوهر العبراني لنظرية الجاذبية وغيرها من فروع مذهبه العلمي. ولما علم الدوق الذي كانا يعملان عنده بمقاصدهما النبيلة أغدق عليهما العطايا وأكرم كل واحد منهما ببيت وخلع عليهما ما يلزمهما لتأصيل النظرية العبرانية للجاذبية ونشرها، كما تكرم على هتشنسون بمساعدَين صارا من أخلص مريديه ومروجي أفكاره هما روبرت سپيرمان Robert Spearman وجوليوس بايت Julius Bate. ويقول دايڤيد كاتز David Katz (من مدرسة پويكين) في دراسته عن «**هتشنسون والأصولية العبرانية**» The Hutchinsonian and Hebraic Fundamentalism إن لهذين المريدَيْن الفضلَ في وضع الأصولية العبرانية في العالم الإنكليزي، وأنهما هما اللذان حررا أعمال هتشنسون وسترا عيوب أسلوبه الركيك ومعرفته السطحية بالعبرية، الأمر الذي فضح كل ادعاءاته عندما أراد التطاول على نيوتن.

وعلى هذه الأثافي الثلاث ــ هتشنسون، سبيرمان، بايت ــ طُبخت العبرانية الهتشنسونية وأرسيت أصولية التعصب الإنكليزي للغة العبرية المقدسة التي وضع الله أصولها وقواعدها بنفسه. وانطلاقاً من هذا التقديس أراد هتشنسون من الإنكليز أن يتعلموا العبرية القديمة لأن الإنكليزية عاجزة عن نقل لغة الله ولا تملك إشعاع العبرية وإيحاءاتها وسموّها وقداستها كما أوضح سپيرمان في كتابه الشهير «**شذرات من أعمال جون هتشنسون**» *An Abstract from the Works of John Hutchinson*، وهو الكتاب الذي ذكر فيه «أن اليهود هم الذين صنعوا ذلك الدجال الشنيع

محمد» set up that outrageous imposter Mohamet، وكما فصل ذلك هتشنسون نفسه في كتابه «**المبادىء الموسوية**» Moses's Principia الذي تنطح به لمعارضة كتاب نيوتن «**المبادىء الرياضية**» Principia Mathematica. وفي هذا الكتاب وكتاب «**الجاذبية الأمجد**» Gloryor Gravity أرسى هتشنسون وأتباعه أسس نظرية الجاذبية العبرانية حيث نسبوا لنيوتن الجهل والتخريف وادعوا فيهما بأن جهالة نيوتن باللغة العبرية أودت به إلى الزيغ والضلال والقول بما لا يقال. فلو أنه عرف أن جذر كلمة «الثقل» وجذر كلمة «المجد» واحد في العبرية لقال بنظرية «جاذبية مجد الله» العبرانية وعدل عن تجديفه وادعاءاته الإلحادية.

و«العلم الضحل أخطر من الجهل» كما رد فطاحل العبرية من تلاميذ نيوتن الذين ضحكوا من فهم هتشنسون السطحي للغة الله المقدسة. وكان بنجامين كينكوت Benjamin Kennicott أستاذ العبرية في أكسفورد على رأس هؤلاء الأحبار الذين كشفوا جهالة هتشنسون بالعبرية وفندوا كل ادعاءاته ومزاعمه واتهاماته لنيوتن «الذي لا يعتمد في حبه للعبرانيين على الجهل والخرافات». لكن رد النيوتونيين ضاع سدى ذلك لأن أكسفورد تبنّت الهتشنسونية بحماسة واعتبرتها لاهوتاً علمياً يدرأ خطر العلم الملحد، ولأن هذه المدرسة اتسعت وعبرت المحيط إلى إنكليز العالم الجديد لتضم بين «أعلامها» عدداً كبيراً من اللاهوتيين والسياسيين والمشتغلين بالفلسفة وأساتذة الكليات والجامعات حيث صارت النهج المعتمد في التفسير في كلية كنغ بنيويورك، وهي التي صار اسمها بعد الثورة جامعة كولومبيا. ولعل أشهر أعلامها الشاعر كولردج Samuel Taylor Coleridge الذي عبر عن احترامه الكبير للهتشنسونية وتبنيه لأفكارها في «**مذكراته**» The Notebooks. بل إنه تبنى

تفسيرهم لخرافة بلبلة الألسنة في «بابل» وكل ما ترتب على ذلك من أفكار قيامية تؤكد على حتمية قصفها الجهنمي من السماء قبل تشييع نعش الوجود.

أما هنري جيسي فكان من مفلسفي العبرانية الإنكليزية المختارة داخل بلاط كرومويل «حامي حمى عموم إنكلترا». ويعتبر كتابه **«مجد يهودا وإسرائيل وخلاصهما»** *The Glory and Salvation of Jehudah and Israel* تأسيساً سياسياً لفكرة «استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة»، وهو الكتاب التي ترجم إلى كل لغات العالم البروتستانتي وكان ترياق المستعمرين الإنكليز في أرض كنعان الجديدة ورفيق بنادقهم، كما ترجم إلى العبرية وانتشر بين اليهود في مختلف بقاع الأرض حتى إن الحاخام منسى بن إسرائيل استشهد به في رسالته التاريخية لـ«حامي الحمى البريطاني» أوليڤر كرومويل. ويروي إدوارد وستون Edward Whiston كاتب سيرة حياته *Life and Death of Mr. Henry Jessey* قصص المعجزات التي اجترحتها أفكار جيسي في بريطانيا ومستعمراتها الأميركية، وكيف أنه وضع الأسس التطبيقية للعقيدة القيامية، وبنى نظريته في المستقبل المجيد لليهود [الإنكليز]»، وكيف كان يطرب وينتشي كلما ناداه أصحابه باسم «جيسي اليهودي». ويقول ڤاندر وال E.G.E. Van der Wall من جامعة لايدن في رسالته عن جيسي بعنوان **«ألفيّون ويهود»** Millenarians and Jews إن جيسي الذي ترجم الكتاب المقدس ترجمة طغت على نسخة الملك جيمس كان يتقن العبرية كما يتقن الإنكليزية، وأن النسخة العبرية من الكتاب المقدس لم تفارق يديه وقلبه (وهذا ما افتخر به الرئيس كلينتون ونائبه آل غور كما أعلن عن ذلك غور نفسه في مهرجان الإيباك هذا العام)، وكان يستخدم تقويم العبرانيين وأسماء شهورهم في

حولياته ومراسلاته الخاصة والرسمية، وأقام بعض الطقوس والشعائر اليهودية، وحافظ على السبت حرفياً وفقاً للمتشددين اليهود الذين يبدأ سبتُهم مساء الجمعة.

ويسهب فاندر وال في وصف جهاد جيسي داخل بلاط كرومويل من أجل السماح بهجرة اليهود إلى بريطانيا وأعماله الخيرية في سبيل إنقاذ المدينة المقدسة ويهودها من العذاب. ويقول : إنه رفع لواء الحملة الإنكليزية الألمانية المشتركة لجمع التبرعات ليهود القدس، وإنه كان على اتصال مباشر مع حاخامها الأكبر ناتان شابيرا الذي رسم له صورة تعصر القلب عن حياة وآلام يهود القدس لينقلها إلى سيد البلاط وذوي الحل والعقد.

وعلى غرار معظم فلاسفة «العبرانية الإنكليزية» كان جيسي يعبىء الجزيرة وخراجها الكنعاني ليوم الانتقام القريب ويعدهما لقيامة آتية لا ريب فيها. كان يعتقد بأن على شعب الله الإنكليزي أن يستعجل «التدبير الإلهي» بتجميع يهود العالم في فلسطين، لأن ذلك سر القيامة وباب «نهاية الزمان». ولقد أهدى كتابه إلى «عترة بني إسرائيل التي سينقذها المسيح من كل الذين ظلموها، وإلى كل الذين ينتظرون خلاص إسرائيل ويهودا».

ومنذ البداية اعترف جيسى بأن لقاءه بالحاخام منسى بن إسرائيل وقراءة أعماله أثارت فيه الحماسة لتأليف كتابه عن مجد إسرائيل ويهودا وخلاصهما»، وأنه ما كان ليفعل ذلك لولا أن روحه معلقة منذ عشرين سنة في أجواء نزول أورشليم السماوية وأن حلمه وحلم الشعب الانكليزي أن «يعود» يهود العالم إلى فلسطين مرفوعي الهامات مكللين بالمجد والتكريم حيث سيزحفون للانتقام

من كل أعدائهم. يومها [ستتحقق فكرة أميركا في كنعان القديمة على الحقيقة كما تحققت في كنعان الجديدة بالإسقاط والتعويض فيُستبدل شعب بشعب وثقافة بثقافة] «ويقيم الرب عظام اليهود من قبورها لتشهد وتشمت بالأمم التي سيهلكها الرب»، ويومها، (والكلام لصاحب الفلسفة التي صاغت فكرة أميركا) «سيحطمهم أبشع تحطيم ويسوقهم للذبح، فقتلاهم تتساقط، وجيفهم تصعد نتانتها، وتسيل الجبال بدمائهم. إنه يوم انتقام الرب لبني إسرائيل. يومها تتحول الأنهار زفتاً والتراب كبريتاً، وتصير الأرض زفتاً مشتعلاً لا تنطفىء لا ليلاً ولا نهاراً، بل يصعد دخانها إلى الأبد».

ويستعرض جيسي عدداً من العلامات التي ستسبق «نهاية الزمان»، ومنها «تجميع اليهود في فلسطين، وسيادتهم على أمم الأرض، وتدميرهم كل أعدائهم الذين ظلموهم وفي مقدمتهم أهل «بابل التي ستسقى من خمر غضب الرب». ثم إن أسباط إسرائيل سينعمون بأورشليم السماوية، وسيجعل لهم الرب سلطانا [مستشهداً بالرؤيا] على كل الأمم، وسيعطى كل سبط منهم كوكب الصبح، ويجعلهم أعمدة هيكل الله. ثم إنهم سيجلسون مع المسيا على عرش الله ويصبح الرب واحداً من بني إسرائيل».

ثم يختم جيسي مجزرته المقدسة مطمئناً اليهود باسم بلاط حامي حمى عموم الإنكليز إلى قرب الخلاص والانتقام:

> والآن، أيها اليهود الأحبة، أدعو الله أن يجعلني ممن يحترمونكم ويجلونكم باللسان والقلم ... إنني مؤمن مثلكم بكل كتبكم. لهذا أسألكم أيتها الأمة العظيمة أن تثقوا بأن ... الرب سيتمجد عندما ينقذكم من كل

أعدائكم وينتقم لكم ويبني لكم صهيون ويجعل أورشليم
مجد الأرض. وحتى يحقق الرب أمانيكم ثقوا بأن كل
إنكلترا معكم وقد نذرت نفسها لكي تتحقق أمانيكم.

(وهذا ما قاله الرئيس كلينتون مراراً وردده نائبه آل غور بالحرف، راجع شهادته في باب Testimonies، ص ٢٥٩ **جسور** ٩/١٠).

منذ ١٥٨٨ ونار «خلاص اليهود وانتقامهم من أعدائهم» تضرم المشاعر القيامية الإنكليزية وتدفع إلى المزيد من التلاحم بين الشعبين المختارين. في تلك السنة نشر إدموند بَني Edmund Bunny مشروع «تتويج داود» *Coronation of David* الذي رسم فيه للإنكليز خطة تجميع اليهود في فلسطين، ثم تبعه توماس درايكس Thomas Draxe بعد أقل من عقدين بخطة الانتقام في كتابه «**بعث العالم**» *The World Resurrection* دعا فيه البريطانيين إلى تعبئة كل جهودهم لـ«استعادة فلسطين»، وجدد دعوة جوانا كارترايت Johanna Cartwright وابنها إبنيزر Ebenezer التي وجهاها إلى لورد فيرفاكس رئيس أركان جيش الثورة يقولان له فيها إن الأمة الإنكليزية يجب أن تكون أولى الأمم وأكثرها استعداداً لنقل بني إسرائيل في السفن الإنكليزية إلى الأرض التي وعد أجدادهم بأن يملكوها إلى الأبد. ثم نشر هنري فينش Henry Finche المستشار القانوني للملك جيمس الأول وأحد أكبر المتنفذين في بلاطه أول مشروع إنكليزي رسمي معروف لاحتلال فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها بعنوان *The World Great Restauration, or Calling of the Jews* أكد فيه على حق اليهود المطلق في السيادة على الأراضي المقدسة، ودعا القوى الأوروبية العظمى لبذل الغالي والرخيص في سبيل ذلك الهدف النبيل، بل

إنه طالب كل أمراء [أوروبا] المسيحية بأن يتنازلوا عن إماراتهم ويبايعوا الإمبراطورية اليهودية السامية!. وعندما قرأ الملك جيمس «هذا الشطط» الذي لا يطيقه قيصر ولا يجيزه سلطان غضب عليه وسجنه بتهمة الخيانة، لكنه سرعان ما عفا عنه وأكرم مثواه بمجرد أن حذف هذه الجملة الفظة من كتابه الذي ظل يلهب المشاعر ويُدَرّس مع كتبه القانونية فترة طويلة بعد موته.

ذات يوم وقف محمد علي باشا على باب نهاية الزمان، وكان من حيث يدري ولا يدري يملأ القبر الفارغ. فعندما اشتعلت ثورته في مصر وأرسل حملته إلى سورية أدرك الإنكليز أن جسر القيامة امتد من نكن شتنكه إلى القدس، وأن فن النفاق البريطاني سيحقق ما عجزت عن تحقيقه الأساطيل والجيوش. فالصداقة الإنكليزية ــ العربية تفتح ما استعصى على «قلب الأسد» وتستطيع أن تستولد ثورة مصر الفتية كل علامات القيامة من بابل التي «ستمحى من وجه الأرض» إلى أورشليم السماوية التي ستدفن القدس في باطن الأرض. إنها ستعوّضهم عن خسارة «كنعان الأميركية» المزورة التي سرقها منهم أبناؤهم الجاحدون العصاة بكنعان الفلسطينية؛ كنعان اللحم والدم. كان الإنكليز في هذه الفترة يعرفون أن السيطرة على مصر تعني السيطرة على ما يسمونه بالشرق الأوسط، وتعني إحياء عيد الشكر بتركي مكسور الجناحين. وفي هذه الحقيقة الجيوقيامية سيحقق شعب الله الإنكليزي بسيطرته على الأراضي المقدسة كثيراً من المصالح السياسية والتطلعات القيامية. لقد وجدت نهاية الزمان متنفساً انكليزياً واقعياً سمته «المسألة العثمانية» فلبست جلباب ملك الموت ووقفت على فراش «الرجل المريض». بذلك صار تجميع اليهود في فلسطين أمراً براغماتياً حيوياً لحماية المصالح الإنكليزية وتجارة رابحة في الأرض وفي السماء.

وعلى الخريطة ما بين سلطان القسطنطينية ومحمد علي باشا في مصر كان لا بد من «طريق دمشق». وفي تلك الفترة التي انهمك فيها الرئيس الأميركي هنري جاكسون في صيد شعب الشيروكي والإنهاء على ما تبقى من شعوب شمال القارة الأميركية، من شواطىء الأطلسي حتى نهر الميسيسيبي، كانت سورية تضم فلسطين ولبنان والأردن. وكانت سيطرة أحد المتحاربين عليها ستعينه على التهام الآخر وتجعل منه قوة مهددة. وهذا ما تأباه شهامة الإنكليز وحميتهم الدائمة لمساعدة العربي المظلوم على ذبح أخيه الظالم بعد أن شجعتهم تجربتهم مع شعوب أميركا على تكرارها بين شواطىء المتوسط ونهر الفرات. ويقول إيستين في «نداء صهيون»: «إن الحل المثالي الذي كان يريده الإنكليز هو اقتطاع سورية (الكبرى) وإنشاء دولة مستقلة فيها يسيطر عليها اليهود. وهو حل لن يعارضه الأوروبيون، وسيرتاح إليه محمد علي الذي سيتمكن من التوسع جنوباً وغرباً دون منافسة عثمانية. أما الدولة العثمانية فيجري «تدبير أمرها»! وكان موسى مونتفيور Moses Montefiore قد تولى رسم خطة الإيجار اللازمة للسيطرة على سورية بدعم من اللورد أنطوني أشلي كوبر Anthony Ashly Cooper (أمير شايفتزبري Earl of Shaftesbury) وبالتعاون مع القنصل الإنكليزي في دمشق شارلز هنري تشرشل Charles Henry Churchill. ثم سافر إلى مصر في ١٨٣٨ ليدرس الخطة مع الباشا. وكان اللورد والباشا صديقين وشريكين حميمين. بل إن مونتفيور كتب في مذكراته أن محمد علي عرض عليه الولاية، وأن اللورد حين طلب من الباشا «هدية» من الأراضي يستأجرها لمدة خمسين سنة وافق الباشا بدون تردد.

ولم تمض سنة حتى طرد محمد علي من سورية وانهارت خطة

«الاستئجار». لكن حماسة شعب الله الإنكليزي إلى أرض الميعاد لا تحول ولا تزول. هكذا تولى اللورد أشلي كوبر تعديل الخطة لوزارة الخارجية ورصد علامات القيامة مستهدياً بدليل سياحي للأراضي المقدسة وضعه اللورد ليندسي Lindsay. أما الخطة فقد كتب عنها في مذكراته وقال (نقلاً عن إپستين): «..كل شيء يبدو الآن ملائماً موائماً لعودة اليهود إلى فلسطين. فما إن تقتنع القوى الغربية الخمس بضمان حياتهم وأملاكهم حتى يتدفقوا عائدين بأعداد كبيرة. ويومها سأعد لوزير الشؤون الخارجية بثقة الله ورحمته الوثائق اللازمة المعززة بكل الأدلة التي أستطيع أن أجمعها». ويقول إپستين: إن لهذه الوثيقة دلالة تاريخية خطيرة، فالبريطانيون الذين أرادوا منذ فترة طويلة التعجيل في التدبير الإلهي لبسط السيادة اليهودية على فلسطين قرروا الآن استباق هذا التدبير وقضاءه طوعاً أم كرهاً، وراحوا يعملون على جمع اليهود في فلسطين شاءوا أم أبوا. بذلك أسرع اللورد أشلي كوبر إلى وزير الخارجية بالمرستون Palmerston فتناولا غداءهما معاً يوم الأول من آب/أغسطس ١٨٣٨، ثم خرج اللورد طافحاً بالسعادة يتجشأ بأبخرة سمك دوڤر ويلهج لسانه بالثناء على الوزير بالمرستون الذي «اختاره الله ليكون خير عون لشعب الله، وألهمه أن يكرم ذريتهم ويعترف بحقوقهم. ويبدو أنه سيفعل المزيد». وبعد عشرة أيام كتب الوزير لسفيره في تركيا يقول: «إن لدى اليهود في هذه الأيام إيماناً شديداً بأن الوقت قد حان لكي يعودوا إلى فلسطين. ولا بد للسلطان من أن يشجع اليهود على العودة والاستيطان في فلسطين لأن الثروة التي سيحملونها معهم سوف تزيد موارد السلطان. ولا بد له أن يعرف أن اليهود سيكونون خير عون له في مواجهة خطط محمد علي باشا ونواياه الشريرة».

ومن دمشق تولى القنصل البريطاني تشارلز هنري تشرشل بقية المهمة حيث راح يحذر من خطر محمد علي (بعد أن كان أمل بريطانيا المنشود)، ويعرض مساعدة بريطانيا لصد هذا الخطر عن الإسلام والمسلمين. وكان يدعو علناً إلى إعادة اليهود إلى «فلسطين محررة»، بل إنه كتب رسالة إلى موسى مونتفيور ألح فيها على ضرورة تحديث الخطاب القيامي بحيث يترجم البريطانيون «البعد الديني لعودة اليهود إلى فلسطين» إلى لغة سياسية عملية ويترجمه اليهود إلى حركة «نضالية». وقال في الرسالة (نقلاً عن إيستين في «نداء صهيون»): إنني لا أخفي عنك رغبتي الجامحة في أن أرى اليهود يناضلون من أجل أن يصبحوا أمة. وإنني على يقين بأن هذا مطلب ممكن. لكنه يحتاج إلى أمرين ضروريين جداً، أولهما أن يتولى اليهود أنفسهم هذه المهمة على مستوى الأرض كلها، والثاني أن تدعم القوى الأوروبية جهدهم ومسعاهم. وكانت المفاجأة أن مجلس المندوبين اليهود الذي دعي لمناقشة الخطة رفضها نهائياً وقال بيانُه الأخير إن اليهود لا يريدون أكثر من التمتع بالحقوق المدنية في بريطانيا.

كان من الواضح أن بريطانيا «تستعمل اليهود» في استراتيجيتها الجيوقيامية، وأنها، شاءوا أم أبوا، لن تقلع عن خطتها لأن ذلك كما تقول بربارة تَكمَن Barbara Tuchman في ملحمتها عن العبرانية الإنكليزية بعنوان «توراة وسيف» *Bible and Sword*: «إنكار لإرادة الله، ولأن المناخ السياسي ما يزال يسمح بتحويل اليهود إلى عون كبير لسياسة الإمبراطورية الإنكليزية».

ومن أقصى كنعان الأسترالية كان الحاكم البريطاني جورج غولر George Gowler وأنصاره في الجيش والمؤسسات السياسية

البريطانية يعدون العدة في أربعينيات القرن التاسع عشر لإنشاء أول مستعمرة يهودية في فلسطين، وذلك في إطار خطة تقتضي في البداية إنشاء دولة يهودية محمية من الإنكليز، ثم إعلان استقلالها. وكان غولر ــ والكلام لإبستين ــ يعلن «أن الله أوكل إلى بريطانيا تنفيذ إرادته وإعادة اليهود إلى فلسطين. فالنعمة الإلهية هي التي جعلت سورية (الكبرى) تتوسط ما بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند والصين وأستراليا. وها قد تحققت كل الشروط اللازمة لتحديث وتمدين سورية بالشعب الوحيد الذي يملك الحيوية اللازمة لذلك؛ الشعب الذي يجب أن يسكن تلك البلاد ويسودها وأعني شعب إسرائيل... فاليهود هم وسيلة الله لتحقيق النبوات، وما يزال عهد الله قائماً معهم لم ينسخه أي عهد. وعليهم لهذا أن يعودوا إلى بلادهم بكل وسيلة ممكنة لأنهم من هناك سوف يحكمون كل الأمم».

في كتاب «المواجهة بين عصر العقل وعصر الرؤيا» *The Age of Reason versus the Age of Revelation* يقول بويكين إن الإنكليز كانوا أكثر حماسة من اليهود لتأسيس الدولة اليهودية في فلسطين وبناء معبد سليمان، وأن صهيونيتهم هي التي انتشلت الحركة الصهيونية من هامشيتها وجعلتها قوة عالمية. فحين بُحَّ قلم الكيميائي الإنكليزي جوزيف برستلي Joseph Priestley وهو يكتب الكتاب بعد الكتاب داعياً اليهود إلى «العودة» إلى فلسطين أجابه اليهودي الإنكليزي داڤيد ليڤي David Levi بالإجابة التي كان معظم يهود ذلك الزمان سيجيبون بها وهي أن اليهود لا يريدون العودة الآن ويفضلون انتظار المسيا وأنه حرام عليهم التنبؤ بموعد ذلك المجيء. وأضاف ليڤي أن اليهود يحرمون ترجمة نبوات التوراة إلى وقائع تاريخية وبرامج سياسية. لقد اعتبر اللاهوت

اليهودي «الشتات» إرادة الله وأن نهاية هذا الشتات لا تتحقق إلا بإرادة الله، ولا فائدة من أي جهد إنساني للتعجيل بقضاء الله.

وهنا لا بد من التمييز بين أمل اليهود في «العودة»وبين البرنامج السياسي للوصول إلى هذا الهدف. فقبل مشروع هرتزل في نهاية القرن التاسع عشر لم يعرف اليهود مشروعاً سياسياً بالمعنى الصهيوني غير تلك المشروعات التي أطلقها غير اليهود، وفي مقدمتهم الإنكليز، على طرفي المحيط. كانت هناك هجرة يهودية فردية، وكانت هناك جماعات صغيرة أقامت معابدها في القدس وصفد وطبريا، ولكنها كانت بدون طموحات سياسية ولم تحلم قط بفكرة «استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة». لقد تركت لله ما فعله الإنكليز باسم الله.

من هؤلاء الإنكليز الذين أطلقوا مشروع هرتزل نفسه وترجموا أحلامه إلى سياسة عملية وكانوا من أعظم أنصاره وجنرالاته في الوقت الذي كان كثير من اليهود ينكرونه ويحاربون دعوته رجل بيوريتاني من «يهود الروح» يدعى وليم هكلر William Hechler. في شباط/فبراير ١٨٩٦ نشر هرتزل كتابه **«الدولة اليهودية»** Judenstaat. وفي العاشر من آذار/مارس اقتحم عليه هكلر غرفته بلحيته القيامية وقال شبيك لبيك here I am. كان هكلر موظفاً في السفارة الإنكليزية في ڤيينا، وكانت حماسته للدولة اليهودية قد سبقته إلى مكتب هرتزل مع كتابه **«عودة اليهود إلى فلسطين كما بشر بها الأنبياء»** *The Restauration of the Jews to Palestine According to Prophets*، وهو كتاب كُنّاشي يستعرض فيه علامات نهاية الزمان ويستحث كل مسيحي [أوروبي] أن يصلي ويعمل في سبيل «عودة» شعب الله المختار إلى

بلاد أجداده. فالله هو الذي ميز اليهود عن باقي الأمم وهو الذي ضرب عليهم عزلة خاصة لحكمة لا يعرفها إلا هو. إن شتاتهم وعذاباتهم وخلاصهم كل ذلك يتم بتدبير إلهي يسبق «عودتهم» القريبة إلى فلسطين. وكانت حسابات هكلر القيامية قد حددت موعد نهاية الزمان في ١٨٩٧ ــ ١٨٩٨ انطلاقاً من سنة دخول عمر بن الخطاب إلى القدس وسقوطها تحت أقدام الغوغاء (غير اليهود) treading under foot of Jerusalem by the Gentiles. في ذلك اللقاء الأول عرض هكلر على نبي الصهيونية اليهودية مخطط بناء الهيكل ومجسماً حياً لهذا المخطط، كما عرض عليه خريطة اجتياح القدس والدرع الذي سيلبسه في الحرب.

وتروي الموسوعة اليهودية حكاية غرام هكلر بهرتزل الذي «مات بين يديه» بلغة عاطفية مؤثرة، فقد أفردتْ له مادة خاصة واعتبرته أحد أنبياء هرتزل واعترفت له بإخلاصه له وتفانيه في سبيل الحركة الصهيونية إلى أن مات في عام ١٩٣١. وفعلاً، كان هكلر أول من فتح عيون الزعامات الأوروبية على مشروع هرتزل، ففيما كان معلماً خاصاً لأولاد الدوق الأعظم في بادن أنشأ صداقة متينة مع ابن أخيه القيصر، ثم كتب إلى الدوق بعد لقائه بهرتزل مباشرة وأطنب في تمجيد النبوات التي ستتحقق على يديه. وقال: «إن ١٨٩٧ ــ ١٨٩٨ سنة حاسمة في تاريخ العالم ، وإن مشروع هرتزل أول محاولة جدية جداً وعملية جداً. فهي تبين لليهود كيف يتحدون من جديد ويبنون أمتهم في أرض الميعاد التي وهبها الله لهم. إن هرتزل لا يعلم ما سيحقق الله على يديه». وتروي **«يوميات»** هرتزل The Diaries (٢٦ نيسان/أبريل ١٨٩٦) كيف كان هكلر أكثر طموحاً من هرتزل، وكيف أنه ــ وهما في القطار ــ فتح له خريطة «أرض إسرائيل» المنتظرة وراح يشير إلى حدودها

من جبال الأناضول إلى قناة السويس: «تلك هي فلسطين سليمان وداود».

استطاع هكلر أن يفتح لصديقه باب الدوق الأعظم حيث عرض هرتزل خطته مؤكداً على الجدوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي ستجنيها أوروبا منها. كذلك دبر هكلر أمر لقاء هرتزل مع القيصر في القدس عام ١٨٩٨ وقال له إن من الواجب الآن أن نحصل على حقوق نبش الموقع حيث يوجد «تابوت العهد» الذي يضم أسفار موسى والألواح التي كتبها الله بيديه. أما هرتزل فحدثه عما يجب اتخاذه من إجراءات لتوفير الدعم المالي والسياسي لخطته. وشارك هكلر في المؤتمر الصهيوني الأول وكان سعيداً بالدعوة إلى بناء الدولة والمعبد من جديد، وكان في المؤتمر الثاني أكثر سعادة وهو يستمع إلى غستر Gaster حاخام لندن يصوغ الأفكار الصهيونية بلغة نسبت كل أهداف هرتزل وأحلامه إلى إرادة الله، وهي اللغة التي شاعت في الخطاب السياسي الأميركي الحديث من روزفلت إلى كلينتون.

إن هكلر ــ كما يقول بويكين ــ ليس إلا مثالاً على نجاح تلك «الصفقة» اليهودية الإنكليزية التي تبرع بها الإنكليز بخلع صاحبهم لا جزاء ولا شكوراً ومحوا كل ما ترتب على ظهوره من آثار، ورموا بستة عشر قرناً من تاريخ المسيحية في هاوية النسيان ليعيشوا على أمل مجيئه من المستقبل بصيغة جديدة مقبولة للطرفين. وقد كان لهذه الصفقة تأثير كبير على الزعامات السياسية الانكليزية، فبلفور نفسه ــ والكلام لبويكين في «الجذور المسيحية للصهيونية» ــ كان ينظر إلى الصهيونية من منظار قيامي، كما أن الانتداب على فلسطين كان يمضي في هذا السياق حتى إن الجنرال وينغايت

الذي كان ضابط استخبارات بريطانيا في فلسطين خلال الثلاثينيات أدهش كل اليهود الصهاينة بحماسته للمشروع الصهيوني. وقد أوكلت بريطانيا إلى وينغايت بناء جيش يهودي قوي في فلسطين يستطيع تحقيق الأهداف الصهيونية فيستبدل شعباً بشعب وثقافة بثقافة. وليس من باب المصادفة أن أبرز تلاميذ وينغايت هو الجنرال موشيه دايان الذي كان قائد منطقة القدس في عدوان ١٩٤٨ ووزير الحرب في عدوان ١٩٦٧ الذي احتلت به «إسرائيل» بقية القدس والمقدّس.



الفصل الخامس

العقيدة القيامية ودم الشيطان

يقول الله إنه سيأخذ بني إسرائيل من بين الوثنيين حيث تناثروا وسيرعاهم من جديد في أرض الميعاد. وهذا ما يحصل فعلاً بعد ألفي سنة. لأول مرة نرى أن كل شيء صار جاهزاً لحرب مجدو وللمجيء الثاني. كل شيء صار في مكانه الصحيح، ولن تتأخر [حرب مجدّو] كثيراً بعد الآن. إن حزقيال قال إن النار والكبريت سيمطران على أعداء شعب الله، وهذا يعني أنهم جميعاً يجب أن يُدَمّروا بالأسلحة النووية.

الرئيس الأسبق رينالد ريغان،
Santa Barbara News and Review,
Dec. 5, 1985

ظلت الرموز والاستعارات والكنايات واللغة الباطنية منذ القرن الثالث ملاذ «الرؤيا» التي أرادت «فكرة أميركا» أن تستعجل بها نهاية الزمان، وظلت قراءة أوغسطين المتعالية للنصوص القيامية تسمو بمملكة الله المنتظرة على هذا العالم حتى نظم العبرانيون الإنكليز حفلة صيد القيامة في مجاهل العالم الجديد. ويقول نورمان كهن Norman Kohn في «السعي وراء العصر الألفي»

The Pursuit of the Mellenium: إن كل قراءة حرفية لسيناريو «الرؤيا» قبل حركة الإصلاح كانت تتهم بالهرطقة والضلال، خاصة وأن تلك الظاهرية التفسيرية التي تبناها القياميون الأوربيون في قرونهم الوسطى كانت تنطوي على ألغام الحقد القومي والاجتماعي والديني والمذهبي والنفسي وتوقَد بتلك النزعة الحادة إلى العنف والتمرد وسفك الدماء. أما د.هـ. لورنس D. H. Lawrence في آخر وأروع أعماله «القيامة» Apocalypse فيعتقد أن «الرؤيا» نفسها ليست نصاً مسيحياً بل إنها مثل كثير من نصوص العهد القديم تنتمي إلى تراث الحقد على حضارات العالم القديم، وهو الحقد الذي رفضه السيد المسيح وواجهه بعقيدة الحب: «أحبب عدوك» و«أحبب جارك حبك لنفسك» وتجسد في أسمى معانيه في مسيحيي الشرق العربي.

منذ بداية عصر الإصلاح حتى هذه اللحظة والإنكليز يؤسسون «ميتافيزيقا أخلاقهم المكابية» انطلاقاً من «العقيدة الألفية» وسيناريو «الرؤيا» لنهاية الزمان، ويزعمون أنهم يحققون نبوءاتها ويستعجلون التدبير الإلهي لمملكة الله كما تقول كاثرين فيرث .Katherine R Firth في كتابها «التقليد القيامي في حركة الإصلاح...» *The Apocalyptic Tradition in Reformation 1530- 1645*. وفعلاً فقد أسقط الإنكليز على طرفي المحيط هذا السيناريو على كل بركان وزلزال وعاصفة وحرب وثورة ودم كنعاني، وراحت نبوءاتهم تنتشر مثل الغازات السامة في رئة التاريخ البشري. وكان جوزيف ميد فيما أعلم أول من وضع النظرية الجيوقيامية الإنكليزية انطلاقاً من خرائط «الرؤيا» حيث رأى بعين السماء علامات نهاية الزمان في حرب الثلاثين عاماً بين البروتستانت والكاثوليك، وفي الحروب مع العالم الإسلامي، وفي تأسيس إسرائيل الله [في العالم

الجديد]، وفي زيادة المعارف والعلوم وغير ذلك مما صار وقوداً للثورة البيوريتانية ومعيناً من الإشارات الإلهية التي ألهمت عدداً من تلاميذ ميد وفتحت أعينهم على أسرار التدبير الإلهي. كان ميد أستاذاً لألمع نجوم البيوريتانية في عصره مثل جون ميلتون John Milton صاحب «الفردوس المفقود» *The Pardise Lost*، وهنري مور Henry More الشاعر الأفلاطوني المتفلسف، وإسحق بارو Isaac Barrow الفيلسوف الطبيعي الذي تتلمذ نيوتن على يديه ثم خلفه على كرسي الرياضيات في كامبردج. ويروي كريستوفر هيل Christopher Hill في كتابه «الدجال في إنكلترا ...» *Antichrist in Seveteenth Century Englnd* كيف أن أفكار ميد رسمت صورة واضحة لوجه القدر المقبل يوم كان كثير من زعماء البيوريتانية يعتقدون بأن سفينة التاريخ البشري تطوي أشرعتها أمام شواطيء كنعان، ويبشرون بنهاية الزمان القريبة، ويعلنون عن تلك الآيات والنذر التي ستسبقها وتدل عليها كتجميع اليهود في فلسطين وسقوط دولة الإسلام (الترك) والزيادة المقلقة في المعارف العلمية التي حذر منها أنبياؤهم...

أما فلاسفة الثورة البيوريتانية فوجدوا في زيادة المعارف وسيلة لفهم التدبير الإلهي للطبيعة والتاريخ كما فصلت ذلك النصوص القيامية. وكان معظم هؤلاء الاستراتيجيين الكونيين يعتقدون بأن «الفيزياءَ الحديثة» هي علمُ التدبير الإلهي الذي حدث في سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد عندما خلق الله العالم، وأنها هبة الله لقراءة العلامات والآيات المنذرة بنهاية الزمان وموت العالم الطبيعي. هكذا وجد هنري مور في «الفيزياء الحديثة» وسيلة للشهادة على دقة حسابات سفر التكوين، وخصص معظم فصول كتابه «ترياق الإلحاد» *Antidote to Atheiesm* للتدليل على مدى انسجام هذا العلم مع

فيزياء القيامة وصدق الإشارات الإلهية التي تتحدث عن «سيف ماض يخرج من فم الرب ليضرب به رقاب الأمم [غير اليهود] ويرعاهم بعصا من حديد».

تفاصيل هذه المحرقة الوجودية واستعجال مجيئها وتنظيم مواقع الشعوب في ضرامها كانت وما تزال الشغل الشاغل للعبقرية الإنكليزية على طرفي المحيط. فهذه المحرقة هي التي ستختتم التاريخ البشري بالسعادة الأبدية للشعب المختار والشقاء الأبدي لكل من عداه. وكان الفيزيائي توماس بيرنت Thomas Burnet في نظريته المقدسة للأرض *Telluris Theoria Sacra* قد رسم خريطة مفصلة لجغرافيا جهنم كانت من أخصب مصادر إلهام حفيده السير مارك سايكس Sir Mark Sykes بعد حوالى مئتي سنة. لقد شوق القارىء بدءاً من صفحة العنوان إلى «قصة هلاك أهل الأرض وكل التطورات العامة التي طرأت عليها أو التي ستطرأ عليها إلى أن يباد البشر وتنمحق الأشياء»، فسرد حكاية المحرقة الوجودية المقدسة منذ أن كانت جنيناً في مخيلة «التكوين» إلى أن شبت وشابت في مخيلة العبرانيين الإنكليز. ومنذ المقدمة أوضح بيرنت أنه سيعالج «حريق العالم» في الجزء الثالث من الكتاب حيث لا يختلف اثنان في حقيقة هذا الحريق وهوله أو في تمييزه بين أهل السعادة الأبدية وأهل الشقاء الأبدي برغم عجز العقل البشري عن إدراك حدود هذا الحريق ونهاياته أو معرفة الشرارة التي ستشعله. واقترح بيرنت على الأرض أن تحترق بالتحلل، فقد كانت المعرفة العلمية في زمانه غير قادرة على تفسير احتراق الأرض بكل ما عليها من مياه ومواد صلبة. ثم خصص ١٧٠ صفحة من كتابه لحساب موعد البشرية مع جهنم، ونصح لأصحاب القلوب الضعيفة الذين لا يطيقون مشهد تلك المحرقة الوجودية أن يكونوا

رواقيين مطمئني النفس رابطي الجأش يتعالون على ضعف قلوبهم ويستهترون بكل ما ستراه أعينهم من ويلات إذا كانت مملكة الله مبتغاهم وأسمى أمانيهم. لقد صاغ بيرنت «النصوص القيامية» في نظرية «الأرض المقدسة» صياغة متبلة بكثير من الاصطلاحات العلمية الشائعة في عصره، ولم يجد صعوبة في تحويل «الخوارق» إلى قوانين طبيعية أو إشعال المحرقة بحطب نظرية الجاذبية لكي «تستهلك النار أجساد البشر قطعة قطعة ويعلك الدمار لحم العالم ثم يلقى بهم جميعاً في العماء الناري». لكن بيرنت يطمئن القارىء إلى النهاية السعيدة لهذه الكوميديا الإلهية حين ستنزل أورشليم من السماء وتقوم مملكة الله فوق رماد العالم المحترق...

كذلك أطلق القيامي وليم وستون «نظرية [قيامة] جديدة للأرض» *A New Theory of the Earth* برهن بها على التطابق بين العالم الذي خلقه العبرانيون وبين مبادىء نيوتن، وأن العالم سيبقى يعمل بهذه النيوتونية العبرانية إلى أن يحترق بالنار وتتبخر البحار والأنهار وتترك الأرض منزلها من هذا العالم. وعلى غرار بيرنت، دعا وستون قراء كتابه إلى تجاوز الصورة المرعبة لهذه النهاية المأساوية للعالم والتطلع بفرح إلى «مملكة الله» ونزول أورشليم السماوية. وقد سر نيوتن بنجابة صديقه ومريده وستون وأعجب بتفسير الدراما الكونية على ضوء فيزيائه «فرشحه خلفاً» له على كرسي الرياضيات في كامبردج. وإلى أن طرد من منصبه بسبب تبنيه مفهوم الألوهة العبراني وتفضيله على مفهوم الألوهة المسيحي، ظل وستون على كرسي نيوتن ينفخ في صور النهايات. خلال ذلك كان ينشر الكتاب بعد الكتاب في «الفيزياء القيامية»، ويلقي الكثير من المحاضرات عن حقيقة نبوءات نهاية العالم مؤكدا أن العلم حين

يستضيء بنور العبرانيين يستطيع أن يبرهن على صدق تحقق كل ما لم يتحقق من النبوءات.

لكن الغلو في التنظير القيامي العلمي أدى إلى ظهور حركة نقد أوروبية واسعة تزعمها بيار بايل Pierre Bayle وڤولتير Voltaire ودايڤيد هيوم David Hume وإدوارد غيبون Edward Gibbon وغيرهم من تيار التاريخ الفلسفي. ثم ذهب بعضهم بعيداً في نقد نصوص العهد القديم وشخصياته الذين وصفهم بايل بأنهم «يجسدون سوء الطوية والنوازع الخبيثة في الإنسان» بينما لم يكتف ڤولتير بنقد النصوص والشخصيات بل عمم ذلك على العبرانيين القدامى وعلى كتبهم المقدسة التي «كانت آفة خبيثة سممت الإنسانية على مدى آلاف السنين». أما هيوم في «التاريخ الطبيعي للدين» *Natural History of Religion* فأكد على أن «نصوص العبرانيين المقدسة كتبها قوم أجلاف جهلة وأن نبوءاتهم ليست إلا تجديفاً وكذباً فظاً». ويصف برنارد شو «الرؤيا» بعد أكثر من مئتي سنة بأنها «سجل بذيء لرؤى مدمن على المخدرات»: a curious record of the visions of a drug addict.

كل حركة التنوير رفضت سيناريو العبرانيين الإنكليز للقيامة المقبلة باستثناء بعض «المتنورين» الپيوريتان مثل داڤيد هارتلي وجوزيف برستلي اللذين وضعا أساس «علم الطبيعة القيامي». وكان هارتلي قد مد رقعة النظرية النيوتونية لتشمل العقل البشري، وطور من ذلك نظرية آلية في ما يسمى بعلم النفس جسدها في كتابه «ملاحظات على الإنسان» حيث حدد أقصى السعادة بدمار بابل وفلسطين بالنار قبل نزول أورشليم من السماء، وحيث قال إن

تجميع يهود العالم في فلسطين من أهم أسباب هذه السعادة. أما برستلي فأسهب في الكتابة عن صدق «النهاية الديناميكية للطبيعة والتاريخ» التي عبرت عنها النصوص القيامية. ثم إنه سافر إلى إسرائيل الجديدة فصادق الرئيس بنجامين فرانكلين وضمه إلى جنود القيامة قبل أن يعينه السيد الرئيس أستاذاً في جامعة پنسلڤانيا. وهنا على الطرف الآخر من الأطلسي شارك برستلي في تنظير «فكرة أميركا» وشاهد بعينيه الإشارات الإلهية والآيات المنذرة بنهاية الزمان: فناء كنعانيي العالم الجديد بالسيف والأوبئة، واشتعال الثورة الفرنسية، واعتقال البابا، وسقوط العديد من ملوك الأرض. بذلك أعلن برستلي في مذكراته أنه «لم يبق إلا خمسون سنة لكي يعود اليهود إلى فلسطين وتسقط أمبراطورية الإسلام وتنزل أورشليم السماوية عاصمة مملكة الله».

مع الثورة الصناعية وتطور تكنولوجيا الموت دخلت الصناعات الحربية الثقيلة عنصراً أساسياً في الفيزياء القيامية وصارت من أعظم آيات «مملكة الله»، ففي هذه المركبة الحربية ستتنزل نهاية الزمان. لقد طورت تكنولوجيا الموت لاهوتاً سياسياً عسكرياً محاذياً انتقل بالعقيدة القيامية من الهذر إلى الجد؛ من انتظار الأسطورة إلى صناعة الأسطورة، ومن «دانيال» و«حزقيال» و«الرؤيا» إلى «تِن داوننغ ستريت» والبيت الأبيض. هنا أوكل الإنكليز على طرفي المحيط لأنفسهم حق صناعة نهاية التاريخ وإعداد علامات نهاية الزمان بأيديهم.

بعد الحرب العالمية الثانية وتدمير هيروشيما وناغازاكي انضمت القوة النووية إلى المعادلة القيامية وصارت مفتاحاً لقراءة الرؤيا وفك أسرارها. وفيما كان بعض الإنسانيين يحذرون من مخاطر

تكنولوجيا الموت والسلاح النووي على مستقبل الإنسانية وجد القياميون في الولايات المتحدة أنفسهم يمتلكون الوسيلة التي تؤهلهم للتحكم بناصية المصير البشري وصناعة القيامة وتحقيق أهدافها دونما حاجة إلى عون إلهي. لقد تم احتواء الأسطورة واستباق خيالها وحصانها الخشبي إلى غار حراء. صار لسان القياميين الجدد نووياً واثقاً من قدرة رب الجنود في البيت الأبيض على أن «يسقي العاهرة بابل كأس الزؤام» وأن يخلق القيامة التي تلكأ بها رب السماء.

ويقول بويكين في «القيامة المجيدة والقيامة الفاجعة» The Triumphant Apocalypse and the Catastrophic Apocalypse: «إن النعمة الإلهية وضعت بين أيدي القياميين كل الأسلحة اللازمة لدحر قوى الشيطان والإعداد للدراما السماوية التي رسمها دانيال ويوحنا. لقد تحقق كثير منهم من أن إعلان دولة إسرائيل يعني أن عليهم وحدهم عاتق ختم قصة الحضارة الإنسانية وصناعة القيامة التي لن تنزل بدونها أورشليم السماوية ولن تقوم مملكة الله»، فلطالما كان هؤلاء القياميون يعتقدون ــ كما جاء في إعلان لهم في النيويورك تايمز ــ أن إسرائيل «مزولة زمان الله» God's time-piece.

هذه العقيدة القيامية هي التي مدت «فكرة أميركا» بأخلاقها وقيمها ومبررات استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة وهي التي بصمت بعشر أصابعها على الروح الأميركية وجعلت اللوبي اليهودي أرحم أعداء العرب في واشنطن وأقلهم خطراً وعطشاً للدم. ليست هناك جماعة بشرية على وجه الأرض مسكونة بهاجس «صناعة القيامة» التوراتية ــ مع الله وبدونه ــ كهؤلاء الزنابير WASPs

الأنكلوسكسون في أميركا وبريطانيا. إن الناس في الولايات المتحدة ــ كما يقول ريتشارد لاندِس Richard Landes مدير مركز الدراسات الألفية Center for Mellenial Studies وأستاذ تاريخ القرون الوسطى في جامعة بوسطن ــ يتحدثون عن القيامة القريبة في حياتهم اليومية بإلحاح ولهفة وشوق، ويعتقدون مخلصين بأنهم محور الدراما الكونية، فيفسرون الحوادث قيامياً، ويعيدون تفسيرها واجترارها في منشورات وكتب وأعمال سينمائية ورسوم تشكيلية وبرامج سياسية وخطط عسكرية لا ترى لها ما يشبهها في أية ثقافة أو أمة أخرى. ومن الواضح ــ كما يرى ستيفن أوليري Stephen D. O'Leary مؤلف «حِجَاج القيامة: نظرية الخطاب القيامي» *Arguing the Apocalypse, A Theory of Millennial Rhetoric* ومن مركز الدراسات الألفية أيضاً ــ أننا دخلنا المنطقة الساخنة من الزمن القيامي، وأن الآمال والتوقعات العريقة توترت وأصيبت بحمى تزداد فتكاً كلما اقترب ذلك الموعد الخطر الذي يتوقف عليه مصير جماعات هائلة من البشر. والخطر في كل هذا لا يكمن في تلك الجماعات الدينية الفانطازية المعزولة ــ والكلام لأوليري ــ بل يكمن في أن غالبية الأميركيين ومعهم كبار المسؤولين السياسيين لا يختلفون عن طائفة «بوابة السماء» Heaven's Gate [التي انتحرت جماعياً] و[ما يسمى] بجماعات الصهيونية المسيحية إلا في درجة التوتر وطريقة التعبير عن هذا التوتر. إن المركز يحذر من انتشار نزعة الافتراس الروحي spiritual predation بين الأميركيين في هذا الوقت الملغوم الذي نقترب فيه من العام ألفين. وعلينا لهذا أن ننتظر كثيراً من المفاجآت والأحداث الخطرة والبرامج المميتة. وعلينا أبداً أن لا نسرع إلى طمأنة أنفسنا بأن هذا الاعتقاد أحمق، فنحن على أبواب زمن قد تكون فيه الحماقة هي القاعدة. إن هناك في كل شريحة من شرائح

المجتمع الأميركي من يعمل على أن يذهب بهذه الظاهرة القديمة الجديدة إلى نهاياتها القصوى، وهناك من يريد أن يسفح على مذبحها في تلك الليلة المقدسة دماً «يعلو إلى لجم الخيل». وهذا ما يجعل الأنبياء القياميين في أميركا الآن أخطر بكثير من هتلر.

وبرغم أن نواة المشاعر القيامية هي نواة دينية، وأن عيونها مثبتة على القدس العتيقة حيث تظن أنها ستبلغ ذروة كمالها ونشوتها فوق جبل الزيتون وتذرف دموع الفرحة عند حائط المبكى، فإن المعاني والترجمات السياسية والعسكرية لنصوص القيامة طاغية على هذه المشاعر. إنها تضرب جذورها كما يعتقد د. هـ. لورنس في طقس العنف المكابي الذي يختفي منه كل ما يعطي المقدّس مبرره الديني من أبعاد روحية أخلاقية وشعائرية. لهذا لا ينبغي الاستهتار بخطر هذه المشاعر والاستهانة بانعكاساتها السياسية أو العسكرية، ولا ينبغي أن ننساق وراء الاعتقاد ـــ في رأي لاندس أيضاً ـــ بأن هذه الانفعالات المتفجرة هي مشاعر سطحية عابرة لمجرد أن النخبة الثقافية من أهل الحداثة وما بعد الحداثة هم غالباً من العلمانيين. فالكاتب الأكثر رواجاً في الولايات المتحدة والأشد تأثيراً في الناخب الأميركي ليس واحداً من هؤلاء النخبة أو من أساتذة الجامعات أو من العلماء الحائزين على جوائز نوبل، بل هو كاتب دجال ضحل العقل صحافي الخيال والمراجع والمعلومات والإثارة، لا يختلف في نظرته للتاريخ عن إنسان الغابات من نمط پات روبرتسون Pat Robertson وهال ليندسي Hal Lindsey اللذين يفسران رموز «الرؤيا» وقياميات دانيال وحزقيال سياسياً وعسكرياً واجتماعياً لعامة الأميركيين وخاصتهم، ويضعان لجنرالات الپنتاغون ومستشاري الأمن القومي ومخرجي أفلام العنف سيناريوهات قيامية تلقي بالعرب والمسلمين في «معصرة غضب الرب».

هذه المشاعر القيامية ليست تافهة أو جزافية إلا في رأي الدائرة الضيقة لهذه النخبة الثقافية. وهي تافهة طبعاً لدى بعض «المختصين» العرب الأميركيين المشغولين بتعليل عبقرية اللوبي اليهودي ونشوئه وتطوره من «ذل الكلاب إلى العلو في الأرض». وهي تافهة أيضاً لدى نصّابين منهمكين بتنظيم لوبي عربي «ينقلنا من السلبية إلى الإيجابية وينقذنا من هواجس عقلية المؤامرة»!

مثل هذه الطوباويات الأفيونية التي تشتري الوقت لجورج واشنطن ولأنهار الدولارات العربية التي تتدفق على پانتيون «ثروة الأمم» إنما تعلق مصيرنا على وهم قدرة هؤلاء الحشاشين على نسف فكرة أميركا واقتلاعها من وجدان الأميركيين. إنها تردّ أطول حرب تطهير ثقافي وعرقي في التاريخ إلى مجرد ثرثرة كلامية أو لعبة كراسي موسيقية، لن تؤدي في النهاية ــ ولعلها ليس لها من هدف ــ إلا أن تصرف الأنظار عن عبادة هذا الطوطم اليانكي من قصر القبة إلى مسجد ضرار وتلهينا عن السبل الناجعة لفك الحبل عن عنق الأپاتشي العربي حيث يمسك بخناقه ويعتصر أرضه وسماءه، وحيث يزينون وجوه الذئاب بمساحيق الصداقة. فبعد عشرات الأجيال ومئات السنين، وبعد أن لا يبقى مما يمكن إنقاذه إلا دموع التماسيح، ربما ستحقق لنا هذه الطوباويات ما يمكن للعواصم العربية «الصديقة» أن تحققه بلمحة عين لو أنها ثابت إلى ضميرها أو عروبتها أو إسلامها أو استجابت لغريزة بقائها وتوقفت عن الانتحار بسموم هذه الصداقة القاتلة. غير أن هذه العواصم العربية التي صنعت كثيراً من الطوباويات وحقنتها بما يلزمها من مال وسلطة ومخدرات، تريدنا أن لا نكف عن استحلاب السمن والعسل من ناب هذه الأفعى، وتريد لأبصارنا أن تتجمد على الخرقة الحمراء لتتسلى مع أصدقائها المستعمرين بجراحنا وعمانا

وفكاهة دمنا الرخيص وموتنا البهيمي. وهو موت ليس ككل موت. هذا موتي أنا العربي، لا الموت في نيكاراغوا وفييتنام وراوندا وأفلام رعاة البقر. وهذا دمي أنا الكنعاني على الحقيقة لا دم الثور في مدريد. عندما اخترع روميرو فرانسيسكو Romero Francisco في نهاية القرن الثامن عشر لعبة قتل الثور برداء أحمر وسيف؛ كان أول من استثمر دمي وعماي الأحمر لتسلية «الأصدقاء» الإسپان وشماتة من تأسَپن من عرب الأندلس. كان هذا الماتادور أول من عرف كيف يجند تفاوت الذكاء بين الإنسان والبهائم في هذه المذبحة المسرحية التي يطأطىء الثور في نهايتها رأسه خانعا متألقا بخيوط الدم حول جسده المتعب ليتلقى من الماتادور طعنة السيف القاتلة هنا بين منكبيه مفجّراً عاصفة من الهياج والابتهاج بمصرعه أمام شاشات التلفزيون وعبر الأقمار الصناعية.

هذه الطوباويات البريئة والمسمومة التي تسكن أحلام بعض عرب أميركا وأوهامهم وتغذيها أثداء «الصداقة» بالمال والإعلام وغاز العمى، تنسى أن فكرة أميركا وما يسمى بالروح الأميركية هي التي احتضنت في أحشائها الشروط الثقافية والتاريخية والأخلاقية والنفسية والدينية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية لقيام لوبي صهيوني يدعم مشروع أميركا القيامي ويؤكد عليه ويحاذيه ويتماشى مع أهدافه، وهي تنسى أيضاً أن هذا اللوبي لم ينشأ في ألمانيا النازية ولا حين كانت هناك دول يهودية تصادق الألمان وتضخ ثرواتها الوطنية إلى مصارفهم وتقيم معهم الأحلاف العسكرية واتفاقيات التعاون الأمني. لو نجح مثل ذلك اللوبي اليهودي في ألمانيا النازية لنجح اللوبي العربي في أميركا. إن في جسد أميركا مناعة فيزيائية قدرية لا بد أن تلفظ هذه الطوباويات العربية والصادقين من أهلها إلى حيث ألقت رحلها طوباويات

الهنود. فلقد جندت طوباويات الهنود الحمر عدداً من الأصدقاء أعسل سمّاً من أصدقائنا في لندن وأكثر عدداً من أصدقائنا في واشنطن؛ كلهم تعاطفوا مع قضاياها، ومشوا في مسيراتها، وذرفوا الدموع لآلامها، وانتقدوا سياستهم تجاهها، واعتذروا عما سفكوه من دمها، وامتدحوا حضاراتها وعقائدها وأخلاقها وعطاءها السخي للإنسانية، وفي النهاية (ما بين ١٨٧٥ و١٩٢٥) أقنعوها بأن تتحلى بالصبر والتروي وتتخلى عن عقلية المؤامرة وعن أراض بلغت مساحتها مائة مليون آكر (٤٠٠ مليار م^{2}) بتقدير وورد تشرشل.

إن «فكرة أميركا» لن تسمح بنشاط عربي يتضارب مع هذه الشروط إلا شكلاً، أو ملهاةً على غرار أولئك الهنود الذين كانوا يرضعون أحلامهم من ناب الأفعى. لقد كانت هستيريا إسرائيل وإبادة كنعان (العربي والهندي) معششة في «مملكة الله» قبل أن تعشش في الدماغ والأخلاق والكتب والعادات والصلوات والمشاعر والأحلام والأمجاد التاريخية للزنابير الأنكلوسكسون على طرفي المحيط، بل قبل أن تخلق إسرائيل بأكثر من خمسة قرون. إن عامة الأميركيين المسكونين بالمشاعر والهواجس الجيو/قيامية التي رضعوها من أثداء «مملكة الله» جيلاً بعد جيل من مستوطني مستعمرة پليموث إلى مستوطني مستعمرة الكويت هم الذين أوصلوا صانعي القرار الأميركي إلى البيت الأبيض ومجلسي الكونغرس. لهذا فإن إرضاء مشاعرهم (المنسجمة تماماً مع حسابات «ثروة الأمم»)، وذلك بتبني أقصى التطرف الممكن في قضايا معجونة بلحم وجدانهم مثل تهويد القدس أو تدمير «العاهرة بابل»، وإسعادهم من آن لآن بمسلسلات الموت العربي ومشاهد الجثث والدم والدمار المسلية من الفرات إلى النيل هو أكثر تأثيراً على

سياسة ممثليهم في الكونغرس من أي قوة ضغط أخرى. إن شعب الله الأميركي الذي أطلق المراكب إلى الفضاء المجرّي يتعامل مع فلسفة التاريخ بعقلية إنسان جاوة، وإن حداثته وآلة موته الجهنمية تعوم فوق محيط هائل من الخرافة.

أبداً، لا الإحباط المتواصل، ولا الخيبات المستمرة من مجيء مملكة الله في المواعيد المحددة لها كبحت من جموح هذا الوهم، أو غلّت من محاولات بعثه وإحيائه، أو تركت لله حرية اختيار الموعد المناسب لظهور مملكته وفقاً لحساباته التي كشف أسرارها لشعبه المختار: «عندما يصبح عمر الأرض ستة آلاف سنة». لكن هذه الخيبة التي لازمت كل المواعيد أغرت القياميين باعتماد أنظمة حساب كانت ترجىء موعد القيامة باستمرار لتضع حياة الكون وتاريخ البشر وأعصاب الغوييم بعيداً عن فوهة البركان الذي لا يعرف أحد مكانه وزمانه. ومنذ السنة ٥٠٠، عندما بلغت الأرض أجلها لأول مرة وفقاً لحسابات رب الجنود، وقبل أن يولد غيلان الدمشقي بمئتين وعشرين سنة، أسس القياميون مذهب «الإرجاء» وصارت المناورة مع الله محور الثقافة القيامية وأساس نظام المد والجزر في بحر المصير البشري. وفي المرة الثانية التي اقتربت فيها حياتنا الإنسانية من حافة قبرها مع نهاية القرن الثامن كانت الآيات والنذر تمطر الخيال القيامي مدراراً، فقد حاقت الأزمات بالعالم المسيحي، وطرد البابا من كرسيه الرسولي في روما قبيل ثلاث سنوات من نهاية العالم (عام ٥٩٩٧)، وقتل الأمبراطور البيزنطي بيد زوجته التي جلست على عرشه (عام ٥٩٩٨) وبدت الأمبراطورية الرومانية وكأنها تنهار وفقاً لخطة السماء وعقلية المؤامرة.

لمواجهة هذه الأزمات في الهزيع الأخير للوجود، اختار شارلمان اليوم الأول من سنة ٦٠٠٠ [الممددة] موعداً لتتويجه. وقد تجنب بلاطه أية إشارة إلى الحسابات القيامية الخائبة، فوضع تقويماً جديداً Anno Domini لتأريخ هذا الحدث الفاصل في العالم الأوروبي بدلا من التقويم القديم Annus Mundi تفادياً لاقتران موعد التتويج بيوم القيامة الذي أرجىء من جديد إلى سنة ألف للميلاد. وقد كان هذا الرقم الجديد ساحراً يمتلك كل الجاذبية اللازمة رمزاً وحساباً وطباقاً وجناساً مع السنة ٦٠٠٠، ذلك أن بعده الزمني [النسبي] أعطى الأعصاب القيامية شيئاً من الاسترخاء، وسمح لأجدادنا المرشحين للمحرقة الكونية بتنفس الصعداء. لكن قرني المناورة مع الله انقضيا بلمح البرق وتأكد للقياميين أن الله يتلكأ ويعتمد نظاماً حسابياً مختلفاً برغم كل الآيات والعلامات التي تظهر في السماء والأرض من عواصف وزلازل وشهب وكسوف وخسوف وحروب ومجاعات وأوبئة لا تختلف عما يراه القياميون الأميركيون اليوم إلا في شرط واحد أحد وهو أن القيامة التي يريدونها ليست بحاجة إلى الله ماداموا يملكون ما يلزمهم لتدمير العالم وصناعة القيامة التي تقتضيها «فكرة أميركا» بأيديهم.

دأبت فكرة أميركا على أن تجد في رماد الخيبة والإحباط نار القيامة المقدسة التي لا تنطفىء أبداً. إن أنبياء القيامة لا يتقاعدون إلى يوم القيامة. وعلى مدى هذه القرون الطويلة من الإحباط والخيبة وخداع النفس والإيمان الكاذب ــ والكلام للاندس ــ جربت أميركا صناعة القيامة بيديها فإذا بها تصنع حداثتها وحيوية مجتمعها من مادة القيامة الجهنمية. إنها الآن فسيفساء من «شعوب مختارة» ترى نفسها على شواطئ الألف الثالث قادرة على طرد الله من سيناريو القيامة وتمثيل دوره. وقد ساعد على ذلك أن

صورة مملكة الله قد أعيد رسمها كلياً في إطار «فكرة أميركا»، وأنها فقدت كل معانيها الروحية والأخلاقية وتسيست وحددت هوية «الشيطان» وطبيعة «الدجال» على صورة ضحاياها. إن أميركا ومعها كل عوالم الشعب الإنكليزي المختار من لندن إلى سيدني ليست الآن ما كانت عليه في بداية الزحف الاستعماري إلى أعالي البحار حين كان المستوطن الإنكليزي في أميركا وأستراليا ونيوزيلانده ينتظر بخوف وقلق وترقب أن يصنع الله القيامة التي وعد بها الأنبياء، وكان يكتفي بذبح ضحاياه الكنعانيين لاستعجال تدبير الله. إنها الآن، وبأموال ضحاياها وأسلحتهم وفقههم ومازوشية بعضهم، قادرة على تدمير الأرض وصناعة القيامة التي أرادتها وهندستها واحتكرت لنفسها حق تحديد سعيدها وشقيها وجنتها ونارها. أما دور الله في هذه القيامة وفي كل هذه الصلوات التي يؤديها الرئيس الأميركي في قداس الآحاد والمناسبات الوطنية والدينية فلا يختلف عن دور الآنسة لوينسكي.

من قيامة كونوي إلى قيامة بابل، طورت الأسطورة لنفسها ما يعينها على تجاوز الخيبات المتواصلة والإحباطات التي لم تفارقها قط، فصنعت الوسائل التي تقدح النار في رماد الخيبة والإحباط وتحلب خُلف المواعيد والتوقعات اللانهائية لنهاية الزمان. وكانت «العصا والجزرة» القياميتان من أنجع العقاقير التي أطالت عمر الأسطورة. أما العصا فقد تمثلت بالدجال Antichrist، وهو كائن خرافي خارق القوى شديد الإغواء سيظهر قبل نهاية الزمان فيجعل الحياة جحيماً بإغراءاته الشيطانية التي ستوقع الملائكة والقديسين في شباكه وأحابيله. ثم أضيفت الجزرة إلى العصا على صورة استراحة موقتة (تعرف بالعصر الألفي Millenium) يستجم فيها الزمان ويتطهر العالم من أدرانه الشيطانية على مدى ألف سنة هي الذروة

التاريخية المنتشية لفكرة أميركا حيث لن يبقى على وجه الأرض سوى شعب الله وثقافته وإلهه الذي سيصنعه على صورته.

كانت فكرة «الدجال» وراء نزعة شيطنة الضحية في كل القيامات التي صنعتها أميركا لأعدائها. وكانت الجغرافيا الأميركية نفسها عنصراً من عناصر القيامة. فعندما وصف وليم برادفورد William Bradford (حاكم مستعمرة پليموث) في «يومياته» كيف توقع الحجاج [المستعمرون الإنكليز] في سفنهم أن يصلوا إلى «كنعان بدون كنعانيين» كان يعرف بتجربته الطويلة مع شعوب أميركا أن العالم الجديد مسكون بالبشر. وقد أوضح برادفورد في «يومياته» ما يقصده بتلك الكنعان الخاوية من البشر بأن «كل ما هناك هو جماعات من الهمج المتوحشين». وتمضي قصته في وصف تلك الكنعان القيامية التي اختارها الله لكي تتبرعم فوقها أورشليم الجديدة New Jerusalem حيث لا يوجد إلا المتوحشون البهائم الذين يتفاوتون في مستوى وحشيتهم بدرجة أقل قليلاً من وحوش البراري...

...devoid of all civil inhabitants, where there are only savage and brutish men which range up and down, little otherwise than the wild beasts...

فيصف ذعر الحجاج الأبرياء ويستذكر كيف أنهم «يضحون بأنفسهم وحياتهم ليضطلعوا برسالتهم المقدسة بين وحوش برابرة لا حدود لغدرهم»... «إنهم يتلذذون بتعذيب الناس أسوأ العذاب وأدماه؛ يسلخون جلد المرء حياً بصدف السمك، ويقطعون أوصال هذا وأطراف ذاك ثم يشوونها على النار، ويأكلون شرائح لحمهم أمام أعينهم وهم أحياء، وفظاعات شنيعة أخرى يصعب سردها».

delight to torment men in the most blodie manner that may be, fleaing some alive withe the shells of fishes,

curring off the members, and joynts of others by peesemeals and broiling on the coles, eat the collops of their flesh in their sight whilst they live, with other cuelties horrible to be related.

أما نبي إسرائيل الجديدة كوتون ماذر Cotton Mather فيعتبر أن الشيطان هو الذي خلق الشعوب الأميركية وساقها إلى العالم الجديد لينصب شراكه الخبيثة لشعب الله [الانكليزي]. إنهم جبهة الشيطان المتقدمة أمام قوى الخير الأسمى.

تابعت «شيطنة الضحية» سيرتها في أدبيات استعمار أميركا التي ألحقت ثقافات أكثر من ٤٠٠ شعب هندي بغواية الشيطان وشره وربطت مصيرهم بمصيره. «إن هذه المجاهل اللعينة ـ كما يقول كوتون ماذر ـ هي المسكن المثالي للشيطان». وكان المؤرخ ريتشارد سلكتين Richard Sloktin في كتابه «التجديد بالعنف: أساطير الجبهة الأميركية» *Regenerating Through Violence: The Mythology of American Frontier, 1600-1680* قد أشار إلى ذلك الاستعداد الإنكليزي الدائم لمواجهة الشيطان الذي كانوا يجسدونه في الهنود وفي طبيعة العالم الجديد نفسها وكأنهم على أبواب نهاية الزمان يخوضون حربهم النهائية مع الشيطان: «كانت المجاهل في أعينهم عالماً كالقنيّاً مصغراً شبيهاً بالعقل البشري حيث يسود الظلام وحيث يسكن الطيب والخبيث والصالح والطالح. وكان الهنود يجوسون في الظلام مثل... أفكار شيطانية تنخر العقل. إنهم يهاجمون المستوطنين ـ على طريقة الشيطان ـ عندما يكون دفاع الخير ضعيفاً».

أما الاعتقاد بأن الهنود شياطين أو جنود الدجال ــ والكلام لسلكتين ــ فأعطى المستوطنين الإنكليز مبرراً أخلاقياً إضافياً لاجتياح أراضيهم، كما برر الاعتقاد بتشابههم مع الكنعانيين وجعل إبادتهم بالجملة خالصة لوجه الله. إنهم في احتلالهم أراضي الآخرين وقتلهم لم يستطيعوا أن يجدوا مبرر أهدافهم في «إنجيل المحبة» لأنه لا يخدم أهدافهم بل وجدوها في العهد القديم وقصصه الشنيعة التي أباحت لهم كل جرائمهم. كانت إبادة هؤلاء [الهنود] المتحالفين مع الشيطان في عمق الوجدان البيوريتاني عملاً مقدساً يؤكد أنهم كنعانيون ملعونون يسكنون في الأرض التي وعد الله بها شعبه المختار، وكان المستوطنون يعيشون في ظل قيامة لا نهائية لا تصدق نبواتها إلا بدم الشياطين. ويروي روبرت سميث Robert Smith في كتابه «عجلة في وسط العجلة» *A Wheel in the Middle of the Wheel* أنه [في منتصف القرن الثامن عشر] كان ينظم المهرجانات الشعبية لمحاربة الشيطان الهندي ويؤكد على أن «سفك الدماء ضروري لتطهير الأرض إذا أردنا مملكة الله فعلاً. أما «النضال الاستيطاني» فهو السبب في دوران عجلة النعمة الإلهية، وهو الذي يعول عليه في أن يأتي بانتقام مخيف يزعزع عرش الشيطان ويسقي العاهرة بابل كأس الزؤام double cup».

بمثل هذا اليقين المطلق من حقهم في تقرير الحياة والموت ترك أنبياء «فكرة أميركا» لأنفسهم حرية انتقاء الشياطين الذين ينفثون شرورهم ويقاومون فكرة «استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة» وأعطوا لأنفسهم حقاً إلهياً في سفك دمائهم. وبمثل هذا الدم البارد والهواس البارانويي المتأله كتب جورج ستيفانوبولوس George Stephanopoulos كبير مستشاري الرئيس كلينتون مقالاً

في «النيوزويك» ١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦ عن حق أميركا في القتل وصف فيه سفك الدماء بأنه عمل لازم بل نبيل not only necessary but noble وأن القتل أحياناً عمل إنساني killing can be a humanitarian act.

ومع تقدم الوقت والحاجة الماسة إلى التوسع في المجاهل امحت الفروق بين «فكرة أميركا» وبين «مملكة الله» أو الأمة الجديدة التي يبنيها المستوطنون الإنكليز في مقابر الشياطين. فبعد أيام قليلة من وصول المستوطنين إلى شواطىء پليموث بدأوا بغزو مستودعات الذرة وعنابر المحاصيل، ومداهمة قرى هؤلاء الوحوش ونهب ما فيها. كان دفاع الهنود عن محاصيلهم وقراهم وحياة أطفالهم أكبر دليل على تحالفهم مع الشيطان ومبرراً إضافياً للمزيد من اجتياح بلادهم والاعتداء عليهم ونهب محاصيلهم وحرق قراهم وقتل أطفالهم ونسائهم. وفي وجه هذه الإشارات والنذر القيامية كان لا بد لأمن المستوطنين من طلب المدد من «الرؤيا» وأخواتها وتقسيم العالم إلى جنة للاستيطان وجهنم يحرق فيها الشيطان. وفعلاً فقد فسر صامويل نويل Samuel Nowel اشتعال الحرب على الزعيم الهندي ميتاكومت المعروف باسم الملك فيليپ بأنها تعبئة لحرب مجدو Armageddon [حرب نهاية العالم «حيث ستصل دماء الشياطين إلى لجم الخيل»] وقال: «إن الله في علاه يبقي بعض الأمم قوية الشكيمة حرونا عنيدة عن قصد، كما فعل من قبل حين أراد أن يعلم إسرائيل الحرب. وعندما أراد الله تدمير الكنعانيين حرم على الإسرائيليين أن يتزاوجوا بهم وجعلهم شوكة في حلوقهم لكي يستأصلهم الإسرائيليون to root them out [وهو التعبير الدارج في الحرب على الشيطان الفلسطيني والعراقي والإيراني والسوداني والليبي اليوم. وقد ردده الرئيس كلينتون حرفياً على مسامع

أصدقائه من صناديد العرب في كل زياراته لفلسطين المحتلة والعالم العربي؛ في تل أبيب، وفي المجلس النيابي الأردني، وفي شرم الشيخ، وطابا... إلى آخر الخريطة]:

When God intended the Cannanite to be destroyed, He did forbid Israel to marry with them: they were to be thorns to them, and Israel was *to root them out.*

كانت حملة مطاردة الهنود واصطيادهم تختلف ببعدها القيامي عن حملة مطاردة الساحرات. فهذه الأرواح [الهندية] الشريرة لا يشملها خلاص المسيح لأنها من روح الشيطان. وكان شعب الله يقول عنهم إنهم يعبدون الشيطان. وكانت عيونه وجواسيسه ترى في ذلك «النواح والأنين والتبتل والحركات الطقسية الغريبة والابتهالات والأناشيد [التي لا يفهمونها] دليلاً على أنهم يعبدون الشيطان». حتى روجر وليامس Roger Williams مؤسس مستعمرة بروفيدانس الذي كان من المدافعين عن حقوق الهنود رفض تلويث روحه بمراقبة أولياء الشيطان وهم في حال عواء وهرج ومرج أو «پاو واو» powwow لم تجد عبقرية النفاق الإنكليزية في عام ١٦٢٥ كلمة أحقر منها لتسمية صلوات الهنود المقدسة والإشارة إلى طبهم ورقصهم واجتماعاتهم وانتصارهم في الحرب. وحين كتب جون إمرسون John Emerson لكوتون ماذر أن أرواحاً شريرة تتربص بقديسي إنكلترا الجديدة [مجموع المستعمرات الإنكليزية يومها]، وأن هذه الأرواح تتلبس أجساد الهنود، أجابه ماذر مؤكداً أن إبليس نصب كمائنه للشعب الطيب فجعل الشياطين يتجسدون بأجساد الهنود ويشنّون حرباً روحية. إن قصة الحرب الشنيعة التي تشنها أرواح العالم الخفي على شعب إنكلترا الجديدة عام ١٦٢٩ جعلتني أفكر بأن لهذا اللغز أصلاً عند

الهنود الذين يتزعمهم ساغامورس والذين شاهَدَهم أسرانا وأكدوا لنا أن تحضيرهم الجهنمي للأرواح يشبه المحادثة مع الشياطين. وكان ماذر في كتابه «سر الخلاص الإسرائيلي» *The Mystery of Israeli Salvation* قد كنعن الشيطان الهندي وهنّد الشيطان الكنعاني، وجعل تجميع اليهود في فلسطين باباً إلى مملكة الله.

كتابات كوتون ماذر المسكونة بالشياطين والدم والإيمان ليست إلا مثلاً واحداً من تلال أدبيات الاستعمار الإنكليزي التي فسرت الحرب على الهنود بلغة الأساطير القيامية، إذ كان المعنى القيامي الأسمى للشعوب الهندية هو تنمية روح الحرب عند المستوطنين الإنكليز استعداداً للمعركة الفاصلة مع الشيطان في فلسطين. إن ريتشارد ـ جد كوتون ماذر ـ ترك إنكلترا في ١٦٣٥ معتقداً بأن الله فضل الأمة الإنكليزية على كل أمم الأرض، وأنه هو الذي أوحى بحركة الإصلاح ليأخذ بيد الشعب الإنكليزي المختار وينقذه من ربقة «الدجال». كان قرار مغادرته بريطانيا لمشاركة المستوطنين في حمل رسالتهم إلى المجاهل الأميركية قراراً نبوياً أملاه عليه الإيمان بأن عصبة القديسين من العبرانيين الإنكليز في إسرائيل الجديدة هم شعب الله المختار الذي سيحافظ على عهده ليجهز على الدجال ويهيىء الأرض للقيامة القريبة في فلسطين. إن جون كوتون John Cotton وتوماس شيپرد Thomas Shepard وأفرايم هويت Ephraim Huit وولیم أسپينوال William Aspinwall وتوماس پاركر Thomas Parker وغيرهم من أنبياء فكرة أميركا تركوا لنا أبحاثاً ورسائل مستفيضة عن النبوات القيامية التي ألهبت حماسة شعبهم المختار في حربه على الشياطين الهنود. كذلك كانت قصائد ميكايل ويغلسوورث Michael Wigglesworth «المشاحنة بين الله وانكلترا الجديدة» God's controversy with

New England و«يوم الدينونة» The Day of Doom وكل الحياة الثقافية في المستعمرات الجديدة تشرب من معين القيامة القريبة وتفيض معانيها بالأمل في أن الله أوكل إلى العبرانيين الإنكليز في إسرائيلهم الجديدة قيادة دفة الإنسانية إلى نهاية التاريخ. أبداً لم يعجز أنبياء فكرة أميركا منذ سفينة «مايفلور» إلى حاملة الطائرات «نيميتز» عن نظم كل شاردة وواردة من رأسماليتهم المتوحشة في عقد الخيال القيامي. وأبداً لم يخرج الشيطان من جسد الهندي الكنعاني إلا ليدخل في جسد الكنعاني الهندي.

هذا النهم الأميركي القيامي لسفك دم [الشياطين] كما يعتقد المؤرخ مارتن مارتي Martin E. Marty يجعلهم يعيشون بذهنية المأزق. فتلك القراءة الدرامية للنصوص وتلك الثنوية التفسيرية الحادة والجوع إلى ما بعد التاريخ لا بد أن يفرخ عدواً كونياً يتقمص ويتناسخ في كل عدو، ويفرز ذهنية المأزق التي تبرر التطرف الأصولي الأقصى. إنهم هنا مثل اليهود مسكونون دائماً بهاجس الخطر الذي يهدد وجودهم: خطر الهنود، وخطر الكاثوليك، وخطر الإسلام، وخطر الإيديولوجيات الخارجية، وخطر المهاجرين الغرباء والأخطار التي تتلاحق زرافات ووحداناً، وهم دائماً يبدأون بإطلاق النار على الشياطين في حال دفاع عن النفس.

«هذا هو القاسم المشترك بين النفسية الأميركية والنفسية اليهودية [كما يرى روبرت فولر Robert Fuller في «تسمية الدجال...» *Naming the Antichrist...*]. إنه الحاجة الدائمة إلى الشيطان والحديث عن خطره المصيري الذي يتطلب فلسفة أمنية متشددة تقتل بالحدس، ويتخذ احتياطات وقائية شديدة التطرف والعنف...

وعلى كل حال فإن هؤلاء الأنغلوسكسون البيض البروتستانت WASP متجذرون ثقافياً في تراث توراتي يمدهم باستعارات أسطورية لكل عماءٍ chaos يهددهم، فما أن يتمكنوا من لصق هذه الاستعارات بحادثة أو شخص حتى يصبح سفك الدم عملاً مقدساً».

وفي «الجنوح البارانويي في السياسة الأميركية» *The Paranoid Strain in American Politics* يرى ريتشارد هوفستاتر Ritchard Hofstadter ــ مؤسس المدرسة الاستقصائية في التاريخ ومؤلف عدد كبير من الكتب النقدية عن التاريخ الأميركي ــ أن هذه الاستعارات القيامية وَلّدَت في التفكير الأميركي جنوحاً إلى البارانويا. إنهم لا يهجسون بخطر الشيطان المحيق بهم من كل حدب وصوب بل يرون فيه القوة المحركة للتاريخ. فهذا التاريخ الذي تستعجل أميركا نهايته هو مؤامرة نصبتها قوى شيطانية خارقة القوى تستلزم وصف الأعداء وتشخيصهم بلغة قيامية. العدو واضح الملامح والمعالم، فهو كلي المكر والخبث، كلي الشر، كلي الفساد، كلي الحضور، كلي التسلط، كلي الفظاظة، كلي الغرائزية، كلي الخطر. إنه مطلق الشيطان. وقد واكب هذا الجنوح البارانويي وتلك الاستعارات القيامية حملات كراهية لم ترض بأقل من سفك دم الشيطان الذي تجسد في الهندي والتركي (كل «مواطن» في ظل الدولة العثمانية) والأسود والكاثوليكي والشيوعي والفييتنامي والفلسطيني والعربي والمسلم...

ولم تكن الاستعارات القيامية لتروج في الأدب السياسي الأميركي لولا ذلك التشابك المعقد في الوعي الأميركي لـ«ثروة الأمم» بين فكرة أميركا وفكرة إسرائيل، بين «مملكة الله»وبين تجميع اليهود في

فلسطين وما يترتب على ذلك من حفلات صيد للشياطين الذين يعيشون الآن ــ موقتاً ــ بين آبار النفط في خريطة «أرض إسرائيل» وجوارها. إن هذا ــ وليس قوة الضغط اليهودية أو أي عامل ثانوي آخر ــ ما حدد العلاقة المصيرية بين أميركا وإسرائيل، قبل تأسيسها وبعده، كما يرى فولر، وكما يرى معظم من له عينان تلتقطان ألغام الاستعارات القيامية في الأدب السياسي الأميركي الرسمي من جورج واشنطن إلى جورج بوش دون استثناء أحد. وهذا ما يجعل قوة الضغط اليهودية في واشنطن أرحم أعدائنا وأقلهم خطراً وعطشاً للدم.

وعلى الرغم من أن هذه الاستعارات ألغام محشوة بأبشع مشاعر ما يسمى باللاسامية والتآمر على مصير اليهود وعقائدهم، فإن الموقف من دولة إسرائيل مستثنى من قواعد العدل وقيم الأخلاق لأنه في أساسه موقف من أوضح علامات مملكة الله وموقف من فكرة أميركا نفسها. لهذا ــ يرى فولر ــ «نجت إسرائيل من محكمة القيم ومبادىء الأخلاق والعدل، واقتصر الحكم عليها بقوانين القيامة. ولهذا أيدت أميركا دائماً لجوء إسرائيل إلى السلاح ومعاملتها اللاإنسانية للفلسطينيين باعتبارها تحقيقاً لنبوات القيامة».

هذا التمييز بين اليهود (الوسيلة) وبين فكرة إسرائيل (الغاية) بلغ حداً مأساوياً في التبرير القيامي لسفك دم الشيطان ذهب معه آرثر بلومفيلد Arther Bloomfield أحد أنبياء «فكرة أميركا» من منظري الصهيونية اللاسامية إلى تبرير الهولوكست اليهودي في ملحمته القيامية «كيف تتعرف على الدجال» *How to Recognize the Antichrist* فقال: «إن الهولوكست كان تدبيراً إلهياً حكيماً

هيأ الله به أسباب قيام إسرائيل، ولأن فلسطين لا تتسع لعشرين مليون يهودي فإن الله تولى بعنايته تخفيض عددهم قبل عودتهم إلى وطنهم»!

استطاعت الاستعارات القيامية ــ من أدبيات روزفلت إلى أدبيات ريغان ــ أن تقتل كل معنى زمني في الماركسية وأن تعيد خلقه من جديد على صورة الشيطان. «فمنذ أن وصل البلاشفة إلى السلطة وقام النظام الملحد على أنقاض المسيحية المثخنة بالجراح ــ كما قال المؤرخ پول بوير Paul Boyer ــ بدا وكأن التاريخ والنبوة يتعانقان وتأكد أن روسيا هي يأجوج وقد عاشت من جديد»! «إن الهدف من قيام روسيا هو استئصال المسيحية من على وجه الأرض، ولهذا فإن الله نفسه يقف في وجهها لأن الشيطان بنى قصره في موسكو استعداداً لحرب نهاية العالم» كما يقول جيرالد ونرود Girald Winrod (نقلاً عن فولر). وظلت كتب النبوات والشياطين ومعاصر غضب الرب تتلاحق لتنذر المؤمنين من خطر الإلحاد الشيوعي على مقدسات المسيحيين واليهود والمسلمين وتحذرهم من أن موسكو تسوق الإنسانية إلى قيامتها الموعودة إلى أن رأى المؤمنون بأعينهم أن الشيطان السوفياتي الذي جعلته عمائم لانغلي Langley رمزاً للإلحاد والكفر والشيطان وقدمت عداوته على كل عداوة ومحاربته على كل حرب كان لأكثر من نصف قرن هو الحائل الوحيد دون عربدة «رامبو» بين الحَجون إلى الصفا. ومع هذا الانهيار الذي كنا أول ضحاياه «عاد الشيطان ــ كما يقول فولر ــ إلى بلاد العرب والمسلمين حيث تجسدت مملكته على مدى أربعة عشر قرناً في مكة فدمشق فغرناطة فبغداد فالقاهرة فاسطنبول» التي وصفها جون سميث مؤسس المستعمرة الإنكليزية الأولى في العالم الجديد بأنها «بابل الشياطين»

وتجند لحربها في البلقان ثم جعلها ضحية كل أميركي في عيد الشكر حتى هذه الساعة.

وبرغم ذلك التنافر الحاد بين الأسباب الحقيقية لحرب «ثروة الأمم» على «رأس المال» وبين الدراما القيامية فإن أرمادا البروباغندا الأميركية ظلت تطلب دم الشيطان السوفياتي وتروض الوعي الأميركي على حرب نهاية التاريخ إلى أن بيع تمثال لينين بالمزاد العلني في مرسيليا وعاد الشيطان إلى جسده الكنعاني.

أبداً لا تنطفىء نار الكراهية، ولا تندمل الجراح المتخيلة، ولا يزول الشعور بالخطر والتهديد حين تُبلى «ثروة الأمم» بداء الكَلَب المقدس وحين يكون العدو هو الشيطان. لقد خاضت «فكرة أميركا» كل حروبها في نهاية التاريخ المستعصية على النهاية، وظلت في كل هذه الحروب محتقنة بفكرة إسرائيل تسفك دم الشيطان الكنعاني الهارب من شعب إلى شعب ومن ثقافة إلى ثقافة، هائجة كديناصور أعمى على باب القيامة.



الفصل السادس

يعبدون إسرائيل ويكرهون اليهود

على الولايات المتحدة أن لا تحشر أنفها في ما لا يعنيها... فاقتراح فصل اليهود وعزلهم وتكديسهم في فلسطين مشابه لذلك المشروع القديم الذي يقترح ترحيل الزنوج إلى أفريقيا. وهذا ما يعرفه اليهود جيداً. إن هذه المشاعر المتلبسة بتعابير الخير والإحسان ليست في النهاية إلا مظهراً من مظاهر اللاسامية.

مارنين فينستين،
The American Zionism

دع هؤلاء المسيحيين يفعلوا ما يستطيعون لمساعدتنا على استيطان فلسطين، أما مسألة إيماننا فلنترك حلها إلى حين عودة الأليجا. وعندها سيرون ما إذا كان حلمهم سيتحقق أم لا.

ولف شُر، Ha Pisga

قبل أن يعلن هرتزل عن دولته اليهودية بخمس سنوات كانت أفكار هرتزل تخب إلى البيت الأبيض في عربة خيل سوداء تقل وزير الخارجية جيمس بلاين James G. Blain وصديقه العزيز

وليم بلاكستون William E. Blackstone فيلسوف الصهيونية اللاسامية الحديثة في أميركا. في ذلك اليوم المشمس من آذار/مارس ١٨٩١ ارتاح الرئيس بنجامين هاريسون وضيفيه أمام النافذة المطلة على حديقة البيت الأبيض ليتدارس معهما خطة «إعادة فلسطين لليهود وفقاً للتوزيع الإلهي للأمم والشعوب»، وذلك بالدعوة إلى مؤتمر دولي «يستعجل تدبير الله» ويهيىء الأسباب اللازمة لقيامة دولة نهاية التاريخ. وكان بلاكستون قد تقدم للرئيس برسالة استعطاف عنوانها «فلسطين لليهود» أهاب به أن «نعيد اليهود الآن إلى الأرض التي طردهم منها أجدادنا الرومان دون رحمة»:

Let us now restore them to the land of which they were so cruelly despoiled by our Roman ancestors.

فرسم فيها لسيد البيت الأبيض معالم هذا المؤتمر الذي سيدعى إليه الملكة ڤكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وأمبراطورة الهند، وألكسندر الثالث قيصر روسيا، ووليم الثاني أمبراطور ألمانيا، وفرانسيس جوزيف أمبراطور النمسا وهنغاريا، وجلالة ماري كريستينا ملكة إسبانيا، وحكومة جمهوريات فرنسا وبلجيكا وهولندا والدانمارك والسويد والبرتغال والسلطان عبدالحميد الثاني سلطان غرفة العناية الفائقة لتدارس إمكانية «إعطاء» فلسطين لليهود. «إن أميركا التي ستمضي قدماً في تنفيذ خطة الله لشعبه إنما ستضطلع بدور تاريخي لم يعرفه العالم منذ أيام «كسرى»»، كما ذكر كارل إيهل Carl F. Ehle, Jr. في رسالة نيل الدكتوراه مدخل إلى الصهيونية المسيحية في أميركا: آراء إنكريز ماذر ووليم بلاكستون في عقيدة إحياء إسرائيل *Prolegomena to Christiann Zionism in America...* (وكانت جيوش خسرو الثاني في سنة ٦١٤ قد اجتاحت فلسطين ومعها عدد كبير من المرتزقة اليهود الذين قتلوا تسعين ألفاً من أهل بيت المقدس وأفحشوا في الفلسطينيين ذبحاً

وتنكيلاً وانتقاماً لم يضع حداً لفظائعه إلا هزيمة الفرس أمام جيوش هرقل الروم).

ولم تكن تلك أول مرة ولا آخر مرة يدعى فيها سيد البيت الأبيض إلى اعتلاء عرش كسرى وتنفيذ خطة الله لشعبه، فمن إسقاطات العبرانيين الإنكليز في أرض كنعان الجديدة إلى تنويرات جوزيف برستلي، ومن منامات الدولة اليهودية «التوحيدية» التي حلم بها الرئيس الأميركي جون آدامس John Adams إلى خطط جورج واشنطن لتوطين اليهود في فلسطين كانت فكرة إسرائيل تسكن الثقافة الأميركية وتشكل النواة الصلبة لفكرة أميركا. طبعاً، كانت كل الحماسات المبكرة لفكرة إسرائيل تُجري سيفَها في خناق الهنود لأنها كانت حماسات تعويضية مستوعبة في فكرة أميركا نفسها، خاصة وأن «الرجل المريض» لم يكن مريضاً، بل كان قوياً ساهراً على نهر الوقت يغلق على «نهاية التاريخ» صندوق اليوتوبيا ولا يسمح لأحفاد قلب الأسد بأكثر من التضحية الرمزية بديك تركي في عيد الشكر.

هكذا اختنقت أحلام كثيرة في قمقمها؛ أولها مشروع الراهب القيامي جورج بوش George Bush (١٧٩٦ ــ ١٨٥٩) ــ ولا نعلم أي جد هو للرئيس الصديق جورج بوش ــ وقد فصله في كتابه «وادي الرؤيا: أو انبعاث إسرائيل ...» Valley of Vision: or, The Dry Bones of Israel Revived. وكان قد هيأ لمشروع إحياء إسرائيل بكتاب عن سيرة النبي محمد نشره في عام ١٩٣٠ هو ــ كما يقول عنه هلتون أوبنزنغر Hilton Obenzinger في مقالة له عن حرب الخليج (جسور، العدد الأول، ١٩٩٣) ــ: «كراسة نموذجية في عداء المسلمين وشتم نبي الإسلام حاولتْ استعراض سلسلة

الحماقات التي ارتكبها سائق جمال من جزيرة العرب...وكأن الراهب جورج بوش ما زال يكتب إلى الآن»، وثانيها مشروع داڤيد أوستن David Austin الذي دعا إلى بناء سفن في نيو هاڤن لمساعدة يهود العالم على العودة إلى بلاد أجدادهم وتدشين الفصل الأول من دراما القيامة، ثم مشروع ووردر كريسون Warder Cresson الذي تهود ومضى إلى فلسطين في خمسينيات القرن التاسع عشر ليبنى مستوطنة زراعية في ضواحي القدس و..، وغير ذلك من مشروعات خيالية لاهوتية، تجد تفاصيلها في «التاريخ المبكر للصهيونية في أميركا» Early History of Zionism in America لإيزيدور ماير Isidore S. Meyer. أما مشروع بلاكستون فيلسوف الصهيونية اللاسامية فمختلف. إنه معقول، عملي، سياسي، سهل التنفيذ، يدخل على «الرجل المريض» من باب الصداقة لينتزع منه ما عجزت عنه الجيوش. فلطالما وجد «الأصدقاء» في وحل هذه المجاهل المستنقعية سمكاً أعمى.

في تلك الجلسة التي تولى فيها وزير الخارجية وصديقه بلاكستون شرح رسالة «فلسطين لليهود» للرئيس هاريسون دشنت أميركا الرسمية أول استراتيجياتها الجيوقيامية على المستوى الدولي. كانت الرسالة تحمل توقيع ٤١٣ شخصية سياسية ومالية ودينية ورسمية، منهم رئيسان لاحقان للولايات المتحدة، وعدد كبير من رجال الكونغرس، في مقدمتهم رئيس مجلس الممثلين (النواب)، ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، إضافة إلى حكام الولايات، وعمد كبار المدن، ورؤساء تحرير أكبر ٩٣ صحيفة ومجلة، وبعض الكتاب. لكن، لم يكن بينهم سوى ثلاثين يهودياً هامشياً، فقد رفضها معظم زعماء اليهود.

كانت الرسالة التي تؤكد على «الحاجة إلى تأمين وطن لهؤلاء

الملايين المشردين من بني إسرائيل» تتويجاً سياسياً عملياً لتعويذة أسطورية ظلت تسحر الوعي الإنكليزي البروتستانتي الأبيض منذ العهد الاستعماري الأول. وكانت في رأي يكوف أرييل Yakov Ariel في كتابه «نيابة عن اسرائيل» On Behalf of Israel لا تختلف عن خطة هرتزل فكلاهما وضع خطة مفصلة لتجميع اليهود في فلسطين وكلاهما لم يعبأ بأن في فلسطين شعباً غير يهودي. إنها مرآة للصهيونية غير اليهودية التي ما تزال إلى الآن تجسد النواة الصلبة لفكرة أميركا وتشكل ــ هي لا اللوبي اليهودي ــ أقوى وأكبر وأخطر قوة ضغط أصولية متطرفة تفرض على السياسة الأميركية وبرامج الحزبين الحاكمين أن تضع «دولة نهاية التاريخ» فوق القيم والقوانين ومبادىء الأخلاق والعدل وقدسية «ثروة الأمم».

ومع أن نص رسالة «فلسطين لليهود» سياسي مستمد من إنسانيات أواخر القرن التاسع عشر ومن شعارات المذهب العقلاني والمذهب التقدمي، فإنه كان مستوحى من تراث بلاكستون القيامي الذي جسده في كتابه الأسطوري الشعبي «المسيح آت» Jesus is Coming، كما أنه مستوحى من نظرته العبرانية للكتاب المقدس وعلاقته بفكرة أميركا. كان بلاكستون يعتقد بأن الكتاب المقدس ذو مضمون سياسي قبل أي شيء آخر وأن الله رئيس كل الحكومات ومملكته هي الأسمى. وهي فكرة فصلها كانط من قبله حين لم يجد في العهد القديم إلا برنامجاً سياسياً أرضياً لا ينطبق عليه معنى الدين. فالدين لا يقوم إلا على الأخلاق، وهذا ما لا يتوفر في رأي كانط عند يهوه نفسه.

ترجم كتاب بلاكستون إلى ٣٦ لغة، وطبعت منه ملايين النسخ،

ودخل معظم بيوت شعب الله الإنكليزي على طرفي المحيط، وكان أفيون الصهيونية اللاسامية في أميركا لأكثر من نصف قرن. لقد أكد فيه بلاكستون بألف طريقة وطريقة على ضرورة تعجيل «خطة الله» بتوطين شعب الله في مملكته القديمة. فتلك خطوة أساسية لدخول اليهود في عهد جديد مع المسيح يتمكنون به من كامل تراب أرض الميعاد. وتلك هي خطوة أهم لاستحضار القيامة وطي كتاب «تاريخ الإنسانية» لأن إسرائيل «تقويم الله وساعته الزوالية» God's sun-dial التي تعرف بها الإنسانية منزلتها ومسيرتها التاريخية، ولأن اليهود ــ برغم رفضهم للمسيح ــ هم الذين يصنعون التاريخ الذي يريده الله للبشرية.

If we want to know our place in chronology, our position in the march of evets look at Israel. Jews, despite their rejection of Jesus, are God's actors in history.

وفعلاً، فبعد سنوات قليلة مضت على تلك الجلسة الجيوقيامية في البيت الأبيض ركع الرئيس مكنلي McKinley (وهو ممن وقعوا رسالة بلاكستون)، وصلى لله شكراً على احتلال الفيليبين. فهذا الإحتلال ليس إلا عقاباً إلهياً للإسبان الذين طردوا اليهود من إسبانيا في عام ١٤٩٢.

هذه المركزية اليهودية في خطاب بلاكستون ليست أكثر من استعارات لمركزية «اليهود بالروح» أو للعبرانية الإنكليزية التي تزعم أن البيض/ الإنكليز/ البروتستانت على طرفي المحيط هم الشعب المختار حيناً والقبائل اليهودية الضائعة حيناً، وأن التفوق المطلق لن يتحقق إلا إذا حكم هؤلاء القديسون مملكة الله في إسرائيل بعد أن

يدخل اليهود في دين بلاكستون أفواجاً. لهذا كان «تجميع اليهود في فلسطين [وهو ليس غاية بذاته] ينتشر في أوراق الكتاب المقدس كما ينتشر الخيط الأحمر في العلم الإنكليزي». ويرى الشاعر الأديب هلتون أوبنزنغر Hilton Obenzinger في دراسة له عن بلاكستون بعنوان «في ظل ساعة الله الزوالية» In the shadow of God's sun-dial نشرها في SEHR (المجلد ٥، العدد ١) أن هذا السرد يتماشى مع التجربة الاستعمارية الأميركية [فكرة أميركا]، فهو يتعامل مع فلسطين الصحراء الجرداء، ومع شعب فلسطيني ليس له وجود. فالعرب ومعهم مسيحيو البلاد المقدسة أيضاً ليسوا كائنات على الحقيقة... أما ملكية فلسطين فليست مسجلة في سجلات محمد بل في مئات الملايين من نسخ الكتاب المقدس المترجمة إلى ثلاثمائة لغة من لغات الأرض».

لم يكن عسيراً على بلاكستون أن يصوغ أفكاره القيامية للرئيس هاريسون بلغة سياسية سمحت له في طبعة ١٩٠٨ من كتابه [بعد إعلان الحركة الصهيونية] أن يصف الصهيونية بأنها «أيديولوجية مملكة الله السامية» وأن يشن حملة على اليهود الذين رفضوها ويتهمهم بأنهم «يعادون تدبير الله وخطته وإرادته العليّة»، فقد عانى قبل ذلك من تجربة مرة مع الزعماء اليهود الذين رفضوا حماسته القيامية جملة وتفصيلاً واعتبروها خطراً عليهم. وهذا ما جعله يسلخ جلده القيامي ويزيّن لغته بنجوم جنرالات الاستعمار. وكان بلاكستون قد زار فلسطين في عام ١٨٨٨ ليدرس فرص استعمارها على الطبيعة وتكرار التجربة الأميركية مع الهنود فيها. وهناك ــ من القدس ــ استلهم بلاكستون «فكرة أميركا» فأطلق شعاره الشهير: أرض بدون شعب لشعب بدون أرض. وقال كما يذكر يكوف أرييل Yakov Ariel: «إن حفنة العرب الذين

يسكنون فلسطين الآن لن يكونوا عقبة في وجه تجميعنا يهود العالم في بلادهم القديمة». وفيها عبر عن تفاؤله بنهاية التاريخ التي رآها بأم عينيه في المستعمرات الصهيونية الجديدة وفي احتضار «الرجل المريض». وعند عودته نظم مؤتمراً عن «ماضي إسرائيل وحاضرها ومستقبلها» دعا إليه عدداً من زعماء اليهود، بينهم الحاخام الأكبر الدكتور إميل هيرش Emil Hirsch أستاذ الدراسات اليهودية في جامعة شيكاغو، والدكتور برنهارد فلسنتال Bernhard Felsental أحد مؤسسي الحركة الصهيونية في شيكاغو قبل هرتزل. وفيما كانت حماسة «يهود الروح» لدولة نهاية التاريخ شديدة واثقة من «قدرتنا» على «إعادة يهود اللحم والدم إلى أرض آبائهم وأجدادهم» كما عبر ج. م. كالدويل J. M. Caldwell أحد أبرز الشخصيات الأميركية المشاركة كانت المفاجأة أن «يهود اللحم والدم» لم يستجيبوا لأفكار «يهود الروح»، بل عارضوها ورفضوا ــ والكلام لأربيل ــ فكرة العودة إلى فلسطين جملة وتفصيلاً، من جمعية أبناء العهد B'nai B'rith إلى غالبية الصحف اليهودية الناطقة باسم مختلف تجمعات اليهود الأميركيين. ويروي صحافي إنجيلي معاصر هو جورج ماغون George Magoun مراسل صحيفة Our Day كيف غضب كبير الحاخامين من تفسيرات بلاكستون للنبوات وقال:

«ليس هناك يهودي واحد فسر النبوات بأنها تعني ضرورة تجميع اليهود في بلاد آبائهم. وليس هناك يهودي واحد توقع مملكة أرضية عاصمتها القدس. إننا يهود هذا العصر لا نرغب في أن نعاد إلى فلسطين فلقد تخلينا عن كل أمل في مجيء مسيا سياسي. ونحن نقول الآن إن البلد الذي نعيش فيه هو

> فلسطيننا، وإن المدينة التي نسكنها هي أورشليمنا. وإننا لن نعود أبداً لتأسيس كيان قومي خاص ولا نقبل بأن يُسقط علينا غيرنا ما يريدونه هم أنفسهم لنا».

وكان بلاكستون قد أثار قلق اليهود حين وصفهم بأنهم مجرد مقيمين mere sojourners في الولايات المتحدة. ثم تجلت المعارضة اليهودية للمشروع الصهيوني الأميركي في افتتاحية كتبتها صحيفة «نيويورك صن» قالت كما ذكر مارنين فينستين Marnin Feinstein في «الصهيونية الأميركية: ١٨٨٤ ـ ١٩٠٤ The American Zionism...:

> «إن غالبية اليهود يرفضون إعادتهم إلى فلسطين وإن على الولايات المتحدة أن لا تحشر أنفها في ما لا يعنيها... فاقتراح فصل اليهود وعزلهم وتكديسهم في فلسطين مشابه لذلك المشروع القديم الذي يقترح ترحيل الزنوج إلى أفريقيا. وهذا ما يعرفه اليهود جيداً. إن هذه المشاعر المتلبسة بتعابير الخير والإحسان ليست في النهاية إلا مظهراً من مظاهر اللاسامية، ولن يسعد بها إلا العصبة الألمانية لمعاداة السامية. أما اليهود فإنهم لا يؤيدون هذه الفكرة، ولا يؤيدون فكرة الصهيونية نفسها، فهم بألف خير حيث يعيشون، وإن لديهم من الحس العملي ما يمنعهم من التضحية بما ينعمون به الآن لمجرد أن يحتلوا بلداً.

ووقفت حركة الإصلاح اليهودية وصحافتها في وجه المشروع بقوة. وحين كشف ليون زولوتكوف Leon Zolotkoff رئيس

تحرير صحيفتهم الناطقة باليديش عن الطبيعة الإرسالية التبشيرية لبلاكستون ومعظم الشخصيات الأميركية التي وقّعت على رسالة «فلسطين لليهود» وعن معاداتهم للسامية وقف معظم يهود أميركا ضد المشروع باستثناء منظمة ما يعرف بعشاق صهيون Hovev Zion البراغماتية التي مدحت الرسالة وانتقدت بعدها التبشيري المعادي للسامية. وكان مما قاله زعيمها ولف شُر Wolf Schur رئيس تحرير *Ha Pisga*:

> «دع هؤلاء المسيحيين يفعلوا ما يستطيعون لمساعدتنا على استيطان فلسطين، أما مسألة إيماننا فلنترك حلها إلى حين عودة الأليجا. وعندها سيرون ما إذا كان حلمهم سيتحقق أم لا».

وهذا ما صار يجسد موقف اليهود من كل المتحمسين لتجميعهم في فلسطين بهدف تعميدهم في آخر الزمان كما يقول ياكوف أرييل.

أما صحيفة «حركة لإصلاح» *The Jewish Messenger* فكتبت في افتتاحية ١٣ آذار/مارس ١٨٩١:

> «إننا لسنا شعباً على الإطلاق بل نحن جماعة دينية. وإننا نحب أن نذكر السيد بلاكستون بأن اليهود أقلعوا عن الحلم بفلسطين لحسن الحظ أو لسوئه، ونظن أنه لحسن الحظ. إن ديانة أشعيا تحتاج إلى متسع أكبر من الأرض؛ تحتاج إلى عالم أرحب من ذلك الشريط الضيق من الأرض... ثم إن هذه الدولة التي يقترحونها لنا ستؤجج مشاعر العداء للسامية وتثير الشكوك في مواطنية اليهود».

لكن بلاكستون، ومعه معظم الذين وقعوا على رسالة «فلسطين لليهود»، لم يحفل بهذا الصد اليهودي بل أعلن عن عزمه على «إحياء إسرائيل»، أراد يهود اللحم والدم أم لم يريدوا، كما ذكر فينستين. لهذا بدأت نزعته القيامية تتوجه إلى القوى الاستعمارية الكبرى فتحك جَرَبها وتضع مشروع إحياء إسرائيل في إطار حركة إنسانية مفيدة للأمم الأوروبية اقتصادياً واستراتيجياً ومتماشية مع القانون الطبيعي؛ صرعة القرن:

> إن إعطاء هذا البلد الاستراتيجي [فلسطين] للشعب اليهودي الحيوي، في ظل حماية دولية، سيرضي طموحات كل الدول الكبرى. فهذه الدولة التي لن تعيش إلا بالحماية الدولية ستؤمن مصالح ومطامح كل الدول الكبرى في تلك المنطقة من العالم... ولطالما كانت فلسطين بلاد خير وعطاء. وها هي أمطارها تزيد في هذه الأيام. وهناك دلائل على أن الأرض تستعيد خصبها القديم. إن إعادتها إلى ذلك المجد التاريخي الغابر ليس مستحيلاً بل يمكن التخطيط له في مؤتمر دولي تعقده الدول الكبرى. ففلسطين مثل رومانيا واليونان ومونتنيغرو [جزء من يوغسلافيا السابقة] يمكن انتزاعها من الأتراك وإعادتها إلى أصحابها. وعلينا أن نتذكر أن اليهود عاجلاً أو آجلاً سيؤيدون جهودنا لإعادتهم إلى وطن آبائهم وأجدادهم. ومادام معظمهم يعيشون بيننا فإن «إحياء إسرائيل» يعنينا أكثر مما يعني أي دولة أخرى في العالم. لقد آن لأميركا أن تنقل عقيدة «القدر المتجلي» Manifest Destiny [التي اكتسحت بها أراضي الهنود وأبادتهم] إلى مسرح العالم».

كان الرئيس ترومان كما يقول عنه الرئيس كلينتون قاسي القلب، غير أنه ــ بعد نجاح أميركا في استصدار قرار التقسيم ــ جاءه كبير حاخامات إسرائيل ليشكره ويعبر عن عظيم امتنانه فما كان منه في تلك المناسبة التي اعتبرها من أعظم مفاخر أميركا إلا أن سالت دموعه على خديه. إن فكرة إسرائيل تسكن فكرة أميركا منذ عهدها الاستعماري الأول كما يقول وليم مارتن William Martin في «ومعنا الله» With God on Our Side. وقد تركت بصماتها العبرانية على سياسة كل رؤساء أميركا من جورج واشنطن إلى جورج بوش، وعلى كل مفاصل التاريخ الأميركي من «ميثاق مايفلور» عام ١٦٢٠ إلى «عقد [الحزب الجمهوري] مع أميركا» عام ١٩٩٤. وهذا ما سأستكمله لاحقاً عندما سنكتشف أن ما يسمى بالتلمود اليهودي ليس أكثر من فقرة مسالمة من تلمود العم السام، وأن تجربتنا الدموية مع العبرانيين اليهود في «أرض إسرائيل» هي العتبة إلى جهنم أصدقائنا العبرانيين الإنكليز على طرفي المحيط. إنها مجرد مشهد بدائي بري من حرب الإبادة الجسدية والثقافية التي ظلوا منذ الثورة البيوريتانية يتعطشون لدمائها وينفخون في صورها ويعدون لقيامتها في «أرض إسرائيل وإسماعيل وإبراهيم».

* * *

أكثر من ألفي سنة و«فكرة إسرائيل» تعيش في الفانطازيا وتطردها الأحلام إلى الأوهام. ولعلها كانت ستبقى في هذه الفانطازيا إلى نهاية التاريخ لو لا أن «فكرة أميركا» ــ فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة ــ استوعبتها وبنتها على الحقيقة وأعدت أدواتها و«معقوليتها» وتجربتها العملية قبل أن تنبت لحية هرتزل بعدة قرون.

هذه التجربة التي جسدتها فكرة أميركا في قصة مدينتين: واشنطن ونكن شتنكه، ثم ترجمتها إلى العبرية، كانت أثمن من كل الأساطيل والأسلحة وأنهار الدولارات التي أهداها أصدقاؤنا العبرانيون الإنكليز على طرفي المحيط إلى دولة «نهاية التاريخ العربي» في فلسطين لتحقق بها في خمسين سنة ما حققوه في خمسة قرون.

أما الصداقة الحميمة التي افتتحت لهم ما استعصى على «قلب الأسد» وما أهلك أصحاب الفيل، ويسرت لهم افتراسنا تحت جنح العباءات، فإن جهنمها لم تمتلىء بعد. وما يزال ليل العشاق طويلا حتى مطلع سورة النور.. طويلاً حتى نشقّ الظلام عن الصبح بأظافرنا أو نرقدَ بسلام دائم كما يرقد شعب كونوي مع عضويات الوحول والطمي والغضار تحت المدن والمزارع والحقول التي كانت ذات يوم مدننا ومزارعنا وحقولنا وملاعب وجودنا.
إنه صقيع الموت الأپاشي يلفح وجه القطعان.

واشنطن، ١٩٩٧



القسم الثاني

أمبراطورية الله(*)

(*) العنوان God's Empire هو عنوان كتاب لوليم ترولنغر William Vance Trollinger, Jr. يتناول فيه كما تقول بقية العنوان: History of American Thought and Culture تاريخ الفكر والثقافة في أميركا. وهو من منشورات جامعة وسكنسون.



الفصل الأول

حدود الأمبراطورية

حين يريد الإنسان أن يتصرف وكأنه الله فإنه
سيتصرف وكأنه الشيطان

ك.م أبنهايمر K. M. Abenheimer
في دراسته لـ«عاصفة» شيكسبير، ١٩٤٦

يقولون إن الحرب جهنم وأن السلام جنة
لكننا نعرف جميعاً أن هذا كذب.
فالحرب هي الجنة والسلام هو الجحيم..

جيمس شليزنغر، ٢٠٠٣

عندما كلم الله الرئيسَ الأميركي الخامس والعشرين وليم مكنلي William Mckinley في ردهات البيت الأبيض[1] وسأله أن يحرر الفيليبين ويضمّها إلى الولايات المتحدة وينقذ أهلها من ظلمات الوثنية والهمجية، كان الكونغرس يخوض حرباً كلامية طاحنة حول تعريف «الأمبراطورية الأميركية». في ذروة تلك الحملة العسكرية التي احتفلت أميركا بعيدها المئوي قبيل تحرير العراق، ألقى السناتور ألبرت بيفردج Albert Beveredge كلمة أمام

الكونغرس أوضح فيها المعاني القدرية للتوسع الأميركي في «أعالي البحار» والأمانة التي أودعها الله في أعناق شعبه الأنكلوسكسوني لإعادة صياغة العالم. وفي خطابه «مسيرة العَلم» The March of the Flag الذي يُعتبر من آيات البلاغة الأميركية ومحفوظات تلاميذ المدارس وأحد أكثر النصوص «الوطنية» تأثيراً في الرئيس الحالي جورج بوش، يقول السناتور بيفردج:

> ما جعلنا الله شعبه المختار إلا لكي نعيد صياغة العالم... [ولا شك في أن ضَمّنا للفيليپين] سيوفر للجمهورية الأميركية هيمنة مطلقة وأبدية في المحيط الهادي وفي الشرق... إن آباء هذه الأمة لم يكونوا إقليميين، بل كانت أعينهم على كل جغرافيا العالم. كانوا جنوداً كما كانوا عَمّارين. وكانوا يَعلمون أن رايتَنا يجب أن ترفرف حيثما ترسو سفننا. ولأنهم كانوا ينعمون بروح التقدم فقد عرفوا أن الجمهورية التي أحسنوا غرسها، وفقاً لقوانين عِرقنا التوسعي، ستصبح هذه الجمهورية العظيمة التي يراها العالم اليوم، ثم ستصبح أقوى جمهورية يعترف العالم بحقها في أن تكون وصياً على مصائر الجنس البشري. لهذا كتب آباؤنا في الدستور كلمات مثل «النماء»، و«التوسع»، و«الأمبراطورية» دون أن يحدّوا ذلك بجغرافيا أو بمناخ، بل تركوا [رسم الحدود] لحيوية الشعب الأميركي وإمكاناته.

> يا سيدي الرئيس، [مسألة احتلال الفيليپين وضمها...] هي مسألة جوهرية. إنها مسألة عنصرية. إن الله لم

يشملنا نحن ـ أبناء اللسان الإنكليزي والتوتونيين [يتنازع الإنكليز والألمان حول الانتماء إلى هذا النسب] ـ بالعناية والرعاية على مدى آلاف السنين لمجرد أن نشعر بالزهو والخيلاء والإعجاب بالذات. لا، بل أنعم علينا بذلك لأنه أراد أن يجعلنا الأسياد الذين يعيدون صياغة العالم ويضعون النظام حيث تسود الفوضى. إنه لم ينعم علينا بروح التقدم إلا لندحر قوى التخلف في كل أرجاء الأرض. لقد جعلنا محنكين في تدبير الحكم حتى نستطيع أن ندير شؤون الدولة بين الشعوب الهمجية. فلولا هذا السلطان لعاثت في الأرض قوى البربرية والظلام. إنه لم يجعل من الأمة الأميركية شعبه المختار إلا لكي يحارب من أجل إعادة صياغة العالم. هذه هي رسالة السماء لأميركا التي ستغدق على الإنسان المجد والسعادة والخيرات. إننا الأمناء على تقدم العالم، وإننا حرّاس سلامه الميمون... إن الراية لم تتوقف قط في زحفها إلى الأمام، فمن يجرؤ على أن يوقفها الآن؟ ...

وعهداً مع الله، لن نتخلى عن هذه الرسالة التي وضعها الله في أعناقنا نحن الجنس الوصيّ على حضارة العالم(٢).

كان «شعب الله» الذي ختم زحفَه القارّي وأكمل تحرير الشمال الأميركي من ڤرجينيا شرقاً إلى كاليفورنيا غرباً يودع قرناً ويستقبل قرناً جديداً، حائراً بين الحفاظ على صفائه العرقي وبين «رسالته الأمبراطورية» التي لا تعترف بحدود أو سدود. وكانت بشائر

زحفه البحري لتحرير الفيليبين وبورتوريكو وكوبا وهاوائي امتحاناً جديداً لكل القوى التي تمسك بخيوط السياسة الأميركية، وفي طليعتها قوتان: أولهما قوة «ثروة الأمم» الباحثة عن استثمارات جديدة وأسواق جديدة ومناجم فحم جديدة، وثانيهما قوة «القدر المتجلي» Manifest Destiny؛ قوة النزعة الأمبراطوية التوسعية التي تعتقد أن القدر هو الذي أراد لـ «فكرة أميركا» أن تعم العالم دون التفريط بنعمة «الاختيار الإلهي» و«التفوق العرقي» الأنكلوسكسوني. وقد احتدمت المعركة الأيديولوجية بين القوى الرئيسية التي تتفق جميعاً على ضرورة التوسع مهما كانت التضحيات، بينما تختلف في حدود رسم مصير الشعوب «المنحطة» المرشحة للتحرير، وتتباين آراؤها في الحدود الفاصلة بين الأمبراطورية الأم في القارة الأميركية وبين الأمبراطورية «الرسالية» التي أراد لها الله أن تشمل كل بقاع الأرض دون استثناء.

إلى جانب السناتور بيفردج كانت هناك مجموعة تعتقد أن ضم الفيليبين وغيرها من المجاهل البحرية لن يتعارض مع «إعلان الاستقلال»، وأن ما يسمى بـ«السقوط في الحساء الآسيوي المخبّص» mess of Asiatic pottage لن يشكل خطراً على الصفاء العرقي الانكلوسكسوني، وذلك استناداً إلى تجربتهم الناجحة مع الحساء الهندي داخل القارة نفسها. وكان هؤلاء (مُمَثلين بالسناتور وليم جننغز برايان William Jinnings Bryan وريتشادر آولني Richard Olney وجورج هوَر George F. Hoar) يريدون ضم بورتوريكو وهاوائي وكوبا وكندا، ولا يرون حرجاً في تكسير «صحون الحساء» البشرية على اختلاف مذاقها، كما أشار كريستوفر لاش Christopher Lasch صاحب «ثقافة النرجسية» *The Culture of Narcissism* في مقالة له بعنوان «ضد

الإمبرياليين: الفيليبين ولا تَساوي البشر»[٣]. فقد لاحظ لاش أن «كل الأطراف المتصارعة على معنى الأمبراطورية الأميركية كانوا يؤمنون بعدم المساواة بين الأعراق البشرية ويعتقدون أن ذلك من مسلمات الطبيعة». وهم في ذلك يتبارون مع الأيديولوجيات العرقية التي كانت تبرعم في أوروبا انطلاقاً من عقيدة الاختيار والتفوق العرقي، وتبرر عنفها بمقولات مستمدة من النصوص القيامية تارة ومن نظرية «النشوء والارتقاء» وعلم الطبيعة تارة أخرى. ويخصص آرثر مندل Arthur P. Mendel في كتابه: «الرؤيا والعنف» *Vision and Violence* فصلاً كاملاً لهذه النزعة القيامية العنيفة التي تعتمد فيما تعتمد على مسلمات الطبيعة في فكر معاصري «تحرير الفيليبين»[٤] فيرى أن النازية والفاشية اللتين حاولتا التخلص من صحون حساء الأمم الأضعف آمنتا أيضاً بأن الحروب، وفكرة العنف القيامي، وعدم المساواة بين البشر، وهيمنة الأسياد على العبيد، ظواهر موجودة لأنها يجب أن توجد، ولأنها مرآة للأساليب التي تؤكد بها الطبيعة على «بقاء» survival الأقوياء، ويستشهد بقول هملر: «نعم أيها السادة قد تعتبرون ذلك قسوة، لكن الطبيعة نفسها قاسية»[٥].

في أوج هذه المعركة الحامية حول الفتح والضم أثار بعض رجال الكونغرس مخاوفهم من ابتذال الحقوق الدستورية بحيث يتساوى أمامها أبناء الشعب المختار وأبناء الأمم الضعيفة، وتساءلوا عما إذا كان من الواجب أن يواكب الدستورُ حركة السفن الحربية الأميركية. يومها (٢٠ شباط/فبراير ١٩٠٠)، أشار السناتور فرانسيس نيولاندس Francis G. Newlands إلى أن ما يميز أنصار التوسع الأمبراطوري من أعدائه أن الإمبريالي يريد أن «يوسع في أرضنا ويضيّق على دستورنا». أما عدو الإمبريالية فيتوهم أن التوسع

في الأرض سيقتضي بالضرورة أن تصبح هذه الشعوب الضعيفة الجاهلة التي تسكنها عبئاً ثقيلاً على الحكومة الدستورية مما سينسف أبهى التقاليد القانونية والثقافية والعرقية في الاتحاد [الولايات المتحدة][٦]. وفي موسم الميلاد من ١٨٩٨ خاض شارل فرانسيس آدامس جنيور Charles Francis Adams Jr. غمار هذا النقاش بخطابه الشهير «الإمبريالية ومسارات آبائنا المؤسسين» فأكد من جديد على أن العنف المقدس يلازم «فكرة أميركا» التي نسخها الإنكليز عن «فكرة إسرائيل» التاريخية. ونبه أدامس إلى خطر الضلال عن سنة الحجاج القديسين (المستعمرين الأوائل) والانحراف في معالجة المسألة الأمبراطورية بعيداً عن المركزية العرقية وعقيدة الاختيار. وقد استهل خطابه بشاهد من أول عيد ميلاد أحياه هؤلاء الحجاج القديسون في پليموث، وذلك «لكي يتأسى بنو إسرائيل الذين ضلوا السبيل بهدي أجدادهم»:

> إننا إذ نغادر الماضي اللانهائي لنلقي بأنفسنا في خضم المستقبل المجهول لا بد لنا من أن نعيد النظر في مسيرتنا وحصيلة أعمالنا كما فعل بنو إسرائيل من قبل»... فمنذ الأيام الأولى في [مستعمرة] وِسّاغوسِت Wessagusset وحرب [هنود] البيكو وحتى آخر انتخابات جرت في كارولينا الشمالية من ١٦٢٣ حتى ١٨٩٨ كان التعامل مع الأعراق الدنيا بالسكين والبندقية هو الأجدى ... نعم! كانت عملية إبادة a process of extermination ... ولكنها، لهذا السبب إياه، كانت خلاصاً للعرق [الأنكلو سكسوني] وطهوراً لصفائه. لقد حفظت نِجارَ الأنكلوسكسون من التهجين[٧].

وهذا ما رآه السناتور هور Hoar ممكناً في الفيليپين[٨].

> فلماذا لا تستمر عملية الإبادة أثناء التوسع خارج القارة إذن؟ ألم يكن خطر التهجين ماثلاً لآبائنا عندما عبروا ثبج المحيط [الأطلسي] إلى العالم الجديد؟ لماذا يجب على أبنائهم الآن أن يتهجنوا وهم يعبرون محيطاً آخر ليتعاملوا مع سكان محليين آخرين؟[٩].

عندما ناقش الكونغرس مسألة ضمّ هاوائي في ٥ تموز/يوليو ١٨٩٨ لم يتردد السناتور هور في تأييد مشروع الضم بحجة أن في هاوائي مبشرين من اليانكي ومزارعين بيضاً عبّدوا طريق الضم. وحين سئل:

ــ ولكن ماذا لو أن أهل هاوائي رفضوا الضم؟

أجاب: هذا لا يعني شيئاً. ماذا جرى عندما رفض هنود تكساس وكاليفورنيا ونيومكسيكو وألاسكا أن ينضموا إلى الاتحاد؟ إن الاعتماد على آرائهم مثل الاعتماد على آراء أطفال الميتم أو مدارس المعتوهين[١٠].

بهذه الروح «الأمبراطورية الرسالية» لم يستطع السياسي والكاتب المتنفذ وايتلو ريد Whitelaw Reid (أحد أبرز المتنفذين لدى الرئيس مكنلي، وهو الذي قدمه في مهرجان تنصيبه) إلا أن يؤكد أن الفيليپين أرض أميركية. لقد وبّخ أولئك المشككين في قدر أميركا المتجلي وحقها في التوسع، وكتب في مقالة شهيرة له: «إن ملكية الأمة الأميركية للفيليپين كملكيتها لكاليفورنيا، لا نزاع عليها»[١١]. وبالطبع لم يكن هناك من يشك في أن ريد كان مرآة

للأخلاق الأميركية ولتراث الحجاج والقديسين الذي يرى أن تملك شعب الله للأرض «المفتوحة» ليس حقاً إلهياً وحسب، بل هو أيضاً حق طبيعي تفرضه القوة أو ما صار يعرف منذ عام ١٦١٠ بحق الفتح Right of Conquest الذي يتضمن حق الضم.

وعندما تسلم الرئيس روزفلت سدة البيت الأبيض بعد اغتيال مكنلي لم يفارق سياسة سلفه، فهو الوصي الأمين الجديد على «فكرة أميركا» وطقس عنفها المقدس، وهو صاحب الكلمة الشهيرة: «إن تاريخ الأمة [الأميركية] بشكل عام هو تاريخ التوسع»[١٢]، وهو فوق ذلك كله مَن مدح الجنرال أدنا شافي Adna R. Chaffee (محرر الفيليپين) بأنه كان يغسل يديه بدم النساء والأطفال[١٣]. لهذا فقد استهجن الضجة المثارة حول الزحف البحري الذي يقتضيه قدر أميركا المتجلي، واستنكر فكرة التساؤل عن ضم الفيليپين وغيرها من جذورها، لأنها تناقض «حق الفتح» وتشكك بفكرة أميركا، واعتبر أن «وجود الجيش الأميركي في الفيليپين من الناحية العسكرية والإمبريالية مثل وجوده في [ولاية] داكوتا ومينسوتا ووايومِنغ، لا أكثر ولا أقل»[١٤].

* * *

في كتابه «السود الأميركيون وعبء الإنسان الأبيض» نشر ويلارد غايتوود Willard B. Gatewood بعض الرسائل التي كتبها الجنود الأميركيون السود إلى ذويهم من الفيليپين شهدوا فيها على جرائم القتل والتعذيب التي ارتكبها جيش التحرير، وفضحوا الشتائم العنصرية التي شملت كل من ليس بأبيض سواءً كان فيليپينياً أو جندياً أميركياً. وأشارت هذه الرسائل إلى نماذج من أوامر القتل والتعذيب التي تلقوها. من ذلك أن ضابطاً أسود كتب إلى زوجته

أنه أخضع الفيليپينيين إلى حفلات تعذيب، بينما اعترف ضابط آخر بأن التعليمات كانت تقول إن كل أعداء أميركا [هنوداً أو فيليپينيين] متشابهون، وأننا لهذا مضينا في القتل... حتى إننا لم نعد نستطيع التمييز بين الإمبريالية والعنصرية[١٥]. أما رسائل البيض إلى ذويهم فرسمت بعض الصور الحية للمعنى الرسالي لفتح الفيليبين، مؤكدة على أنها استمرار لفتح كنعان الإنكليزية وتكرار لحروب الهنود، ففي ٢٠ آذار/مارس كتب الضابط A. A. Barnes رسالة إلى أخيه يخبره فيها كيف أحرقوا بلدة تيتاتيا Titatia وقتلوا فيها حوالى ألف رجل وامرأة وطفل. ثم باح الضابط لأخيه: «إن قلبي يزداد قسوة.. وإنني لأحس بالفخار وأنا أصوب بندقيتي على ذوي البشرة الداكنة وأسحب الزناد...»[١٦]، بينما فضل ضابط آخر في حديثه مع المراسل هنري نلسون Henry L. Nelson أن يكون أكثر واقعية واعتزازاً، فقال متسائلاً: «ما الفائدة من غمغمة الكلام والحديث المواربِ؟ إذا قررنا أن نبقى هنا فلننس عذاب الضمير، ولنترفع عن مثل هذه المشاعر، ولنكفّ عن التردد في استخدام القسوة، ولننس رأي هؤلاء الذين نريد أن نحكمهم... ولنبق. لقد أبدنا الهنود الأميركيين. وأعتقد أننا جميعا فخورون بذلك، أو أننا على الأقل نؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة. وعلينا، إذا لزم الأمر أن لا نتردد أبداً في مسألة إبادة أي عرق آخر يقف في وجه التقدم والتنوير[١٧].

وكان عدد من شهود المذابح ومرتكبيها (ومعظمهم ممن أبلى بلاءً حسناً في حروب الهنود) قد بينوا أمام لجنة تحقيق الكونغرس أن حملة تحرير الفيليبين لا تختلف في نتائجها عن حملة تحرير الهنود وأنها في طبيعتها ومبرراتها وأيديولوجيتها وأخلاقها نابعة من «فكرة

أميركا»[١٨] نفسها.

الجنرال وليم تافت William Taft: إن حكمنا للفيليبين لن يختلف عن حكمنا للهنود... وإن مقاومة الفيليپينيين جريمة ضد الحضارة. ثم استشهد بجون إنديكوت John Endicott أحد أبرز قديسي الاستعمار الإنكليزي الأول للعالم الجديد: «إنها جريمة لأنها تحول بين شعبهم وبين الحضارة وتحول دون خلاصهم من عذاباتهم»[١٩].

الجنرال غولدوين سميث Goldwin Smith: «إن معاملتنا للهنود يجب أن تكون مثالاً يحتذى في علاقتنا مع الفيليپيين وغيرهم من الشعوب الضعيفة. وكما جرى مع الأباشي، فإن العم سام سيتولاهم بالطريقة المناسبة»[٢٠].

الجنرال آرثر مكآرثر Arthur McArthur: إن الفيليپين ليست مستعمرة أو أرضاً جديدة بل ملحق تربوي! [اختباري]. إن قدر عِرقنا هو الزحف غرباً إلى أن يُتم دورة الأرض كلها ويعود إلى مهده [في الجزيرة البريطانية][٢١].

الأسقف جيمس ثوبرن James Thoburn: نعم يجب أن نحكم الفيليپينيين بدون إرادتهم، وبالقوة. إننا نعمل وفق هذه النظرية لأكثر من مئة عام مع الهنود. الشعبان كلاهما سقطا في أيدينا بنعمة الحرب[٢٢].

الكولونيل آرثر لوكوود واغنر Arthur Lockwood

> Wagner: [حين سأله السناتور بڤردج: هل من قواعد الحرب أن تحرق مدناً وقرى كاملة، وهل تعتقد فعلاً أن أهل هذه البلدان والقرى يستأهلون هذا الدمار؟ أجاب:] نعم، عندما تكون البلد عشاً للمتمردين، ويكون من الصعب إقناع الناس بتسليمهم لا بد من تدمير البلد وحرقها. نعم، هذا معقول ومبرر. صحيح أننا قتلنا ودمرنا ممتلكات الأبرياء، ولكن ألم يفعل الله ذلك بسدوم وعمورة؟

> [وقال السناتور: يا للعجب لقد كنت أنا أيضاً أفكر بعبرة سدوم وعمورة][٢٣].

لم تكن سياسة «اقتل واحرق» kill and burn التي أرساها الجنرال مكآرثر في الفيليپين ولا أوامر الجنرال جاكوب سميث Jacob Smith بقتل كل من هو فوق العاشرة علامة على التردد في «مسألة إبادة هذا العرق الآخر الذي يقف في وجه التقدم والتنوير»، بل كانت ككل حروب التوسع الأميركية نابعة من «فكرة أميركا» نفسها واستمراراً لأيديولوجية «حق الحرب»التي سنها مستعمرو جيمستاون في ١٦١٠ أو «الحرب الوقائية» في ترجمتها الحديثة. فبعد مذبحة جزيرة سامار ابتهجت وسائل الإعلام البيضاء ببطولات الجنود والضباط، فنشرت *Phialdelphia Ledger* رسالة حية من ضابط قال فيها: «كان رجالنا أشداء. وقد قتلوا بهدف إبادة to exterminate الرجال والنساء والأطفال والأسرى والمعتقلين والمشبوهين من سن العاشرة فما فوق. هناك قناعة بأن الفيليپينيين ليسوا أفضل من الكلاب بكثير»[٢٤]. وحين أمر الجنرال سميث بقتل كل من هو فوق العاشرة في جزيرة سامار Samar

(ثالث أكبر جزر الفيليپين) وتحويلها إلى مجاهل مقفرة howling wilderness لم يتردد في القول بأنهم مجرمون «وأن جريمتهم هي أنهم ولدوا قبل عشر سنوات من امتلاك الولايات المتحدة للفيليپين»:

«Criminals because they were born ten years before we took the Philippines».

وقد كان هذا التصريح العنوان الرئيسي لكثير من صحف الولايات المتحدة التي نشرته وسط أجواء الذهول والفخار. كما نشرت نص أوامر الجنرال التي أتت على كل ما في الجزيرة من مدن وقرى وأبادت ٥٥ ألفاً من سكانها (انخفض عددهم من ٣١٢١٩٢ إلى ٢٥٧٧١٥ نسمة) لم ينج منهم إلا الذين فروا إلى الغابات:

> لا أريد أسرى. أريدكم أن تقتلوا وتحرقوا. ولكي تسعدوني فإن عليكم أن تقتلوا وتحرقوا كل ما تستطيعون قتله وإحراقه. أريدكم أن تقتلوا كل من تعتقدون أنه قادر على حمل السلاح ... اقتلوا كل من هو فوق العاشرة[٢٥].

في برقية لوكالة الأسوشييتد پرس، وصف مراسلها حملة «تحرير» الفيليپين التي تلقى الرئيس مكنلي أمرها من الله في ردهات البيت الأبيض، والتي وصفها السناتور بڤردج في خطبته العصماء بأنها اضطلاع بالأمانة التي أودعها الله في أعناق شعبه الأنكلوسكسوني لإعادة صياغة العالم.. بأنها «عملية لصوصية ... ودمار وحشي للمتلكات، لا أكثر ولا أقل»[٢٦].

الهوامش

(١) Richard Drinnon, *Facing West...*, (University of Oklahoma Press, Norman and London,1997) P. 279.

(٢) راجع الخطبة كاملة في:

Albert J. Beveridge, *The Meaning of the Times, and Other Speeches* (Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1908), pp. 47-57.

(٣) *Journal of Southern History*, XXIV (August 1958), pp. 319-331.

(٤) Arthur P. Mendel, *Vision and Violence*. (The University of Michigan Press, Ann Arbor 1999). pp. 195-221.

والكتاب إجمالاً غني بالمعلومات حول ظاهرة العنف، إلا أن مؤلفه الذي مات قبل أن يشهد كتابه النور يكيل بمكاييل مختلفة فيتعسف في التفسير والتبرير لصالح النصوص الكلاسيكية العبرانية وقصص عنفها، مما يوحي ــ قياساً على منهجه نفسه ــ بأنه متحامل على المسيحية.

(٥) Ernst Nolte, *Three Faces of Fascism*, (New American Library, 1969), p. 499, 503.

وقد أكد هتلر نفسه على هذه المسلمات «الطبيعية» التي تعلل بها أنصار «تحرير» الفيليبين، إذ كان هو أيضاً يرى أن «كل عمل الطبيعة هو صراع عنيف بين القوة والضعف.. وانتصار أبدي دائم للقوي على الضعيف... إن القوة هي القانون الأولي في الطبيعة. فالقوي في شرع الله وشرع الطبيعة هو الذي يملك الحق في أن يفعل ما يشاء. إن ظاهرة الصراع قديمة قدم الحياة نفسها، فالحياة لم تستمر إلا لأن بعض الأحياء الأخرى اختفت. والإنسان نفسه لم يستمر في الحياة ولم يتحكم بالحيوانات عبر المبادىء والقيم الإنسانية، بل عبر صراع قاس ومميت ...هذا المخلوق يشرب دم ذلك المخلوق... وفي موت هذا حياة لذاك ... فلا تشفق على أحد». راجع:

Alan Bullock, *Hitler: A Study in Tyranny* (London, Adams Press, 1952), p. 239.

(٦) Congressional Record, XXXIII 1996.

(٧) Charles Francis Adams "*Imperialism*" and "*the tracks of our*

forefathers"; a paper read by Charles Francis Adams before the Lexington, Massachusetts, Historical Society, Tuesday, December 20, 1898. (Boston, D. Estes & Company, 1899) p.16.

(٨) Congressional Record, XXXIII 714.

(٩) Drinnon, 310.

(١٠) Congressional Record, XXXIII 6661-6663.

(١١) Thomas F. Gossett, *Race* (New York, Shocken Books, 1965) p.314.

(١٢) Drinnon 310.

(١٣) Howard Kennedy Beale,. *Theodore Roosevelt and the Rise of America to World Power*. Baltimore, Johns Hopkins Press, 1956. p.67.

والمعروف أن روزفلت كان مساعداً للجنرال شافي في حملة الصين، وكان يومها برتبة كولونيل. ولهذا فإن وجود الجنرال شافي في الفيليبين وصديقه «الكولونيل» روزفلت في البيت الأبيض حوّل الفيليبين إلى مسلخ حر.

(١٤) Drinnon, 312-313.

(١٥) Willard B. *Gatewood, Black Americans and the White Man's Burden*, 1898-1903 / (Urbana University of Illinois Press, c1975.) p. 230-231.

(١٦) Moorfield Storey & Julian Codman, *Marked Severities in Philippine Warfare* (Boston: G.H. Ellis, 1902) p. 25.

(١٧) Ibid, p.99.

(١٨) بأهدافها الثلاثة: احتلال أرض الغير، واستبدال أهلها، واقتلاع ثقافتها وتاريخها.

(١٩) *Hearing before the Senate Committee on the Philippine Islands*, 57th Congress, first session, 1902. Vol.I, p.329 and 79.

(٢٠) *Forum*, 26 (November 1898). 248.

(٢١) *Hearing before the Senate*, Vol. II, p.1919 and 868.

(٢٢) Ibid., Vol.III, p.2705.

(٢٣) Ibid., p.2758-2758.

(٢٤) *Phialdelphia Ledger*, November 11, 1901.

(٢٥) *New Evening Journal*, (May 5, 1902), rpt. Literary Digest 24 (May 17, 1902).

(٢٦) Storey & Codman, p.11.



الفصل الثاني

موسى العصر والنزعة القيامية

هناك مد من السعادة يغمر هؤلاء القياميين أمام صورة دمار العالم. إنهم يعتقدون أن شرارة هذا الدمار هي الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وهم بسبب هذه القناعات يشجعون أكثر السياسات تطرفاً وخطراً تستطيع الحكومة الاسرائيلية أن تنهجها بما في ذلك استخدام الأسلحة النووية ضد العرب.

ريتشارد پوپكين، ١٩٨٦

خطبة السناتور بڤردج «التي كانت تمثل الأخلاق الأميركية في مطلع القرن العشرين»[١] هي في اعتقاد مؤلفَيْ «كابتن أميركا» Captain America روبرت جويت Robert Jewett وجون لورنس John Shelton Lawrence المثال الذي يعبر تعبيراً صادقاً عن تفكير الرئيس الحالي بوش وعن نزعته القيامية apocalyptic إلى العنف[٢]. إن منطق بوش الذي يقول إن الله كلّمه هو أيضاً وأمره بتحرير العراق يتماهى في نظرهما مع ما يسميانه بـ«المسيائية الأميركية» American messianism التي يعتبرانها صورة من صور «الدين المدني» في أميركا، وهو الدين الذي تمتد جذوره إلى أعماق

المرحلة الاستعمارية الأولى المشبعة بالمعاني والبطولات العبرانية. أما قناعة الرئيس بوش بأن العنف هو الوسيلة الوحيدة لإعادة صياغة العالم فمنسجمة مع «فكرة أميركا» نفسها ومستمدة ــ كما يعتقد الكاتبان ــ من كتاب الرؤيا (أو القيامة)[٣] الذي كان له تأثير كبير على أيديولوجية [المستعمرين الإنكليز المعروفين باسم] البيوريتان، وكان من أبرز النصوص المقدسة التي تركت بصماتها على التجربة الأميركية[٤]. ولجيفري سيكر Jeffery S. Siker أستاذ الدراسات اللاهوتية في جامعة ماريمونت Marymount دراسة طريفة لصورة الرئيس بوش عن نفسه يكشف فيها عن قناعة الرئيس بأنه «موسى العصر الذي كلمه الله هو أيضاً وأمره بإنقاذ شعبه الأميركي كما أنقذ موسى شعب الله الإسرائيلي من فرعون ... وإنه يرى أن أميركا هي إسرائيل الجديدة التي أرادها الله أن تكون شعبه المختار، وأن تكون صاحبة رسالة إلى العالم»[٥]. وكان بوش قد روى في كتابه عن نفسه[٦] كيف أن لشخصية موسى أثراً كبيراً في قناعاته الدينية وقيادته السياسية، وكيف جاءه نداء الله God's call في أوستن وهو يستمع إلى الواعظ مارك كريغ Mark Kraig فأحس بأنه يخاطب قلبه وعقله[٧]، ويُعد له المعجزات. من آيات ذلك أن الشمس انكشفت له من وراء السحب بينما كان يؤدي اليمين لتولي حاكمية تكساس، تعبيراً عن مباركة السماء»[٨]. والكتاب كله سيرة للنعمة الإلهية providence التي رافقت بوش في حياته السياسية.

تعود قناعة بوش بأنه موسى العصر ــ كما يروي سيكر ــ إلى عام ١٩٨٦، حين أمضى ذات سبت وأحد مع بيلي غراهام Billy Graham أحد أنبياء الصهيونية الأنكلو سكسونية. ففي نهاية ذلك الأسبوع «ولد بوش من جديد» born-again روحياً وإيمانياً، وراح

يواظب على دراسة الكتاب المقدس حتى إنه أحضر كثيراً من رفاق الدرس معه إلى البيت الأبيض، ومنهم اثنان ممن يكتبون خطبَه؛ مايكل غيرسون Michael Gerson وآخر يصف نفسه بأنه مثقف يهودي كندي يدعى دافيد فرُم David Frum. وكلاهما شارك في كتابة خطابه الشهير عن «محور الشر»(٩) وبهّراه بآيات حبهما للعرب والمسلمين.

صورة بوش عن نفسه بأنه موسى العصر تنعكس أيضاً في لغته واستعاراته، كما فعل في ختام خطاب «حال الاتحاد» State of the Union Address أمام الكونغرس حين أشار إلى إسرائيل والدولة الفلسطينية، واستشهد بفقرة من سفر التثنية يتحدث فيها الله إلى موسى(١٠). (ومعروف أن الله تحدث إلى موسى من نار تلتهب في وسط العليقة، والعليقة بالإنكليزية هي بوش bush. وهذا ما زاد من ضرام البارانويا). انطلاقاً من هذه القناعة ماعت الحدود بين سياسة بوش وبين التدبير الإلهي فيما هو يقود جيش الله لينزل العقاب بعدو شيطاني شرير»(١١)، وأوغل في نزعته القيامية واستعاراته التي يختارها له رفاق الدراسة بعناية من «سفر التثنية» الحافل بالغضب والنكير واللعنة على الكنعانيين وغيرهم من حضارات شرق المتوسط(١٢)، وهي نزعة تقتضي العنف المميت الذي لا يرضى بأقل من تحرير الخصم من وجوده.

بإشارته إلى «محور الشر»، أثار بوش موجة من الاستهجان والقلق داخل الولايات المتحدة وخارجها. فبالإضافة إلى غرور القوة وعنجهيتها التي تسكن كلماته وحركاته وحدقتيه الأفعوانيتين، كان يعمم صفات الشر والخير على أمم بأكملها على غرار لعنات الكلاسيكيات العبرانية. هذه الثنائية «التي لا تسمح بالحوار ولا

ترضى بأقل من محق الخصم هي من عوارض حمّى الثنائيات القيامية الطافحة في سفر «الرؤيا أو القيامة»، وهو السفر الذي اعتمدته الصهيونية الأنكلوسكسونية على مدى قرون طويلة في رسم مشروعات دمار بابل ومشروعات «إعادة» يهود العالم إلى أرض آبائهم. إن بوش يستخدم هذه اللغة القيامية الحادة لأنه يعرف سلطانها على قلوب الأميركيين وعقولهم، ولأنه كما ترى إيلين بايغل Elaine Pagle أستاذة تاريخ الأديان في جامعة پرنستون، «يتصرف ظناً منه بأنه المسيا... إن لغته لا تدع مجالاً للشك في أنها تصوِّرُ عدواً لا بد من قتله»؟[١٣].

هذه النظرة «النِعموية» providetial التي يعرضها كتاب بوش عن نفسه وعن أميركا وتاريخها ومستقبلها ورسالتها تتجذر في المرحلة الاستعمارية الأولى حيث كان المستعمرون الإنكليز الأوائل يعتقدون أنهم إسرائيليون ويؤمنون بأن غزو العالم الجديد (أرض كنعان) وتطهيره من أهله (الكنعانيين الهنود) رسالة مقدسة وامتثال لإرادة الله. ومنذ موجة الحجاج الأولى و«الأمانةُ التي أودعها الله في أعناق شعبه الأنكلوسكسوني» تستقطبُ اللاهوتَ على اختلاف مشاربه وتعيد صياغته ليناسب المعنى الإسرائيلي لـ«فكرة أميركا»[١٤] نفسها. وقد صادف أن لغة «الرؤيا/القيامة» لا تقول جملة مفيدة، بل هي ــ لمن لا يعرفها ــ لغة حمّالة أوجه، وتذهب معانيها في كل اتجاه لتتنبأ بكل ما تخطط له تكساكو أو لوكهيد أو بوينغ أو بِكتل. وهذا ما ساعد على سيادة التفسير على النص المقدس، وسمح بالتجدد المستمر لهذا التفسير الذي خاض كل بحر لكنه أبداً لم يغادر مشاريع تجميع اليهود في فلسطين والحلم بتدمير بابل، تارة على الحقيقة وتارة بالمجاز.

مع ما يعرف بـ«الصحوة الكبرى» Great Awakening في المستعمرات الانكليزية الأميركية (٧٢٠ ـ ١٧٤٠) حدث انقلاب درامي في استقطاب «فكرة أميركا» لروح الدين، وفي تطويعه للرأسمالية المتوحشة والحلم الامبراطوري بحيث لا يسع المرء إلا أن يوافق مع هنري كاريغن Henry Carrigan مدير تحرير *Trinity Press International* بأن في الولايات المتحدة ديناً أميركياً متميزاً منبتّاً عن كل المذاهب المسيحية... [وأنه] منذ القرن الثامن عشر والبروتستانتية [الأنكلوسكسونية] تبتعد عن أشكالها المؤسساتية إلى أشكال جديدة ترضي النزعة الفردية ثم تعيد صياغتها لتناسب مجتمعات لا تعبد إلا السوق(١٥). وفعلاً فإن الظاهرة الدينية في أميركا لا يمكن فهمها بمعزل عن «ثروة االأمم»، فالمضارب الأكبر في «الوول ستريت» هو الذي يحتل العرش الأعلى في البانثيون الأميركي.

* * *

على مدى قرون طويلة، كانت القراءة الرسمية للنصوص القيامية تقتصر على المجاز، وكان كل تعسف في القراءة المجازية يعتبر هرطقة لأنه يعني زوال الكنيسة التي أسسها السيد المسيح. ومعروف أن «النزعة القيامية اخترقت المسيحية عبر المهوّدين ... وأن سفر «الرؤيا/القيامة» نص يهودي حقاً(١٦)، وقد شهد بعض الحماسات في البداية ثم انطوى ذكره بعد أن كذبت الحياة تنبؤات مفسريه مرة بعد مرة، ولم يعد نصاً مستحباً في الكنيسة، ولاسيما بعد دخول الأمبراطورية الرومانية في المسيحية.

خلال الإصلاح تجسد الإيمان القيامي ـ كما كان القديس أوغسطين يتوقع ـ في عداوة روما التي احتلت مكانة بابل

واتصفت بصفاتها. وقد برهن جنون العنف الذي مارسته الحركات القيامية في القرون الأوروبية الوسطى على بعد نظر أوغسطين والآباء الأولين. ومع نجاح حركة الإصلاح في إنكلترا وهولندا وبعض أجزاء ألمانيا وجد اللاهوتيون البروتستانت في «الرؤيا/القيامة» كل ما يحتاجون إليه لبلبلة روما وإسقاط صفة «الدجال» على كنيستها وحبرها الأعظم. لقد ظنوا أنهم بتدمير بابل الرومانية سيطلقون «العصر الألفي» (العصر الذي سينزل فيه السيد المسيح ويحكم العالم ألف سنة) ويهيئون الظروف الملائمة من أوروبا لعودة السيد المسيح وأولها تجميع يهود العالم في فلسطين لكي يؤمنوا بالمسيح أو ينالهم عذاب القيامة. وكان لوثر حتى نفَسه الأخير يعتقد أن القيامة على الأبواب، ويرى في النهضة أعظم علامات آخر الزمان لأنها أدت إلى إحياء العالَم العِلماني الذي عارضته أو قضت عليه المسيحية عندما قضت على روما «الوثنية». هكذا زلزلت النهضة المشاعر القيامية عند أتباع لوثر وغمرتهم بالخوف والغضب والآمال اليائسة. ولكن سرعان ما كيفت البروتستانتية أخلاقها لمواكبة «مادية» النهضة. وقد فعلت ذلك بنجاح حين تسامت بمشاعر الإحباط وجَلْدِ الذات، وتحولت من عدو لدود للتقدم المادي إلى مذهب منذور للمادة والقوة وما يعرف بـ«أخلاق العمل» work ethics. إن ملابسات هذا التسامي الروحي في اتجاه المادة (وهو يحلق اليوم في سماوات «الوول ستريت») لم تستطع مصالحة تناقضاتها سريعاً، مما جعلها تستولد أكثر التنبؤات سوداوية. فكثير من هؤلاء الذين ظنوا أنفسهم محاصرين بشياطين العقل والعلمانية وجدوا أنفسهم عاجزين عن المقاومة. ثم إن هؤلاء الذين دخلوا في حرب دينية طاحنة لتدمير بابل الرومانية كانوا يعرفون أنهم لا يستطيعون الصمود روحياً لولا دعم الإقطاعيين والملوك.

وكان لهذا التفسير القيامي للعالم جاذبية عجيبة أغوت الكثير من العلماء والفلاسفة بقراءة هذا الفنجان الساحر ـ بدءاً من إسحق نيوتن وجون ميلتون وانتهاء بهنري مور وإسحق بارو ـ الذين تركوا لنا مكتبة عجيبة لا يستطيع المرء أن يقرأها دون أن يسمع ضحكة الله. لكن بعض فلاسفة عصر التنوير ازدروا هذا التفسير القيامي للمصير البشري وهذه السادية في تقديس العذاب والعنف المميت[١٧]. منهم بعض الذين اشتغلوا في فلسفة التاريخ مثل بيار بايل Pierre Bayel وفولتير، وداڤيد هيوم وإدموند غيبون. فبايل مثلاً، يصف هذه التفسيرات القيامية بسوء الطوية بينما يصف التاريخ الذي يعتمدها بأنه كذب. وكذلك فعل ڤولتير فأشار إلى سوء طوية هؤلاء المفسرين وندد بالعنف والفظاعات التي يبشرون بها، وقال إن التاريخ الذي يتحدث عنه القياميون هو تاريخ وبائي استثنائي سمم عالمنا. أما هيوم فقد اعتبر النصوص القيامية بدائية كتبها جهلة أفظاظ لا يمكن للإنسان المعاصر أن يثق بهم[١٨].

حتى نهاية الحرب العالمية، كان القياميون ينتظرون قيامة الله التي كانت تخلف مواعيدها المضروبة مرة بعد مرة. بعد هيروشيما وناغازاكي وخلق دولة إسرائيل بالعنف بدأ التفسير يستقل ذاتياً عن السماء ويحاول أن يشعل فتيل القيامة بيده. مع تدمير هيروشيما وناغازاكي وخلق إسرائيل خرجت قيامة الله من قاموس الأمانة التي أودعها الله في أعناق شعبه الأنكلوسكسوني ليحل محلها مفهوم آخر اصطلح عليه بعض الفلاسفة الإنسانيين مثل برتراند رسل وكارل يسبرز وألبرت شڤايتزر بالقيامة الكارثية. فنهاية العالم و«إعادة اليهود إلى بلاد آبائهم» لم تعد بحاجة إلى ملائكة الله ولن تكون علامة على غضب السماء. لقد تولى أمرها الجنرالات. ومع ذلك فإن القياميين ما يزالون يرون في اختلاق إسرائيل علامة

على أن الله ما زال يتحكم بمسيرة التاريخ وأن علامات نهاية الزمان ماضية في الطريق المرسوم لها. إن إسرائيل كما أعلنوا عن ذلك في إعلان لهم في «النيويورك تايمز» هي «مزولة الزمان الإلهي» Israel is God's time-piece.

النجم القيامي هال ليندسي Hall Lindsey، وهو كما وصفته «النيويورك تايمز» من أخطر منافسي نجومية مادونا، يصف «ولادة إسرائيل» بأنها شرط أولي، مطلق، وحتمي لدخول الإنسانية في سنوات المحنة tribulation السبع التي يقال إنها ستنتهي بعودة السيد المسيح. إنه يرى في قراءة بن غوريون لما يسمى بإعلان استقلال إسرائيل آية إلهية شقت الطريق إلى نهاية التاريخ، ويعتبر «إعادة اليهود إلى بلاد آبائهم» شرارة حرب مجدّو the fuse of Armageddon [أو ما يعرف بحرب نهاية العالم بين الخير المطلق والشر المطلق، بين الله والشيطان]، فحين تتم إعادة اليهود تتحقق بقية «نبوءات الرؤيا/القيامة». ولكي يربط حاضر الصهيونية الأنكلوسكسونية بماضيها العريق يستشهد بكتاب إنكريز ماذر Increase Mather (والد كوتون ماذر وشريكه في لهوَتة الصهيونية الأنكلوسكسونية) «سر خلاص إسرائيل»[١٩] (١٦٦٩) ليؤكد على ثلاث مهمات أساسية لا بد من تحقيقها من أجل خلاص العالم من شروره:

(أ) ولادة الشعب اليهودي في فلسطين من جديد،
(ب) سيطرة اليهود على الأماكن المقدسة في القدس،
(ج) إعادة بناء معبد سليمان[٢٠].

وكتُبُ ليندسي التي تباع بالملايين وتعكس الثقافة الشعبية الروحية

أو «الدين الأميركي المتميز» تشمل تأويلات سوريالية لطلاسم «الرؤيا/القيامة» وفقاً لمجريات الأحداث، وهي كلها غزل بدمار العالم وحض مشحون بكثير من الجذل والتشفي على أن تتولى الولايات المتحدة التحضير لحرب مجدّو، وإعداد النصر الساحق لإسرائيل على العرب والمسلمين الذين يصفهم بأجمل مفردات قاموس «الأمانة التي وضعها الله في أعناق شعبه الأنكلوسكسوني».

> إن هناك مدّاً من السعادة يغمر هؤلاء القياميين ــ كما يقول ريتشارد پوپكين ــ أمام صورة دمار العالم. إنهم يعتقدون أن شرارة هذا الدمار هي الصراع العربي الإسرائيلي. وهم بسبب هذه القناعات يشجعون أكثر السياسات تطرفاً وخطراً تستطيع الحكومة الإسرائيلية أن تنهجها بما في ذلك استخدام الأسلحة النووية ضد العرب. وهم مصممون على أن تقوم الولايات المتحدة بتشجيع ودعم كل مجهود حربي إسرائيلي يصب في هذه الدلتا القيامية... ومنذ إعلان بن غوريون عن إنشاء دولة إسرائيل، لم يكتف هؤلاء النشطاء المسيحيون بسعادة إطلاق سيناريو القيامة بل شجعوا الزعماء الإسرائيليين على أن يكونوا حازمين ومقاتلين... وقد ازداد هذا التحريض عنفاً وشراسة بعد حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣ [٢١].

الرئيس ريغان المفتون بالقيامة وبهال ليندسي وكتبه ودعوته إلى «نسف العرب بالسلاح النووي» nuke the Arabs «كان ينام ويصحو على الاعتقاد بأنه ينتمي إلى الجيل الذي سيشهد حرب

مجدّو Armageddon القيامية ... ويعتقد بأن العالم ينطلق بسرعة إلى هذه النهاية»[٢٢].

في السنة الأولى التي صار فيها حاكماً لكاليفورنيا، جرى بينه وبين جيمس ميللز James Mills ــ رئيس مجلس شيوخ الولاية ــ الحوار التالي:

ريغان: كل سفر حزقيال يقول إن أرض إسرائيل سوف يُعتدى عليها من جيوش أمم كافرة ungodly ويقول إن ليبيا ستكون بين هذه الأمم. هل تعرف ذلك؟ إن ليبيا صارت الآن دولة شيوعية كافرة، وهذه علامة على أن يوم «مجدّو» ليس ببعيد. إنه يقول أيضاً إن إثيوبيا ستكون بين قوى الشر.

ميللز: أيها الحاكم، إنني لا أستطيع أن أتصور هيلاسيلاسي، أسد يهودا، ماضياً في ركب مجموعة شيوعية للاعتداء على شعب الله المختار.

ريغان: إنني أعرف أن الملابسات لم تتخذ أشكالها النهائية بعد، ولكن انظر، لم يبق إلا لمسة واحدة وتكتمل الصورة: أن يستولي الحُمر على أثيوبيا.

ميللز: أستبعد ذلك.
ريغان: إنني لا أوافقك. إنني أعتقد أن ذلك حتمي. إنه ضروري لتحقيق النبوءة التي تقول إن إثيوبيا ستكون دولة كافرة. يجب أن تصير كافرة. كل

> النبوات يجب أن تتحقق قبل أن تشتعل حرب «مجدّو». في الأسفار الثمانية وثلاثين من حزقيال يقول الله إنه سيأخذ بني إسرائيل من بين الوثنيين حيث تناثروا وسيرعاهم من جديد في أرض الميعاد. وهذا ما يحصل فعلاً بعد ألفي سنة. لأول مرة نرى أن كل شيء صار جاهزاً لحرب مجدو وللمجيء الثاني. كل شيء صار في مكانه الصحيح، ولن تتأخر [حرب مجدّو] كثيراً بعد الآن. إن حزقيال قال إن النار والكبريت سيمطران على أعداء شعب الله، وهذا يعني أنهم جميعاً يجب أن يُدَمّروا بالأسلحة النووية(٢٣).

ويبدو أن في بيت بوش تراثاً عريقاً لهذه النزعة القيامية تعود إلى أكثر من ١٧٠ سنة على الأقل. ففي السنة الأولى لحرب «تحرير» الكويت قرأت بمحض المصادفة رسالة إعجاب كتبها إدغار ألن پو عام ١٨٤٦ لرجل صالح يدعى جورج بوش George Bush «أستاذ اللغة العبرية في جامعة نيويورك وأحد أكبر الاختصاصيين في اللغات الشرقية، ولا أظن أن له كفؤاً بيننا». ثم إنني في ذلك العام قرأت مقالة لهيلتون أوبنزنغر أشار فيها إلى هذا الجورج بوش، وذكر أن له كتاباً شتّاماً بعنوان «حياة محمد». وقد هيج فضولي وحبي لآل بوش البحثَ عن سيرة الرجل. ولدهشتي فقد اكتشفت أنه كان من أشد المفكرين القياميين حماسة في عصره، وأنه ألف عدداً كبيراً من الكتب في شرح أسفار التوراة وفي إعادة اليهود إلى أرض آبائهم وأجدادهم وفي النحو العبري(٢٤). لكن ما لفت نظري ثلاث طبعات من كتابه حياة محمد (١٨٣٠، ١٨٣١، ١٨٣٧). ولهذا استنسخت من مكتبة الكونغرس نسخة من طبعته الثانية وتصفحتها سريعاً، ثم قرأتها كاملة في الطائرة أثناء عودتي

من بيروت إلى بوسطن في تشرين الأول/أكتوبر الماضي. والكتاب في النهاية تأليف رجل أكاديمي عالِم ليس غريباً في لغته ومقولاته عن الدراسات الاستشراقية في عصره. لكن ما يميز كتابه فعلاً هو الملاحق الأخيرة التي خصصها لدراسة ظهور الإسلام قيامياً على هدى «الرؤيا/القيامة» حيث نسي هنا مَلَكةَ حُكمه وعلمه وتحوّل، على طريقة هال ليندسي، إلى قارىء فنجان. فهو في الملحق A مثلاً يذكر ١٩ فقرة من «الرؤيا/القيامة»[٢٥] تتحدث عن مجموعتيْ صور فرقاعية صاخبة، الأولى: كوكب يسقط من السماء ومعه مفتاح يفتح به هاوية يخرج منها جراد خرافي له وجوه الناس وأذناب العقارب وشعر النساء وأسنان الأسود ودروع من حديد، والثانية: تفتتح المشهد «بأربعة ملائكة مصفدين بالسلاسل يقودون فرساناً على أحصنة لها رؤوس الأسود وأذناب مثل الأفاعي ويخرج من فمها نار وكبريت». هذه الصور الأوفيدية ـ بقراءة جورج بوش ـ لم تدع شاردة ولا واردة من تاريخ العرب والمسلمين لم تتنبأ به (الحاشية السابقة). وهي قراءة ترسم صورة أنموذجية لأدبيات القيامة التي تباع اليوم في الولايات المتحدة بالملايين وتعتبر الأكثر رواجاً، وتقدم مثالاً فاقعاً لهذه الثقافة الشعبية الأميركية التي حولت دماغ «موسى العصر» إلى حديقة حيوانات جيوراسية. تلك هي الثقافة التي تدفع ملايين الأميركيين لأن يصوتوا للقادة السياسيين الذين ينفخون في نار القيامة وتوجهها الرأسمالية المتوحشة سياسياً وعسكرياً لتحرير الشعوب حيثما تقتضي «الأمانةُ التي أودعها الله في أعناق شعبه الأنكلوسكسوني».

وفي كتاب شارلز ستروزير Charles B. Strozier «القيامة: دراسة للنفسية الأصولية في أميركا» صور أخرى حية من هذه الثقافة الشعبية الشائعة في الولايات المتحدة استقاها من خلال لقاءات أجراها مع هؤلاء القياميين الذين يعتقدون أن العنف هو «عنف

الله» وأنه حتمي ومطلق... وأن الله هو الذي سن سنته حين أجرى الدم إلى لجم الخيل كما تقول الرؤيا[٢٦].

كل من يعرف إنسانية «ثروة الأمم» ويتمعن في هذه الأبعاد القيامية الثلاثة: المكان، والكيف، والتوقيت، لا بد له أن يتحسس رقبته.

لو أن مكان القيامة فضاء روحي خارج دنيانا الدنية الفانية، ولو كان خارج التاريخ البشري وليس معترضاً لمسيرته هنا على الأرض، فإن فكرة القيامة لن تفقد أبعادها السياسية والاجتماعية وحسب، بل لربما اتخذت طابعاً شاعرياً أو روحياً تطهرياً. أما وإن «موسى العصر» ومعه فرق المنجمين و«المحررين» يصرون على أن مكان القيامة هنا على الأرض، وشرارتها هي الأرض العربية الغنية بالثروات والعباءات فإن فكرة القيامة كما تعرضها كل تفسيراتها العصرية تصبح مسرحاً لتأويلات «ثيوسياسية» (دينية مسيّسة) يمكن للجنرالات وديناصورات شركات السلاح والنفط وإعادة الإعمار أن يصادروها ويتحكموا بها ويعطوا الخير والشر المعنى المناسب لتحرير هذا المكان أو ذاك.

أما عن «الكيف» فيبدو لأول وهلة أن ليس بين محو البشرية التي تتضمنها الأفكار القيامية التاريخية وبين الإبادات الجماعية الانتقائية التي شاعت في التفسيرات الأنكلوسكسكونية الحديثة من علاقة إلا في مصدر العنف وحجمه. ففيما كانت التفسيرات القديمة تنتظر قيامة الله التي ستشمل كل البشرية نجد أن التفسيرات الحديثة أوكلت المهمة لهذا الموسى العصري أو لذاك، وبدأت تستفرد العالم العربي بشكل خاص. غير أن هذا الفناء الانتقائي والمتعمد[٢٧] لم يتبلور إلا بعد أن تمكنت «ثروة الأمم» من صهر التفسيرات القيامية وتطلعاتها الربحية في سلطة واحدة تملك كل الأسلحة اللازمة لصناعة القيامة. وقد صارت هذه القيامة «المحلية» ممكنة فعلاً بعد

انهيار الاتحاد السوفياتي واستقطاب الولايات المتحدة بكل العناصر والحوافز: الدافع الاقتصادي، التوسع «الرسالي»، التجربة الهندية الناجحة، تحريض المنجمين، تفاني العباءات، ووسائل الإعلام القادرة على تبرير هذه المحرقة المتعاظمة بالطريقة التي تبرر بها حادث سير. إن تقاطع «قيامة الله»مع «القيامة الانتقائية» في التاريخ الأميركي المعاصر ليس إلا مؤشراً إضافياً على خروج فكرة أميركا من المرحلة القارية إلى المرحلة العالمية. وإن إنساناً يعيش تحت رحمة هتلر جديد يزعم أنه «موسى العصر» لن ينجو ــ لا بالتنصل ولا بالتوسل ــ من أخطار هذا الجنون الثيو سياسي الذي تقاطعت فيه لأول مرة في تاريخ البشرية «القيامة الانتقائية» مع القدرة على إفناء البشرية. فليس في التاريخ البشري ممارسات إبادية منهجية ومستمرة وذات طابع رسالي كممارسات هذه «الأمانة التي وضعها الله في أعناق شعبه الأنكلوسكسوني» والتي أبادت الأعداء بالحماسة التي أبادت فيها إخوانهم «الحلفاء» أو «الأصدقاء»من الأعراق المنحطة. إنهم كما يصفهم وليم أورناه William Urnah في كتابه الرائع عن تسميم الهنود بالكحول قادة النشاط الإبادي في التاريخ البشري، سواء بالنسبة للكفاءة العالية كما حدث عندما ارتكبوا الإبادة الكاملة للتسمانيين Tismanians فلم ينج منهم سوى ٤٠ شخصاً احتفظ بهم شعب الله للذكرى والاعتبار في محمية طبيعية park، أو بالنسبة لوحشية استخدامهم للأسلحة بأنواعها كاستخدامهم للكحول في شمال أميركا أو الأفيون في الصين، أو استخدامهم الأسلحة الكيماوية وذلك عندما نصح ونستون تشرشل وزارة المستعمرات البريطانية برشّ الأكراد وغيرهم من الأعراق «المنحطة» بالغاز السام. صحيح أننا قد لا نستطيع التنبؤ بالحدود القصوى للأخطار التي تهدد العرب مع تقاطع هاتين الظاهرتين لأول مرة في تاريخنا الإنساني، ولكننا بالتأكيد لا نستطيع أن

نطمئن إلى أن ما فعله شعب الله الأنكلوسكسوني على مدى أربعمئة سنة في المرحلة القارية ــ كان فيها مثال «الدولة الأم» للمشروع الصهيوني ــ لن يستمر في المرحلة العالمية مع أي «عرق آخر يقف في وجه التقدم والتنوير».

هذا ما قد يحدث في أي لحظة (وهو حادث ومستمر ومتعاظم ولا يخفى إلا على العميان) ما دام هناك خير وشر تتحكم «ثروة الأم» بتعريفهما وتحديد زمانهما ومكانهما. فحين تضطرم مشاعر «الربح» و«التوسع» بالحاجة الماسّة إلى تطهير الأرض مما يصفه «موسى العصر» بأنه شر، وحين تتطابق علامات الزمان مع طلاسم المنجمين يصبح العنف والنهب والدمار وإعادة الإعمار أقرب إلى العربي الذي يقف في وجه التقدم والتنوير من حبل الوريد.

إن هؤلاء الذين أوكل الله إليهم «إعادة صياغة العالم» بالأسلوب الذي أعادوا به صياغة الشمال الأميركي والفيليپين وپورتوريكو وكوبا وكوريا وهيروشيما وناغازاكي وفييتنام والكويت لا يطيقون انتظار «قيامة الله» فهم في سباق مع الوقت وتنافس مع الله وهم يقولون كما سمعنا موسى العصر عشرات المرات: إن الساعة آزفة time is running out.

الهوامش

(١) Tristram Coffin, *The Armed Society. Militarism in Modern America*, (Penguin Books, Baltimore 1964) p.11.

(٢) Robert Jewett and John S. Lawrence, "The Biblical Source of the Crusade Against Evil", *Religious Studies News*. Vol.4, Issue 5, (May 2003).

(٣) سأحاول تقديم «الرؤيا» للقارىء من خلال إيجاز سريع لما فهمته من كتاب وضعه دي إتش لورنس D. H. Lawrence، بعنوان «القيامة» *Apocalypse* فهو من أفضل ما قرأته عن «الرؤيا» وصاحبها. وسأعتمد في ذلك على طبعة Penguin Books، ١٩٨١.

يعتقد لورنس أن «القيامة» هي الهواء الذي يتنفس منه المقدس عند البريطانيين والأميركيين بشكل خاص. إنها تتحكم بالإجابات عن كل أسئلتهم المصيرية، كما تتحكم بعواطفهم وأفكارهم. وتأثير «الرؤيا/القيامة» عليهم أكبر بكثير من تأثير الأناجيل وأعمال الرسل. يستوي في ذلك السناتور ورجل الكنيسة وعامة الناس. هذا النكير الشنيع على بابل التي تصفها الرؤيا بـ«أم القحاب!» (وتكتب في النسخ الإنكليزية بحروف كبيرة سوداء) يثير النشوة والخشوع عند معظم البريطانيين والأميركيين الذين يتبنون الفكرة اليهودية عن النصر النهائي الحاسم الذي سيجعلهم سادة الأرض. هذه هي العقيدة السائدة في معظم كنائس بريطانيا وأميركا. إنها العقيدة الشعبية التي احتلت مكان دين المسيح. إنها عقيدة العنف والإبادات التي غيبت تعاليم المسيح لصالح تمجيد الذات.. والذات اليهودية بشكل خاص. إنها عقيدة يوحنا البطمي John of Patmos الذي كان في السادسة والتسعين حين أنهى كتابة «الرؤيا». وهو بالطبع لا علاقة له بيوحنا الرسول أو يوحنا المعمدان كما يتوهم بعض العامة. فشخصية البطمي مختلفة عن الرسولين. إنه مؤسس مذهب يتناقض تماماً مع صوفية الحب المسيحية. إنك حين تقرأ نصه بعين فاحصة تلاحظ أنه يقدم عقيدة لا تمتّ بصلة إلى تعاليم الأناجيل، بل لعلها تتمة لأدبيات العهد القديم التي تدور حول مملكة الأرض، لا حول مملكة السماء.

ومعروف أن اليهود بعد هدم الهيكل بدأوا يحلمون بظهور مسيح مقاتل ومنتصر يقهر لهم العالم. وقد انتقلت هذه الفكرة إلى المسيحية عن طريق الرؤيا. وبذلك تسلل إلى العهد الجديد ألد أعداء المسيحية: روح القوة the power spirit. إن هذه الرؤيا ليست في الواقع إلا دين القوة والعمل من أجل انتصارها على أعداء اليهود التقليديين. إنها خيانة للأناجيل مماثلة لخيانة يهوذا الأسخريوطي للمسيح الذي رفض دعوة اليهود إلى العنف ومملكة التراب وخذل آمالهم، فلم يصبح ملكهم ولم يعلن الحروب. لقد صنعته الرؤيا على شكل يهوه، يهوه الخيالي الحالم الذي سيحقق ما لم يحققه يهوه لليهود.

هذا يعني أن قيامة يوحنا البطمي من عمل عقل من الدرجة الثانية second rate، وهي بالتالي تستقطب بشراً ذوي عقول من الدرجة الثانية. ولهذا سادت في الأوساط الشعبية. إنها نوع غير مألوف من الكتابة ظهر قبل ظهور المسيح بمئتي سنة عندما اختفت ظاهرة الأنبياء وتحول اليهود إلى شعب ذي مصير معلق وبدأ «العرافون» يتحدثون عن القيامة. لم تعد الكتابة نبوية بل أضغاث أحلام . لم يعد يهوه يخبر شعبه بما سيحدث فبدأ الشعب يحلم بما يريد أن يقوله له. إن اليأس من الانتصار الأرضي لم يقتلع الحلم الإمبريالي بل جعله «تمنياً» (والكلمة المستخدمة فاحشة مشتقة من هذا الجذر) وجعل موعد النصر في نهاية العالم. حيث سيقوم يهوه بعصر دم الشعوب في معصرة غضبه.

في النصف الثاني من «الرؤيا» حين تظهر البهائم the beasts نجد أدباً لا مثيل له في الكراهية للعالم ولا مثيل له في العطش إلى الدم، ولا مثيل له في التسلط. إن هذا النصف الثاني حقد مسعور وشبق مستعر للنهاية الدموية للعالم المعروف. هنا تصور الرؤيا السيد المسيح على شكل هولاكو شاهراً سيفه، مدمراً، وذابحاً شعوب الأرض إلى أن يصل الدم إلى لجم الأحصنة. إنها صورة معكوسة تماماً عن المسيح الفادي المخلّص. إنه قادم لإخضاع الشعوب بالسيف والنار. وهو هنا يحمل كل صفات فرعون وقيصر وبومبي وألكسندر وأباطرة العالم القديم. إن ما يلفت النظر في «الرؤيا» أننا لا نسمع إلا الزئير المروع للوحوش لكننا لا نرى إلا حملاناً. إن خروف البطمي الذي يرمز به إلى السيد المسيح يتصرف كأعتى الأسود وأكثرهم دموية. إنه أول خروف يذبح البشرية بالملايين.

ولا يشك لورنس في أن البطمي كان يهودياً غريب الاطوار عاشقاً للعنف، مشبعاً

بروح العهد القديم وبشيء من أساطير الوثنيات القديمة التي استعار منها كل ما يعينه على خلق صورة مرعبة لنهاية البشرية في معصرة غضب الرب. لقد تمت صياغة «الرؤيا» بأسلوب يسمح بوضع السماء تحت سقف المعبد اليهودي.

(٤) Robert Jewett and John S. Lawrence.

(٥) Jeffrey S. Siker, "President Bush, Biblical Faith, and the Politics of Religion", *Religious Studies News*. Vol.4, Issue 5, (May 2003).

وهذا ما أكد عليه أيضاً ديرك دايفيس مدير مركز دراسات فصل الكنيسة عن الدولة في مقالته: «الرئيس جورج بوش: راعي أبرشية أميركا في الزمن العصيب»، حيث لاحظ تكرار وصفه لأميركا بإسرائيل والشعب المختار وذات الرسالة العالمية، وتأكيده على أن إرادة الله هي أمانة في عنق الأمة الأميركية، وانتقد لغته الثنائية، وقال: «إنه وصل بتعصبه إلى مستوى فريد لم يعرفه البيت الأبيض من قبل، وأن استخدامه لعبارة «طريقة الحياة الأميركية» لا يختلف عن استخدام المستعمرين الإنكليز الأوائل لعبارة «طريقة الحياة الإنكليزية». انظر مقالة دايفيس President George W. Bush: America's Pastor in Troubled Times? في نفس العدد.

(٦) George W. Bush, *A Charge to Keep: My Journey to the White House* (Harper Collins, 2001).

(٧) Ibid., pp.8-9.

معظم رسوم الكاريكاتور عن الرئيس بوش تتناول عادة ما اشتهر عن ذكائه وقدراته العقلية الخارقة، لكن «مجلة تايم» في عدد غير بعيد العهد (١٠ شباط/ فبراير ٢٠٠٣) نشرت رسماً كاريكاتورياً للرئيس بصورة موسى عصري يحمل بيده الألواح التي كتب عليها «وصايا الضرائب». هذا الرسم في رأي سيكر Sikr يعكس صورة بوش عن نفسه.

(٨) Ibid., p.9.

(٩) Sikr.

(١٠) المصدر السابق. والطريف أن الفقرة المستشهد بها وردت في سياق تأكيد الله لموسى على تمليك بني إسرائيل الأرض التي يدخلونها: فلسطين. (سِفر العدد: ٣٠).

(١١) Sikr.

وخطر هذه النزعة يكمن في أن الرئيس على قناعة تامة بأنه ينفذ إرادة الله —

كما بيّن مؤرخ الأديان مارتن مارتي Martin Marty في عدد **النيوزويك** (١٠ آذار/مارس ٢٠٠٣).

(١٢) Robert Jewett and John Shelton Lawrence.

(١٣) Elaine Pagels, "When Religious Language Pre-empts Politics", *Religious Studies News*. Vol.4, Issue 5, (May 2003).

(١٤) فكرة أميركا هي الترجمة الإنكليزية لفكرة إسرائيل التاريخية كما سأبين لاحقاً. وقد مرت بمرحلتين. المرحلة القارية التي تم فيها اجتياح شمال أميركا وإبادة أهلها، والمرحلة العالمية التي بدأت بقضم المكسيك والتوسع في المحيط الهادي.

(١٥) Henry Carrigan, "Give Me That Old Time Religion", *Religious Studies News*. Vol.4, Issue 5, (May 2003).

(١٦) Arthur Mendal, *Vision and Violence*, see the introduction of Richard Landes, p.xiii.

لم يعد هناك شك في أن النص مكتوب قبل ظهور السيد المسيح وأنه تم تلفيقه من مصادر يهودية وغنوصية ووثنية على يد عدد من القياميين. وكل كتاب D. H. Lawrence «القيامة» Apocalypse حول هذا الموضوع. فالنزعة القيامية ــ كما يقول لاندس، (وهو من أبرز دارسي هذه النزعة في الولايات المتحدة) لم تكن جزءاً من العقائد المسيحية، بل هي أساساً، بعد جوهري في التفكير القيامي اليهودي، ولا سيما في الإيمان الشعبي (الصفحة xiv) الذي يعود إلى أيام المكابيين. إن العقيدة المسيحية كما عبر عنها الرسل تتناقض مع هذه الأمواج المتلاحقة من التعذيب والدمار والإبادات الجماعية التي يحرض عليها النص. وكل الأشكال التي تجسدت فيها النزعة القيامية عبر التاريخ كانت أشكالاً سياسية أو اجتماعية أو إجرامية تؤكد على المعاني الأرضية الغريبة عن الأخلاق المسيحية. إنها التراث الذي يستمد منه جورج بوش لغته وأفكاره كما تعبر عنها هذه المقتطفات من خطب وبيانات الأنبياء القياميين الذين «حرروا» أميركا:

«[على القيامي أن] يكون مستعداً دائماً وأبداً ليجعل الآخرين يبكون ويصرون أسنانهم. بهذا وحده يتطهر العالم وتأتي مملكة الله...

ملعون ذلك الذي لا يشحذ سيفه ويسفك الدماء. على كل مؤمن أن يغسل يديه بالدم.

إن لكل كاهن الحق في أن يطارد الخطاة ويجرحهم أو يقتلهم لأن العدل سوف يبتهج بهذا الانتقام وبغسل الأيدي بدم الخطاة» (الصفحة ٦٥).

«هذا أوان الحصاد وقد أرسلني الله وأوكل إلي مهمة الحصاد، ولهذا فقد شحذت فأسي...

لا بد من وضع السيف في رقابهم للقضاء عليهم، فإذا قاوموا فليذبحوا بدون رحمة، ففي زمن الحصاد لا بد من اقتلاع الأعشاب البرية من كرمة الله...

عليهم، عليهم والنار حامية. لا تدعوا سيفكم يبرد ولا تغمدوه. قوضوا بنيانهم إلى الأرض» (الصفحة ٦٥ و٦٦).

ويستغرب لورنس D. H. Alawrence كيف استثنت «الرؤيا» من موجات اللعنة والعذاب ألد أعداء السيد المسيح وهم «الفريسيون» فيما هي تجري على هوى الفريسيين أنفسهم فتجعل من بابل التي ليس بينها المسيح ناقة .ولا جمل رمزاً للشر.

(١٧) في **ملاحظات على الإنسان** *Observation on Man* وضع القيامي دافيد هارتلي أول كتاب أوروبي في علم النفس، حاول أن يطبق فيه العلم النيوتوني على الحياة العقلية للإنسان. إن اقتراحه رقم ٨٥ يقول: لن تكون هناك سعادة كاملة وحقيقية قبل تدمير هذا العالم بالنار. انظر الكتاب (لندن ١٧٤٩)، القسم الثاني، ص ٣٨٠.

(١٨) On Hume, see David Hume, *An Enquiry Concerning Human Understanding* (Oxford 1966). p. 146. On Bayle, Voltaire, Hume and Gibbon, see R. H. Popkin, Bible Criticism and Social Science", *Boston Studies in the Philosophy of Science* XIV, pp.350-360.

(١٩) *The Mystery of Israel Salvation.*

(٢٠) Hal Lindsey, *The Late Great Planet Earth.* (Grand Rapids, Michigan, 1970). pp. 43, 44, 50, 52.

(٢١) Richard Popkin, "The triumphant Apocalypse and the

Catastrophic Apocalypse", in Avener Cohen and Steven Lee (Ed.), *Nuclear Weapons and the Future of Humanity, The Fundamental Questions* (Philosophy and Society Series, Rowna and Allanheld, New Jersey 1986) p.146.

في اليوم الأول لمؤتمر الإيباك السنوي (٢٠٠٣)، وقف رجل يدعى غاري باور، وأعلن أمام الجمهور المصفق المهلل «أن الله هو الذي أعطى أرض إسرائيل للشعب اليهودي ولهذا فإن هناك تحريماً مطلقاً لإعطائها لأي شعب آخر». وغاري باور من أبرز الوعاظ في اليمين المسيحي ومن المقربين إلى موسى العصر في البيت الأبيض. وتقول صحيفة هارتز (٧ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، الطبعة الإنكليزية) معلقةً على تصريح باور: «بأصدقاء مسيحيين مثل باور، وهو صديق مقرب جداً من الرئيس ومن أذن الرئيس، فإن حكومة شارون لا تحتاج إلى أصدقاء يهود لتعطيل مبادرة الطريق».

(٢٢) **نيوزويك**، ٥ ت٢/نوفمبر ١٩٨٥، **ونيويورك تايمز** ٩ آذار/مارس ١٩٨٣.

(٢٣) James Ridgeway, "Apocalypse Now: Reagan's Reflections on Armageddon, *Santa Barbara News and Review*, Dec. 5, 1985.

ومنذ أيام ريغان والنزعة القيامية لا تفارق البيت الأبيض وتنشر عناصرها في المناصب الأساسية للقضاء والحكومة ومجلسي الكونغرس، وعلى كل مستويات الحكومة الفديرالية (Mendel, p.270). ولأنهم يعكسون الثقافة الشعبية التقليدية المقترنة بالمقدس ويسيطرون على أمبراطوريات إعلامية هائلة، فإنهم يشكلون القوة السياسية الأعظم في الولايات المتحدة. إن ٤٠ بالمئة من الناخبين الأميركيين يعتبرون أنفسهم على دين بوش «مولودين من جديد» born-again روحياً وإيمانياً، (المصدر السابق). «ويبلغ عدد المنظمين النشطاء منهم في الولايات المتحدة ما يقرب من ٢٠ مليوناً. ومعظم مساعدي بوش منهم» (Cox News Paper، ١٨ أكتوبر ٢٠٠٢). أما كتّاب هذه النزعة فيبيعون الملايين وأضعاف ما يبيعه أكثر مؤلفي الكتب الأخرى رواجاً. إن أسماءهم قد لا تعني شيئاً للقارىء العربي، فمؤلفاتهم لا علاقة لها بعلم أو فن أو أدب وهي أشبه بالتنجيم وضرب الرمل وتتوجه فعلاً إلى عقول من الدرجة الثانية كما يقول دي إتش لورنس، لكن القارىء الأميركي العام يستقبلها بحساسية مختلفة تماماً. فمثلاً: إن

المجلد التاسع من كتاب تيم لا هاي Tim LaHaye وجيري جينكنس Jerry Jinkins بعنوان *Left Behind* باع في العام ٢٠٠١ ثلاثة ملايين نسخة. راجع مقالة Matthew Engel في الاوبزرڤر البريطانية، ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

ويعتَبر تجميع اليهود في فلسطين وهزيمة العرب والمسلمين النواة الصلبة لهذه النزعة القيامية. وفي كتاب يونا ملاخي Yona malakhi بعنوان «الأصولية الأميركية وإسرائيل» شواهد كثيرة ومملة عن هذه السادية الاجتماعية. راجع:

Yona Malachy, *American Fundamentalism and Israel* (Jerusalem Institute of Contemporary Jewry, 1978). See pp. 41, 43, 97, 102, 107, 133, 151, 153, 157, 171.

ونظراً لهذه المركزية الإيمانية لدعم إسرائيل وتدمير العالم العربي في العقيدة القيامية فإن المصابين بهذه النزعة يحتفلون بانتصارات الدولة الإسرائيلية في مهرجانات وصلوات صاخبة، وفي بث إذاعي وتلفزيوني مستمر، وبأمواج من الوفود التي تزور الأراضي المقدسة. فبعد الإعلان عما يسمى بخارطة الطريق مثلاً جمّع القياميون في ولاية ساوث كارولينا مبلغاً هائلاً لنصب لوحات عملاقة على الطرقات مكتوب عليها: «لا أرض مقابل سلام»، بينما قال النجومي القيامي بات روبرتسون (من منافسي هال ليندسي) لوزير خارجية إسرائيل سلفان شالوم في لقائهما الأخير: من تظن نفسك حتى تسلم القدس لعرفات؟ (هآرتز، الطبعة الإنكليزية، ٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٣). ولربما يظن المرء أن هذه النزعة محصورة في الطبقات الشعبية باعتبار أنها تمثل الخرافة ومضحكات اللاعقلانية.. ومبكياتها أيضاً، لكن ليس هناك سياسي أميركي يوافق على ذلك. إن مؤتمراتها تستقطب كل رجال الكونغرس ومعظم مسؤولي الحكومة الفيدرالية الذين يتهافتون على حضورها وإلقاء الكلمات فيها، كما يشهد على ذلك المؤتمر السنوي الأخير للائتلاف المسيحي في أميركا Christian Coalition of America الذي حضره معظم رجال الكونغرس وافتتح بصلاة مباركة بثت مباشرة من البيت الأبيض (الأوبزرڤر، ٢٧ ت١ أكتوبر ٢٠٠٢).

(٢٤) Books by George Bush, 1796-1859, [from old catalog, The Library of Congress]:

- *Valley of vision : or, The dry bones of Israel revived: an attempted proof, from Ezekiel,* chap. xxxvii, 1-14, of the restoration and conversion of the Jews.

- *Notes, critical and practical, on the book of Genesis*; designed as a general help to Biblical reading and instruction. 1851.

- *Notes, critical and practical, on the book of Numbers:*

- Theological dictionary, containing definitions of all religious terms; a comprehensive view of every article in the system of divinity.

- *An impartial account of all the principal denominations* ... together with an accurate statement of the most remarkable 1836.

- *Theological dictionary*, containing definitions of all religious terms; a comprehensive view of every article in the system of divinity, an impartial account of all the principal denominations... together with an accurate statement of the most remarkable, 1835.

- *Anastasis: or, The doctrine of the resurrection of the body,* rationally and scripturally considered.. 1845.

- *Grammar of the Hebrew language*, 1835

- *In reply to Mr. Emerson on Swedenborg*, 1846

- *Letters to a trinitarian; or, The doctrine of the tripersonality of Jehovah inconsistent with the truth of the Incarnation,*. 1850.

- *Life of Mohammed; founder of the religion of Islam, and of the empire of the Saracens*, 1837.

- *Life of Mohammed; founder of the religion of Islam, and of the empire of the Saracens*, 1831.

- *Life of Mohammed; founder of the religion of Islam, and of the empire of the Saracens, 1830.*

- *Mesmer and Swedenborg;* 1847

- *Questions and notes, critical and practical, upon the book of Leviticus*, 1833.

- *Resurrection of Christ; in answer to the question, whether he rose in a spiritual and celestial, or in a material and earthly body*, 1845.

(٢٥) وهذه هي الفقرات التي وجد فيها تاريخَ الإسلام والمسلمين، وهي منقولة من ترجمة «جمعيات الكتاب المقدس»، بيروت ١٥٩١:

١ ــ ثم بوّق الملاك الخامس فرأيت كوكباً قد سقط من السماء إلى الأرض وأعطي مفتاح بير الهاوية. ٢ ــ ففتح بير الهاوية فصعد دخان من البير كدخان أتون عظيم فأظلمت الشمس والجو من دخان البير. ٣ ــ ومن الدخان خرج جراد على الأرض فأعطي سلطاناً كما لعقارب الأرض سلطان. ٤ ــ وقيل له أن لا يضر عسب الأرض ولا شيئاً أخضر ولا شجرة ما إلا الناس فقط الذين ليس لهم ختم الله على جباههم. ٥ ــ وأعطي أن لا يقتلهم بل أن يتعذبوا خمسة أشهر، وعذابه كعذاب عقرب إذا لدغت إنساناً. ٦ ــ وفي تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم. ٧ ــ وشكل الجراد شبه خيل مهيأة للحرب وعلى رؤوسها كأكاليل شبه الذهب ووجوهها كوجوه الناس. ٨ ــ وكان لها شعر كشعر النساء وكانت أسنانها كأسنان الأسود ٩ ــ وكان لها دروع كدروع من حديد وصوت أجنحتها كصوت مركبات خيل كثيرة تجري إلى قتال. ١٠ ــ ولها أذناب شبه العقارب وكانت في أذنابها حيات، وسلطانها أن تؤذي الناس خمسة أشهر. ١١ ــ ولها ملاك الهاوية ملكاً عليها اسمه بالعبرانية أيدون وله باليونانية اسم أبوليون. ١٢ ــ الويل الواحد مضى. هوذا يأتي ويلان أيضاً بعد هذا. ١٣ ــ ثم بوّق الملاك السادس فسمعت صوتاً واحداً من أربعة قرون مدبج بالذهب الذي أمام الله. ١٤ ــ قائلاً للملاك السادس الذي معه البوق فك الملائكة الأربعة المقيدين عن النهر العظيم الفرات ١٥ ــ فانفك الأربعة الملائكة المعدون للساعة واليوم والشهر والسنة لكي يقتلوا ثلث الناس. ١٦ ــ وعدد جيوش الفرسان مئتا ألف

ألف. وأنا سمعت عددهم. ١٧ ــ وهكذا رأيت الخيل في الرؤيا والجالسين عليها لهم دروع نارية واسمانجونية وكبريتية ورؤوس الخيل كرؤوس الأسود ومن أفواهها يخرج نار ودخان وكبريت. ١٨ ــ من هذه الثلاثة قتل ثلث الناس ومن النار والدخان والكبريت الخارجة من أفواهها. ١٩ ــ فإن سلطانها هو في أفواهها وفي أذنابها لأن أذنابها شبه الحيات ولها رؤوس وبها تضرّ.

أما تفسير جورج بوش لهذه الفقرات فهو في الصفحات ١٩٥ ــ ٢٠٩ من الكتاب. وهذه شواهد سريعة من قراءته لهذه الصور:

«الهاوية التي خرج منها الجراد» هي غار حراء. «الجراد الذي خرج على الأرض فأعطي سلطاناً كما للعقارب سلطان» يمثل العرب المسلمين كما يمثل أيضاً «جيوش المسلمين التي خرجت لقهر العالم وإفساده»... ولطالما كانت الجزيرة العربية مصدراً للجراد الذي يخرج منها ويعيث في الأرض فساداً.

«النفخ في البوق» يتنبأ بظهور الدجال العربي ودينه الزائف وأتباعه:

...predecting the spperence of the Arabian imposter, his spurious religion, and his Saracen followers.

وهو يرى أن ظهور الإسلام كان عقاباً من الله للبشرية، وأن فساد الكنيسة (ويحاول أن يغمز هنا من قناة الكاثوليكية) هو السبب في انتشار هذا الوباء من الإثم والخرافة

... plague of error and superstition

«فتح بير الهاوية وصور الدخان منها كأنه دخان أتون عظيم» يمثل أسلوب ذلك الدين الشيطاني الشرير:

... the wicked and diabolical system of religion

بينما تمثل كثافة الدخان لاهوته الفاسد. وحين يصف العرب بأنهم «جراد لهم أذناب مثل أذناب العقارب» لا يتردد في البحث عن تفسير لهذه الأذناب عند أشعيا (١٤:٩ ــ ١٥) الذي يقول «إن الذَنَب هو النبي الكذاب». وهذا يعني

أن أتباع محمد نشروا سموم عقيدتهم وراءهم كما تفعل العقارب
Muslim followers of Mohammed have scattered, like scorpions, the venom of their doctrines behind them.

...إلخ، راجع:
George Bush, *Life of Mohammed; founder of the religion of Islam, and of the empire of the Saracens.* (J & Harper 1831) pp.195-209.

(٢٦) Charles B. Stozier, *Apocalypse, On the Psychology of Fundamentalism in America*, (Beacon Press, Boston 1994).
«... يتحدثون عن نهاية الزمان بكل ثقة... ويحفظون الرؤيا أكثر مما يحفظون أي سفر من أسفار الكتاب المقدس... ويعتقدون أن من واجبهم تجميع اليهود في فلسطين ...يهجسون بالمجيء الثاني، ويريدونه الآن، ويتجهون إليه بكل حواسهم وقواهم . إنه موعد نهاية الزمان الشرير... هذه التصورات تأخذ بألباب هؤلاء الأصوليين، وبأشكال مختلفة، لكنهم جميعاً يعتقدون أن المجيء الثاني هو الذي يعطي المعنى لوجودهم». «ويقول إسحق: قرأت الكثير من تاريخ اليهود وإنني أصلي من أجل إسرائيل... وتقول ديبورا إن الله هو الذي يأمرنا أن نصلي من أجل شعبه .. من أجل اليهود... معظم الأسئلة المصيرية وجدوا الإجابة عنها في «الرؤيا»... ولا يشك جون ولفورد John F. Wolvoord المشرف على سيمنار دالاس ومؤلف عدد من الكتب القيامية (كتابه: «حرب مجدّو، النفط والشرق الأوسط» باع ٨٠٠ ألف نسخة خلال سبعة أشهر): إن الله هو الذي أعطى الأرض لإبراهيم ونسله... وهي أرض كنعان، وهو عهد أبدي. ويجب أن تكون إسرائيل خالدة مخلدة في المكان الذي أعطاه الله لإبراهيم (المجموعة الأولى من المقتطفات هي من فصل «النهاية قريبة» The end at hand، الصفحات ١٠٨ ــ ١٢٩، والمجموعة الثانية من فصل «العالم وشروره» The world and its evils، الصفحات ١٣٠ ــ ١٥٢.

(٢٧) وليس من الضرورة أن يكون فناءً كمياً، أو جسدياً إذاً كان في بقاء هذا الجسد ما يعين على تنفيذ هذه الرسالة الأنكلوسكسونية النبيلة، كحالة الكويت وأضرابها التي صارت أمثلة فاقعة وخطرة على المصير العربي جسدياً وثقافياً لا يشبهها إلا «مكتب قضايا الهنود الحمر» Bureau of Indian Affairs.

الفصل الثالث

حق الحرب

السناتور بفردج: هل من قواعد الحرب أن تحرق مدناً وقرى كاملة، وهل تعتقد فعلاً أن أهل هذه البلدان والقرى يستأهلون هذا الدمار؟
الكولونيل آرثر لوكوود واغنر : نعم... هذا معقول ومبرر. صحيح أننا قتلنا ودمرنا ممتلكات الأبرياء، ولكن ألم يفعل الله ذلك بسدوم وعمورة؟

حوار في مجلس الشيوخ ـ ١٩٠٢

أكثر من قرن مضى بين تحرير الفيليبين وتحرير العراق وما تزال هذه الروح «الرسالية» الأميركية تستعر بأخطر نزعتين قياميتين عرفهما التاريخ البشري: «الشبق الإمبراطوري لإعادة صياغة العالم» باعتباره قدر أميركا المتجلي Manifest Destiny الذي رسمته العناية الإلهية ورعته، و«فكرة إسرائيل» كمقدمة لنزول القدس السماوية. ولطالما كان الحلم الإمبراطوري (وما يزال) يلهب حماسة المؤمنين بفكرة إسرائيل الذين يعتبرون أنفسهم أجدر الشعوب بالإمبريالية، [والذين] لم يعشقوا شيئاً في هذا العالم أكثر من التنبؤ بالدمار الماحق لممالك العالم[١].

هذا المزيج من جنون القوة والتعصب، ومن سعار الاستعلاء supremacy والجشع الرأسمالي في أدمغة صارت مسرحاً لمسخ الكائنات، يجعل من تجييش الجيوش لتحرير هذا الشعب وفتح ذلك البلد مسألة مزاج ووقت ومكالمة خليوية سريعة مع الله في البيت الأبيض.

ويوماً بعد يوم يتفاقم هذا الخطر ويزداد تهديداً بعد ترجمة هاتين النزعتين القياميتين إلى برنامج سياسي لإعادة صياغة العالم أعلن عنه مهندسو «مشروع من أجل قرن أميركي جديد» Project for New American Century[٢]، وافتتحوه بتحرير العراق. فلو تذكرنا فواجع مثل هذا المزيج الخطير وما جنته يداه في العالم الجديد أو في أيام الرايخ الثالث أو عندما أباد محررو الفيليبين أكثر من مليون إنسان من شعب المورو Moros[٣]، وأضفنا إلى ذلك هذه الترسانة الأميركية الحافلة بأكثر أسلحة الدمار تطوراً وفتكاً في تاريخ البشر فإن العالم الذي ينشده «مشروع من أجل قرن أميركي جديد» لن يشبهه إلا «انتصار الموت» كما رسمه Brueghel بخياله الموجع وهو يستوحي قيامة يوحنا البطمي: جبال من الضحايا الآدمية المسحوقة يخطر بينها

> فرس أخضر، يعلوه كائن اسمه «الموت»، وجهنم تتبعه، وقد أعطاهما [النص المقدس] سلطاناً على ربع الأرض لكي يقتلا ما فيها بالسيف والجوع والموت ووحوش الأرض» (٦:٨)؛

ذلك المشهد المقدس الذي ألهم كثيراً من الشعراء بتنويعات مخيفة عن دمار بابل وعن فناء البشرية، ابتداء من بترارخ في «انتصار

الموت» Trinfo della Morte وانتهاء بإليوت وأرضه الخراب The Waste Land.

إن كل ما يقوله التاريخ الرسالي لفكرة أميركا يؤكد على أن المصير الذي لقيه كنعانيو العالم الجديد باسم تلك الأسطورة ينتظر كثيراً من أمم الأرض. ومَن أولى به أكثر من أهل الأسطورة وشحمها ولحمها.

* * *

أبداً لم تطفىء «الروح الرسالية» الأميركية حرباً إلا لتشعل حرباً غيرها، فليس في تاريخ الولايات المتحدة إشارة واحدة إلى إيمانها بالسلام. فالسفينة التي كانت تحمل ١١١ مستعمراً إنكليزياً لم تتحول إلى ما يسمى اليوم بالولايات المتحدة الأميركية وتبسط سيطرتها على مساحة من الأراضي أكبر من الجزيرة البريطانية بأربعين مرة إلا بانتصار الموت الذي أتى على حياة أكثر من ٤٠٠ أمة وشعب. لقد استولوا على ما استولوا عليه بالعنف، وحصدوا أرض الهنود وأرواحهم دونما رحمة. وكذلك فعلوا مع من شاركهم في استعمار العالم الجديد؛ مع الفرنسيين والإسبان والألمان، بل وحتى مع الملكيين الإنكليز. لقد حاربوا المكسيكيين واستولوا على كاليفورنيا ونيو مكسيكو وتكساس، وخاضوا حرباً أهلية طاحنة، وحاربوا في كوبا والفيليبين وهاوائي والصين واليابان وكوريا وفييتنام وأوروبا وأميركا اللاتينية، واستخدموا كل أنواع أسلحة الدمار الشامل. وفي ذلك كله كانوا أصحاب رسالة، يَقتُلون ليُحيوا، ويُدمرون ليُعمّروا. وتلك هي ثمرة الروح الرسالية التي يواكبها الله الإنكليزي في كل مذبحة.

هذا الوله بالعنف والتنافس على تطويره والتفنن في تصويره والمباهاة بممارسته من أبرز وجوه الثقافة الشعبية الأميركية. معظم ساحات أميركا مزينة بتماثيل سفاحين يمتطون صهوات الأحصنة الحرون ويشهرون سيوفهم في الهواء. ورقة العشرين دولاراً مزينة بصورة موسى عصره الرئيس أندرو جاكسون الذي كان يستعذب مشاهدة سلخ رؤوس الهنود والتمثيل بجثثهم. الصحف اليومية تعج بأخبار جرائم العنف في المدارس. معظم برامج التلفزيون والصناعة السينمائية تتبارى في تمجيد العنف. الروح المسالمة غير معروفة إلا عند فئات اجتماعية مهمّشة مثل «الكويكرز» وبعض النساء العجائز. كل حركات السلام في أميركا متهمة بالخيانة باعتبار أن السلام ليس الهمبرغر الأميركي المفضل. بعض هذه الحركات المسالمة حاول أن يبرىء ساحته من جريمة الخيانة فرفع شعار «السلام لا يتعارض مع حب الوطن» peace is patriotic.

مركز هذه المؤسسة العسكرية، ويسمى البنتاغون، يربض على ضفاف نهر البوتومك حيث سمم المستعمرون الإنكليز الزعيم الهندي تشيسكياك Chiskiack في عام ١٦٢٣ وسمموا معه بأنخاب صداقتهم الإنكليزية التقليدية أسرته ومئتين من حاشيته(٤). هنا في خلايا هذا الوحش الخرافي الذي يبلغ طول أمعائه ٥٢ كيلومتراً يقول تريسترام كوفين Tristram Coffin «يقبع رجال [ونساء] أمام شاشات كومبيوترات جاهزة لإرسال الموت إلى أي مكان من العالم. وفي الطوابق العليا تجد فنيين ينفقون عشرات الملايين من الدولارات يومياً وهم يرسمون المستقبل المظلم لهذا الشعب أو ذاك، ويطبخون المظاهرات والمعارضات وحملات التشنيع ويفكرون في وسائل أكثر فعالية لإنهاء الحياة»... إن دين هذه المؤسسة وصوفيتها العسكرية هي مزيج من مسيحية الصليبيين

ومن عبادة إلهة النصر «نايك» Nike[٥]. والضباط هنا كرهبان الدير الذين يمثلون الخير المطلق في صراعه الدائم مع الشر المطلق. إنهم يعيشون في مجتمع مغلق يتزاوجون فيما بينهم غالباً. الجنرال يفقس بالجنرال، وأطفال الضباط يتزوجون بنات الضباط ويعيشون في غيتو عسكري حيث يعملون معاً في النهار ويسهرون معاً في الليل، بينما توفر لهم الدولة من الموارد والامتيازات ما يكفيهم ويغنيهم. وقد جرت العادة أن يسكب الكونغرس في طبق الميزانية العسكرية لحماً أكثر مما يشتهيه الرئيس[٦].

قبيل حرب تحرير العراق بأقل من شهرين، احتفل أكثر من ألف ضابط من علية المؤسسة العسكرية في فندق Omni Shoreham بالعيد الثالث بعد المئة لتأسيس رعوية كاراباو العسكرية Militery Order of Carabao التي تعبر تعبيراً حقيقياً عن الروح الرسالية الأميركية. وكانت قد تأسست عام ١٩٠٠ من قبل الضباط الذين حرروا الفيليبين. ولهذا فإن الحفل السنوي ليس إلا استنهاضاً للروح الأمبراطورية الرسالية عبر الأناشيد والشعارات الإمبريالية وأولها ذلك النشيد التقليدي الذي كان يردده جنود الفتح الفيليبيني: «مدّنوهم بالبنادق» .Civilize them with Krag. وهناك طبعاً الخطب النارية التي تعبر حقيقة عن الروح الرسالية الأميركية كالخطبة التي ألقاها شليزنغر في العام الماضي وقال: «يقولون إن الحرب جهنم وأن السلام جنة. لكننا نعرف جميعاً أن هذا كذب، فالحرب هي الجنة والسلام هو الجحيم»[٧].

هذه المؤسسة العسكرية تستهلك معظم الموارد الأميركية، وتدير أكبر صناعات الولايات المتحدة (وفي مقدمتها صناعة السلاح)، وتوظف سبعين بالمئة من الطاقات العلمية في صناعة العنف[٨].

والغريب أن بعض دافعي الضرائب الذين يعترضون على المعونات الرمزية التي تقدمها الدولة الاتحادية للجمعيات الخيرية لا يستنكرون تخصيص أكثر من ٤٠٠ مليار دولار سنوياً للمؤسسة العسكرية. فليس في الولايات المتحدة معارضة حقيقية لهذا التسلح المتزايد بأسلحة الدمار الشامل، لا بين فقراء الشعب ولا بين رجال الدين. الصوتان القويان جاءا من العلماء الذين عملوا في هذه الأسلحة وأرهقهم الشعور بالذنب، ومن الهنود الذين تكتنز أراضيهم بمعظم احتياطي اليورانيوم وتقام فوقها معظم المفاعلات النووية. ولعل ذلك يعود إلى أن «فكرة أميركا» نفسها (وهي الترجمة الإنكليزية لفكرة إسرائيل التاريخية) لا تتحقق إلا بالعنف، فقبل أن يؤسس المستعمرون الإنكليز الأوائل المعروفون باسم الحجاج أو القديسين كنيسة تطهر أرواحهم وتهذب أخلاقهم أسسوا جيشاً مسلحاً بقيادة مايلس ستانديش Captain Miles Standish نشر الرعب والموت بين هنود منطقة پليموث الذين أكرموا الحجاج وقدموا لهم ما يعينهم على الحياة[٩]. وقد صار تأسيس الجيش المسلح قبل بناء الكنيسة تقليداً متبعاً في كل مستعمرات الإنكليز الثلاث عشرة المعروفة باسم «إنكلترا الجديدة» New England والتي كانوا يطلقون عليها اسم «إسرائيل الله الجديدة». وتجمع معظم مصادر تلك الموجة الاستعمارية الأولى على أن الجيش أو الميلشيا كانا يضمان كل من كان مؤهلاً للقتال، وأنه كان في كل بيت استعماري جندي أو جنديان، وأن السلاح لم يغادر أحداً من هؤلاء المستوطنين المستَعبِرين صغاراً أو كباراً. إن قصص الرعب التي اخترعها المستعمرون عن أعدائهم الهنود لا تختلف عن سيناريوهات الرعب الشيطاني التي تخترعها الإدارة الحالية عن العرب والمسلمين وتروج لها وسائل إعلامها الرسمية، فقد كانت وما تزال تهدف إلى تبرير الحرب وفظاعاتها. وكما كانت الحال

في جيمستاون (١٦١٠) فإن نظرية الأمن في مستعمرات الشمال كانت تتمحور أيضاً حول «حق الحرب» The Right of Warr أو ما يعرف اليوم بالحرب الوقائية. لكن حروب الولايات المتحدة كلها حروب «وقائية/ استباقية» استمدت معظم مبرراتها من «حق الحرب» المستعار أخلاقياً من «فكرة إسرائيل». إنها منذ تأسيسها لم تخض حربا واحدة دفاعا عن أراضيها. أما الحروب التي سبقت الثورة وتأسيس الدولة فكلها دونما استثناء حروب توسعية وقائية كانوا فيها معتدين. وإنهم منذأن جاءوا بـ«فكرة إسرائيل» إلى العالم الجديد وصاغوا منها «فكرة أميركا» حتى اجتياح العراق يؤكدون على «حق الحرب»، ويؤمنون بأن لديهم تفويضا سامياً[١٠] بقتل هؤلاء الذين يظنون بأنهم قد يعترضون الأمانة التي أودعها الله في أعناق شعبه الأنكلوسكسوني لإعادة صياغة العالم.

الهوامش

(١) راجع: D. H. Lawrence في: *Apocalypse*، منشورات Penguin Books، ١٩٨١، ص ٤١.

(٢) «مشروع من أجل قرن أميركي جديد» هو ترجمة **سياسة/اقتصادية** لكل الأفكار القيامية الرائجة في الثقافة الشعبية الأميركية والتي تتمحور حول ثلاثة أهداف أساسية:

* تجميع اليهود في فلسطين،
* وإخضاع العالم العربي والإسلامي،
* وإعادة صياغة العالم باعتبار أن ذلك قدر أميركا المتجلي.

في بدايته، كان المشروع مجموعة من الاقتراحات لبناء إمبراطورية أميركية عالمية. وكان مهندسوه قد تقدموا بهذه الاقترحات إلى الرئيس السابق كلينتون في ٢٨ كانون الثاني /يناير ١٩٩٨ وطلبوا منه الاستعجال بتنفيذ اثنين منهما، أولهما إعادة «ترتيب» الأمم المتحدة، والثاني هو القضاء على النظام العراقي بالقوة المسلحة لأنه يشكل تهديداً للولايات المتحدة وإسرائيل والدول العربية. لكن الرئيس كلينتون أهمل الاقتراحات ولم يعرها اهتماماً جدياً. وبالتأكيد فإن هذا المشروع كان سينتهي إلى عالم النسيان لولا أن كل الموقعين عليه صاروا مسؤولين ومستشارين على أعلى مستوى في إدارة الرئيس بوش ولا سيما في البيت الأبيض ووزارة الدفاع. والواضح من تفاصيل المشروع وهوية الموقعين عليه وانتماءاتهم أن وراءه ثلاث قوى ضغط، أولها يمثل صناعة السلاح، وثانيها يمثل صناعة النفط والشركات العملاقة التي تملك في ما تملك وسائل الإعلام، بينما يلتقون جميعاً مع القوة الثالثة في المزايدة على اليمين الإسرائيلي. فبول وولفوتز Paul Wolfowitz، وهو الأب الإيديولوجي للمشروع، من تلاميذ الاستراتيجي القيامي ألبرت ولستتر Albert Wohlstetter أكاديمياً، ومن تلاميذ فلاديميرجابوتنسكي سياسياً. ويعتبر عمله هو وزميلاه ريتشارد بيرل Richard Perle (المعروف باسم أمير الظلام) ودوغلاس فايث في البنتاغون امتداداً لنشاط منظمة الهاغانا داخل وزارة الدفاع الأميركية. وهم جميعاً من دعاة الحرب على العراق كخطوة أولى في حرب ستشمل ست دول عربية وإسلامية (سورية، لبنان، الصومال، السودان، ليبيا، إيران) تنتهي برسم خريطة جديدة للعالم العربي وإعادة صياغة لثقافته وأخلاقه ومناهج تعليمه. وكانت فكرة المشروع قد انبثقت في ذهن وولفوتز أيام حرب الخليج عندما كان يزور بعض أفراد عائلته في تل

أبيب وكان يشاهد صواريخ سكود العراقية تتساقط على المدن «الإسرائيلية». والمعروف أنه هو الذي قال «إن السلام في الشرق الأوسط يمر عبر بغداد».
وتقول *The New York Review of Books* صحيح أن معظمهم [مهندسي المشروع] يهود، وكلهم تقريباً من مؤيدي سياسات حزب الليكود ... لكن [يجب أن لا ننسى] أن بوش وكبير مستشاريه السياسيين كارل روف Karl Rove يتطلعان إلى الحصول على عدد من أصوات اليهود في ٢٠٠٤ أكثر مما حصلا عليه عام ٢٠٠٠، وليضمنا دعم أعضاء اليمين المسيحي الذين يعتبرون من المؤيدين المتحمسين لإسرائيل»، فلتدمير العراق تأثير نفسي كبير عند اليهود بشكل عام وعند البطميين بشكل خاص. انظر Elizabeth Drew في *The New York Review of Books*، ٢١ يونيو/حزيران ٢٠٠٣، المجلد ٥٠، العدد ١٠.

(٣) Ward Churchill, *A Little Matter of Genocide, City Light, San Francisco, 1997, p.406.*

(٤) راجع J. Leitch Wright في كتابه *The Only Land They Knew: the Tragic Story of the American Indians in the Old South,* New York: Free Press, 1981) ص ٧٨.

(٥) كوفين، ص ١٣ و ١٥.

(٦) المصدر السابق، ص ١٧.

(٧) من أغانيهم أيضاً:

We are members of the Carabao,Ha! Ha!
Hombre, here's a good old HOW,
The days that we fought in the Islands
From Jolo to old Luzon,
Were the Empire days which we long to relive

ولمزيد من هذا الأدب الرسالي، راجع:
http://www.boondocksnet.com/centennial/carabao/mocsongs.html

(٨) كوفين، ص ٢٣.

(٩) عن سيرة الكابتن ستانديش، راجع Richard Drinnon: في *Facing West*، (منشورات University of Oclahoma Press) نورمان ولندن ١٩٩٧، ص ١٠، ٤١، ٤٩، ١٢٣.

(١٠) باسم مطلق ما: الله، الخير الأسمى، الحضارة، الديموقراطية، المجتمع الدولي..الخ.



الفصل الرابع

فكرة أميركا وينابيع عنفها

تتحدث عن الله وأنت تكفر به. وتتحدث عن الحرية وأنت تدمرها. وتتحدث عن الديموقراطية والكرامة وأنت لا تتردد في التضحية بهما على مذبح مولوخ إله الدمار والدم الذي لا تعبد إلا إياه.

من رسالة أدولف بيريز إسكيڤل

الحائز على جائزة نوبل للسلام إلى الرئيس بوش، ٢٠٠٣/٤/٣٠.

«فكرة إسرائيل» كما عرضتها الكلاسيكيات العبرانية ورسمها مؤدلجوها في القرنين الماضيين، وكما بدأت تتنفس الحياة في أرض فلسطين مع الاحتلال البريطاني للقدس في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧، تتضمن (في ما تتضمن) ثلاث مهمات أساسية لا تتحقق إلا بالعنف:

١ ــ احتلال بلاد الآخرين.
٢ ــ استبدال سكانها بسكان غرباء (واستعباد من يعصى منهم على الاستبدال).

٣ ــ استبدال ثقافتها وتاريخها بثقافة المحتلين الغرباء وتاريخهم.

هذه الفكرة التي لفظتها إرادة الحياة من أرض كنعان مرة بعد مرة، بصورها البدوية الأسطورية وصورها الأوروبية القروسطية، كانت تلهب مخيلات القديسين الإنكليز الذين غزوا شمال أميركا. فمن قبل أن تبحر سفن مستعمريهم إلى پليموث وكايب كود وما صار يعرف لاحقاً بإنكلترا الجديدة New England كانوا يسمون أنفسهم بالمستعبِرين Hebraists، ويطلقون على العالم الجديد الذي لم يروه بعد اسم «كنعان الجديدة» أو يخصصون ذلك أحياناً فيسمونه «كنعان الانكليزية» New English Canaan أو «إسرائيل الله الجديدة» God's new Israel أو «أرض الميعاد». وكانوا يعتقدون أنهم الورثة الروحيون ليهود اللحم والدم الذين تخلوا عن جوهر رسالتهم (فكرة إسرائيل) فلم يعد لها من «شعب مختار» يحملها ويرفع رايتها ويمجد الله بتحقيقها غيرهم. هذه الصيغة الإنكليزية من «فكرة إسرائيل» لازمت تاريخ أميركا منذ موجة الاستعمار الأولى قبل أن يولد هرتزل بأكثر من ثلاثة قرون. تبناها المحافظون واللاهوتيون بصيغتها المقدسة، كما تبناها العلمانيون والليبراليون على شكل ما يسمى اليوم في أميركا بالدين المدني. إن تاريخ الدين المدني كما يروي عالم الأديان الأميركي كونراد شيري Conrad Cherry هو «تاريخ القناعة الراسخة بأن الأميركيين هم الإسرائيليون فعلاً وشعب الله حقا[١]. لقد تلبست «فكرةُ إسرائيل» جوهرَ «فكرة أميركا» وصاغت شكلها فمن المسلّمات أن الأمة الأميركية أقرب إلى الإسرائيليين الأوائل من أي شعب آخر على وجه الأرض. لهذا شاعت تسمية «أميركا الإسرائيلية» American Israel على بلادنا ودرجت. إن رضانا بهذه التسمية وإجماعنا عليها هو الذي يجعلها أمينة وحقيقية»[٢].

وبما أنه ليس هناك من شعب يعطي بلاده وحريته للغزاة الغرباء تطوعاً فقد كان لا بد لفكرة إسرائيل وفكرة أميركا من تقديس طقس العنف الذي استلهم أخلاقه من منبع واحد. كل بلاغة العنف الأميركية كانت وما تزال تستمد استعاراتها من أدبيات «فكرة إسرائيل» وقصصها المقدسة وأنماط سلوك أبطالها. فحين ألقى كوتون ماذر (وهو من أبرز أنبياء أميركا الإسرائيلية) خطبة الحرب أمام الكتيبة المتوجهة لغزو الهنود عام ١٦٨٩، كانت استعاراته تنفخ الحياة في أساطير العبرانيين وتلح على المعنى الإسرائيلي لأميركا. فالجنود المتوجهون لغزو الهنود هم (على الحقيقة ولا لزوم لأدوات التشبيه) «بنو إسرائيل في مواجهة العماليق»[٣]، «وما على بني إسرائيل الجدد إلاّ أن ينقضّوا على أعدائهم بالطريقة التي انقض بها العبرانيون على أعدائهم العماليق: فليُسحقوا كغبار تذروه الريح، وليُكنسوا مثل الوسخ في الشوارع إلى أن يبادوا فلا يبقى منهم أثر»[٤]. لقد تبنت «فكرةُ أميركا» في حرب إبادة الهنود أخلاق العنف التي تحلت بها «فكرة إسرائيل» التاريخية تلميحاً وتصريحاً. إن البعد المقدس في هذا العنف هو الذي جعله مثالاً يحتذى لقتل الهنود وإخضاعهم وسلبهم أرض آبائهم وأجدادهم. فالهنود، كما يروي رولاند بينتون Roland H. Bainton يستحقون القتل والإبادة، تارة لأنهم عماليق أو عمونيون أو كنعانيون أوصت السماء بقتلهم أو تشتيت شملهم حتى يتم أمر الله بتأسيس إسرائيل الجديدة، وتارة لأن إبادة الرجال والنساء والأطفال وقتل المواشي وتدمير المدن وتقويض المعالم الثقافية لازم للحفاظ على نقاء شعب الله. ثم إن بينتون، وهو أحد أبرز مؤرخي الأديان المعاصرين، يرى أن الصليبيين في القرون الوسطى لفقوا مثل هذه الأعذار لتجميع صفوفهم وتعبئة حملاتهم[٥]، وأن الإنكليز قبل كوتون ماذر وبعده برروا بها حروبهم[٦] واستعذبوها لأنها

تسامت بجرائم قتل الهنود ونهبهم وإبادتهم إلى مرتبة العبادة، بل لربما ــ كما يقول بيتر كريجي Peter Craigie جعلت من إبادة الشعوب وتدمير المدن نذراً مقدساً[٧]. إن فكرة إسرائيل قدمت للشعب الإنكليزي المختار كل المنظومة الأخلاقية التي يحتاج إليها لاجتياح «مجاهل» الشمال الأميركي وإفراغها من أهلها. («والمجاهل» wilderness تعريفاً هي كل أرض لا يسكنها إنسان أبيض). إن إيمانهم بأن الله يحارب معهم، وقناعتهم بأنه أحد رعايا جلالتها God is an Englishman كانوا يتلقنونه ويتوارثونه جيلاً بعد جيل. فهو الذي حارب مع ميليشيات المستعمرين الأوائل وميز بين جنوده وجنود الشيطان، و«أرسل الأوبئة رحمة منه لقطع دابر الهنود وإفراغ الأرض للإنكليز»[٨]، وهو الذي يزور البيت الأبيض من آن لآن ليكلم الرؤساء ويأمرهم بتحرير هذا البلد أو ذاك[٩]. بهذه القناعة تميَّزَ الخبيث من الطيب ورسم شعب الله الإنكليزي الحد الفاصل بينه وبين أولياء الشيطان، وبها تحولت كل «مجاهل» الأرض المرشحة للمصير الكنعاني إلى ممالك شر لا بد من تدميرها.

إن «حق الحرب» Right of War الذي سنه مستعمرو جيمستاون في عام ١٦١٠ وأجازوا به لأنفسهم توسعاً لانهائياً في «مجاهل» العالم الجديد ليس له من ترجمة حديثة أفضل من عقيدة «الحرب الوقائية» prventive war التي أجازت الولاياتُ المتحدة بها لنفسها اجتياحَ «مجاهل» العراق وتدميرها مستعينة على ذلك بلغة أورويللية عبّر عنها أدولفو بيريز إسكيڤل Adolpho Pérez Esquivel الحائز على نوبل للسلام (١٩٨٠) في رسالة إلى الرئيس بوش:

تتحدث عن الله وأنت تكفر به. وتتحدث عن الحرية

> وأنت تدمرها. وتتحدث عن الديموقراطية والكرامة وأنت لا تتردد في التضحية بهما على مذبح مولوخ إله الدمار والدم الذي لا تعبد إلا إياه[١٠].

وكان جون أوسليڤان John O'Sullivan، وهو أحد أعظم فلاسفة «فكرة أميركا» في القرن التاسع عشر، قد بعث «حق الحرب» من مرقده في عام ١٨٤٥ وأطلق عليه اسم «القدر المتجلي» Manifest Destiny وذلك لكي ينسب سياسة الاجتياحات الأميركية إلى التدبير الإلهي ويضفي على حروبها التوسعية لضم تكساس وأورغن، ونيو مكسيكو، وكاليفورنيا (ولاحقاً، على تدخلاتها المسلحة) في الفيليپين وهاوائي وألاسكا طبيعة قدرية حتمية. وسرعان ما تحول «القدر المتجلي» إلى عقيدة تبناها سياسيو الحزبين الجمهوري والديموقراطي، وتنافسوا على عسكرتها. بعد أقل من ستين سنة وجد الشعب الآري المختار في ألمانيا ضالته الجيوسياسية في عقيدة «القدر المتجلي» فاقتبسها وأعطاها اسم «المجال الحيوي» lebensraum[١١]، وهي العقيدة التي كلفت إنسانيتنا عشرات ملايين الضحايا. هذه الحرب الوقائية التي ظلت «فكرة أميركا» تشعل نارها على مدى أكثر من أربعة قرون استعارت أيديولوجيتها كما استعارت أخلاق عنفها من «فكرة إسرائيل»، فقد احتلت بلاد الآخرين، واستبدلت بأهلها أغياراً غرباء، وقضت على تاريخ وثقافات أكثر من ٤٠٠ أمة وشعب واستبدلت بها ثقافة المحتلين وتاريخهم. وصارت بذلك مثالاً عملياً ونبراساً يحتذى.

كلتا الفكرتين، «فكرة أميركا» و«فكرة إسرائيل»، تنطلق من «عقيدة الاختيار» و«جبرية المصير» فتسخر من حقائق التاريخ والحفريات الأثرية ولا تقيم وزناً للوقائع الجيوسياسية. إن قديسي الفكرتين

يعتقدون أن نصوصهم المقدسة تغني عن علم الطبيعة وعلم التاريخ وتعتبر المرجع الأعلى لماضي أرض كنعان (حيثما كانت أرض كنعان) ومستقبلها أيضاً. هذا الخلق الجديد للطبيعة والتاريخ لاستبدال شعب منحط بشعب متفوق وثقافة همجية بثقافة سامية لا يستقيم إلا بطقس العنف. وهو عنف مقدس احتفالي، ضروري ومطلق، يعلو على عالم الأخلاق والقيم والمسلمات البشرية لأنه الوسيلة الوحيدة لاستبدال المصير الطبيعي لأرضنا وحياتنا الإنسانية بمصير «فوق ـــ طبيعي» ولأنه آية استبدال مدينة القدس الدنيوية بقدس تنزل من السماء. أما ما قد يحدث للملايين من البشر الذين عاشوا في أرض كنعان وقدسها آلافاً من السنين قبل أن يعرف التاريخ شيئاً عن فكرة إسرائيل، فتضحيات تافهة ضرورية لتطهير الطبيعة والتاريخ واستبدالهما بطبيعة وتاريخ أعلى.

* * *

برغم الهزيمة الأيديولوجية أمام الثورة الأميركية وروح التنوير الأوروبية التي تبناها الآباء المؤسسون Founding fathers مثل باين وجفرسون وواشنطن وآدامس وماديسون وفرانكلين فقد شق هذا العنف الطقسي قنواته إلى عقائد الأصوليين الأميركيين وأنبياء الرأسمالية المتوحشة الذين ما زالوا يعتقدون «أن هيمنتهم على العالم هي إرادة الله»[١٢]. وعلى الرغم من انغماس معظم هؤلاء الآباء في طقس العنف وإلحاحهم على المعنى الاسرائيلي لأميركا فقد حفلت كتاباتهم بنقد لاذع للخطاب المقدس التي غشي موجات الاستعمار الأولى. كانت كتابات هؤلاء الآباء تعبر عن اشمئزازهم من وصايا الكهان وخوفهم من تواطؤ الدولة معهم على حريات البشر وتعذيب عقولهم وأرواحهم. ومن أجل هذا أنفق الآباء المؤسسون وقتاً طويلاً في نقد أيديولوجيا الاستعمار العبري،

وعبروا عن اشمئزازهم من وصايا الخطاب المقدس الدموية ومضارباته العقارية وتسليته السادية بالشعوب والأعراق. أرادوا أن يصونوا حرية الإيمان والكفر في «التعديل الأول» من الدستور الذي حرر السياسة الأميركية من سيطرة الكهان وحدّ من خطرها وخطرهم على «إرادة الله». هكذا صنعوا الثورة الأميركية وكتبوا الدستور ووضعوا ميثاق الحقوق Bill of Rights بالصيغة التي وصلتنا لأن ذاكرتهم مشحونة بفظاعات محاكم التفتيش وصيد الساحرات وأهوال حملات الإبادة وحرق المحاصيل ومحو المدن والقرى والتطهير العرقي والعنصرية التي جردت كنعانيي العالم الجديد من كنعانهم وإنسانيتهم وجعلتهم مجرد كائنات مشوهة. ولقد تبين لاحقاً أن هذا الدستور الأميركي مستوحى في أكثر تفاصيله من شرعة السلام الكبرى The Great Law of Peace التي ظلت أكثر من ألف سنة تشيع السلام والحب والتسامح في الشمال الأميركي بين ست أمم من هذه الكائنات الهندية النبيلة التي حكمت عليهم «فكرة إسرائيل الأميركية» بالمحو الجسدي والثقافي. إن الخطاب الذي يعزو جرائم فكرة أميركا الإسرائيلية إلى إرادة الله هو، كما يقول باين، في قصصه الفاحشة، وجرائمه الفظة... خطاب شيطاني شرير يفسد البشر ويصنع منهم وحوشاً[١٣]. إنه في عصر العقل *The Age of Reason* يعري فلسفة أخلاق هذا الخطاب الديني الذي برر حملات الإبادة والمذابح الطقسية والتضحية المقدسة بذلك «الآخر» الكنعاني المهدور الدم من الركبة الجريحة Wounded Knee إلى رأس الرجاء الصالح ومن ضفاف الميزوري إلى ضفاف دجلة. لقد أراد هذا الخطاب ــ وهو يرسم مصير الشعوب، فرادى وجماعات ــ[١٤] أن يقرن طقس العنف المميت بإرادة الله ليضع الأسس الأخلاقية اللازمة لاستبدال شعب منحط بشعب متفوق وثقافة

بدائية بثقافة سامية، ولاستبدال المصير الطبيعي لأرضنا وحياتنا الإنسانية بمصير «فوق ـ طبيعي». هذه الحرب الوقائية التي أطلقتها إدارة الرئيس بوش كترجمة قيامية لـ«حق الحرب» (١٦١٠)، وللقدر المتجلي (١٨٤٥) ليست إلا محاولة جديدة لاغتصاب إرادة الله نفسها، ودليلاً آخر على هذا الوحل الأصولي الذي تغرق فيه الدولة الأميركية كلما تعاملت مع العرب، ومع المسألة الفلسطينية بشكل خاص. ومن المفارقات أن الرئيس دوايت أيزنهاور سئل في عام ١٩٥٣ عن اصطلاح الحرب الوقائية فقال إنها من اختراع أدولف هتلر[١٥].

الهوامش

(١) Conrad Cherry (ed.), *God's New Israel, Religions Interpretations of American Destiny*. p. 19. (The University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1998).

(٢) من خطبة «عيد الشكر»، ١٧٩٩، وقد استشهد بها في المصدر السابق، ص: ٧.

(٣) Cotton Mather, *Soldiers Counselled and Comforted, a discourse Delivered Unto Some Part of the Forces Engaged in the Just War of New England Against the Nothern and Eastern Indians*. (Printed by Samuel Green, Boston 1689), p.37.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٢، وانظر الصفحات ١٧، ٢٤، ٢٥، ٣٨.

(٥) Roland H. Bainton, *Christian Attitude Toward War and Peace*. Nashville, Abingdon, 1960. p. 112-133.

(٦) المصدر السابق ص ١٥٠ ــ ١٥١.

(٧) Peter Craigie, *The Problem of War in the Old Testament* (Grand Rapids, MI Eerdmans, 1978). p.74.

(٨) Alexander Samuel Salley, *Narrative of Early California*, 1650-1708, (New York, C Scribner's sons, 1911) p. 284..

(٩) الحديث مع الله شائع في الولايات المتحدة ونسمع عنه غالباً في مناسبات جنائية تتكرر في الولايات الجنوبية بشكل خاص مثل الانتحار الجماعي الذي ترتكبه بعض الخلايا الدينية امتثالاً لأمر تلقته من الله أو مثل حوادث القتل الفردية التي تتكرر يوماً بعد يوم كما فعلت دِينّا لاجون لاني Deanna LaJune Laney التي كسرت جمجمة ثلاثة من أطفالها بصخرة كبيرة فقتلت اثنين منهم (لوك ــ ٦ سنوات، وجوشوا ــ ٨ سنوات) وأصابت طفلها الثالث (آرون ــ ١٤ شهراً) بجروح بليغة ثم اتصلت بالشرطة وأخبرتهم أنها قتلت أطفالها بعد أن ظهر لها الله وأمرها بذلك (**أسوشيياتد پرس**، ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٣).

(١٠) Counter Punch, 30 April 2003.

(١١) لترى مدى إعجاب وتأثر هتلر بعقيدة القدر المتجلي Manifest Destiny،

انـــظـــر: Frank Parella, *Lebensraum and Manifest Destiny: A Comparative Study in the Justification of Expansion*, M.A. thesis, Georgetown University, 1950.

(١٢) Monica Sjoo & Barbara Mor, *The Great Cosmic Mother, Redescovering the Religion of the Earth* (Harper &Row, San Francisco, 1975) P. 331.

(١٣) المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(١٤) من شواهد ذلك على المستوى الفلسطيني: «لنطارد الفلسطينيين ليلاً وننهبهم إلى ضوء الصبح ولا نبق منهم أحداً»، و«سأرمي بجثث الفلسطينيين لطيور السماء ووحوش البرية»؛ وعلى مستوى الأرض: «سأسحق بك الأمم».

(١٥) غاليانو في *La Jornada*، ٢٠٠٣/٣/٣٠.

الفصل الخامس

بحثاً عن أمّ

[يوماً ما، سيجد الأتراك [يقصد العرب والمسلمين عموماً] أن نار جهنم أرحم بهم من إنكلترا

توماس هوكر Thomas Hooker

١٦٣١

إن النزاع المخيم في الخليج الفارسي بكل بساطة ليس مجرد معركة من أجل الكويت أو لبسط السيطرة على نفط الشرق الأوسط. إنه الفصل الأخير في حرب قديمة تدور رحاها منذ أربعة عشر قرناً بين الشرق والغرب، بين الإسلام ومنافسيه التوحيديين: المسيحية واليهودية.

مجلة *U.S. News & World Report*

عدد ٢٧ آب/أغسطس ١٩٩٠

قديسو «فكرة أميركا» على طرفي المحيط، لا اليهود، هم الذين أقاموا الصلوات ابتهاجاً بالخلق «المبدئي» لدولة إسرائيل في عام ١٩٤٨، وهم الذين اعتبروه هدية من الله وتعبيراً عن إرادته ونبوات أنبيائه. ففيما كانت عيون الرئيس المؤمن ترومان تفيض بالدمع كان معظم يهود العالم يحتفلون بهذا «الحدث» سياسياً غير

واثقين من طبيعته الدينية، كما يروي بينتون في كتابه «المسيحية *Christianity*». وهرتزل نفسه لم يكن ربانياً ولا نبياً بل كان سياسياً رؤياوياً بارعاً. لم يطلب دعم ملائكة السماء بل كان يبحث عن عضلات استعمارية تنهض بمشروعه الذي يعرف أنه لن يتحقق إلا بالعنف. إنه هو الذي مجد الإرادة وصاغ في روايته البائسة «الأرض القديمة الجديدة *Old -New Land*» شعار «إذا أردت فأنت لا تحلم». لقد أدرك بطبيعته البراغماتية أن دعم بريطانيا، وهي القوة العظمى التي لا تغيب عن أحلامها «رؤيا القيامة» هو الذي يؤمّن آلة العنف اللازم لمغامرته الاستعمارية. كانت لندن (قبل أن تبزّها واشنطن) متحفاً وطنياً لما يسمى بالصهيونية المسيحية، وكان نضالها التاريخي الطويل من أجل «إعادة اليهود إلى أرض أجدادهم» قد علّم هرتزل بأن أوروبا إذا لم تعرف المسألة اليهودية ولم تعرف شيئاً عن الصهيونية فإن التاج البريطاني لا بد أن يخلق شيئاً بهذا المعنى. ومن يقرأ يوميات هرتزل يدرك أن أبا الصهيونية اليهودية لم يدع مجالاً للشك في أن مشروع دولته مغامرة استعمارية وأنه كان يبحث عن «دولة أم mother state» تتكرم على اليهود بهذه المستعمرة في أي مكان لا يسكنه البيض؛ أي مكان من تلك «المجاهل» التي تهيم فيها كائنات خرطوشية قابلة للاستبدال: في جنوب أميركا، أوغندا، موزامبيق، العريش، العراق، قبرص، مدغشقر، ليبيا ــ أي مكان. أما فلسطين «أرض اسرائيل التاريخية» بأورشليمها ومعبدها فلم تكن إلا واحدة من هذه الطرائد الكثيرة التي تحتاج إلى دولة استعمارية عظمى تطلق عليها رصاصة الرحمة وتولمها لليهود. ولم تكن هذه الطريدة قد تحددت بعد عندما أنهى هرتزل كتاب «الدولة اليهودية» في عام ١٨٩٥ حيث كان حقل الصيد ما يزال يمتد بين الأرجنتين وفلسطين، لا ولم تكن الفريسة نصب العين في

٢٣ أكتوبر ١٩٠٢ (**اليوميات**) عندما قال لوزير المستعمرات البريطاني جوزيف شامبرلن إن «المستعمرة اليهودية يمكن أن تقوم في أي بقعة من الممتلكات الإنكليزية التي لم يسكنها البيض بعد». حتى قبيل وفاته بأشهر كانت عيناه تتطلعان إلى مستعمرة في شمال أفريقيا، فسافر إلى إيطاليا وسأل ملكها أن يهب ليبيا لليهود. أما الملك الكاثوليكي الغريب عن «فكرة إسرائيل» وحقها في استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة فقد أجابه وكأنه طفل الأمبراطور العاري: «لكن المشكلة أن ليبيا وطن لشعب آخر».

هكذا مات هرتزل في عام ١٩٠٤ وفي نفسه شيء من أرض مغامرته الاستعمارية، لكنه لم يتزعزع إيماناً بحاجتها إلى عضلات قوة عظمى تحنو عليها وتمن عليها بالعنف وتكون لها بمثابة «الدولة الأم» التي تحتل لها تلك الأرض الغريبة، وتعينها على استبدال شعبها وثقافتها وتاريخها. صحيح أنه أشار إلى ضرورة اللجوء إلى الخداع والغدر للتخلص من سكان المستعمرة (**اليوميات**: ١٢ حزيران/ يونيو ١٨٩٥) إلا أنه كان يعلم أن مغامرته الاستعمارية تحتاج إلى خيال من نوع خاص يعلو على عالم الأخلاق والقيم والمسلمات البشرية تسترد به «فكرة إسرائيل» بعض ما لها من دين على «فكرة أميركا»، لعله كخيال كوتون ماذر الذي وصف قتل الهنود بصيد الذئاب[١] أو خيال جورج واشنطن الذي كرر الصورة وقال بأن الهنود لا يختلفون عن الذئاب إلا بالمظهر[٢].

في مناخ هذا التبادل «الثقافي» الحميم بين فكرة إسرائيل وفكرة أميركا لم يكن خيال هرتزل بحاجة إلى شحذ كبير ليتخلص من شعب مستعمرته:

إذا اضطررنا إلى تطهير بلد من الحيوانات المتوحشة فإن

> علينا أن ننظم حفلة صيد هائلة مفعمة بالحياة تسوق هذه البهائم جميعاً [إلى الخيار الوحيد] وتحصرها، ثم ترمي في وسطها قنبلة الميلنيت «melinite» (ويبدو أنها كانت أخطر القنابل المعروفة في زمانه)[٣].

على أرض الواقع، حيث الطرائد المنشودة في تلك «الحفلة المفعمة بالحياة»، بشر من لحم ودم، يصبح مشهد الصيد أقل شاعرية. ثم تختفي صورة «الذبيحة الضاحكة»[٤] عندما يتدارس أولياء «فكرة إسرائيل»، بعيداً عن عيون الرقباء وهموم الإعلام، استراتيجية استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة، ويناقشون أفضل السبل للقضاء على وجود هؤلاء «غير الموجودين». في عام ١٩٢٣ ترك لنا ڤلاديمير جابوتنسكي صورة أكثر واقعية لـ«حفلة الصيد المفعمة بالحياة»، وذلك في شهادة ثمينة عن تماهي «فكرة أميركا» و«فكرة إسرائيل» في فلسفةِ العنفِ واستراتيجيةِ استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. في هذه الشهادة التي تعرف بعنوان «الجدار الحديدي The Iron Wall»[٥] كشف جابوتنسكي (وهو الأب الروحي لكثير من صانعي القرار الأميركي اليوم) عن تماثل حالتي عرب فلسطين وسكان أميركا الأصليين (الأزتك وشعب سو) لكي لا يدع مجالاً للشك في ضرورة استعارة استراتيجية الاجتياح الأوروبي لأميركا للتخلص من عرب فلسطين، وضرورة انتداب بريطانيا «الدولة الأم» لخلق المناخ والوسائل اللازمة لهذا الهدف النبيل. هذا المانيفستو الذي تسترد به «فكرة إسرائيل» أيضاً بعض ما لها من دين على «فكرة أميركا» يشكل مرجعاً موجزاً وميسراً لفلسفة «حق الحرب» و«القدر المتجلي» و«الحرب الوقائية» وكل استراتيجيات غرور القوة بما في ذلك مشروع «من أجل قرن أميركي جديد» الذي دشن نشاطه باجتياح العراق.

هنا، على أرض الواقع، تكشف «فكرة إسرائيل» ما كشفت عنه «فكرة أميركا» من قبل: فلسفة عنف صدامية لا تُوارِب في عرضها ولا ترسم ضحكة في وجه ذبائحها. إنها تمجد العنف وتعتبره وسيلة نبيلة مشروعة وهدفاً في ذاته. فهي لا تقتل أو تدمر في الظلام، بل في وضح النهار. القوة هي الحق، لا لأن لها دوراً طوباوياً في دراما الخلاص أو غير ذلك من أهداف مصيرية يعلكها الفلاسفة، وإنما بكل بساطة لأن القوة هي الحق. فما دام همُّ الطبيعة الأعظم هو البقاء survival والنماء فإن من مسلّمات الطبيعة أن الأقوياء هم الذين ينتصرون في معركة البقاء، ولا يُسألون عما يفعلون لأنهم.. أقوياء. يستوي في ذلك قتل البشر وذبح الخنازير.

> «قبل يومين وزع مستوطنون متطرفون منشورات تدعو إلى طرد العرب من هذه الأرض [فلسطين]. وحين رآها البروفسور يهودا باور Yehuda Bauer وهو أحد مؤرخي الهولوكست الإسرائيليين قال: «إن التطهير العرقي يقتضي بالضرورة حفلات قتل جماعية».

وسأله أحد تلاميذه:

ــ «هل أفهم من ذلك أن إسرائيل قد تلجأ إلى إبادة commit genocide الشعب الفلسطيني جماعياً؟»

فأجاب البروفسور: «نعم»[٦].

* * *

هذا الخطر المعلق على رقاب البشر لا ينبثق من «فكرة إسرائيل» نفسها وحسب[٧] أو من التزامها الحتمي بطقس العنف، بل أيضاً

من تناصها مع «فكرة أميركا» وولوغها في البنية الثقافية والدينية والتاريخية وفي النزعة الرأسمالية المتوحشة للأنكلوسكسون على طرفي المحيط، ومن انضوائها تحت جناح قوة استعمارية عظمى وإغوائها بدور «الدولة الأم» التي توفر العنف اللازم للفتح ولاستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. إن ولادة هذه الدولة في الحاضنة البريطانية ــ بعد أن حاول هرتزل ذلك لدى معظم القوى العظمى في زمانه، بدءاً من روسيا وانتهاءاً بالبرتغال ــ ليس مصادفة، ففكرة إسرائيل تسري في عروق الدم الأزرق قروناً قبل أن يولد هرتزل وجابوتنسكي. ولم تكن هذه الفكرة بما تتضمنه من احتلال فلسطين واستبدال أهلها وتاريخها وثقافتها إلا وجهاً واحداً في جوهرة الصداقة الإنكليزية العريقة للعرب والمسلمين.

غير أن البحث عن «دولة أم» ليس من اختراع هرتزل، بل كان تقليداً عريقاً ملازماً لكل مغامرات «فكرة إسرائيل» عبر التاريخ. فمنذ ولادة الفكرة أدرك أهلها أن تحقيق أهدافها لا يتأتى إلا بدسها تحت جناح قوة عظيمة من قوى زمانها قادرة على توفير العنف الكافي لتحقيق الفكرة، بدءاً من فراعنة مصر وانتهاءاً بفراعنة واشنطن. ولا بأس كذلك من تطويع ما يمكن تطويعه وتأويل ما يمكن تأويله من حواشي الفكرة ليتلاقح مع منظومة قيم القوة العظمى ومعتقداتها وخططها العسكرية. وبما أن «الفكرة» (الاحتلال واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة) هي المطلق فإن كل بذلٍ دونَها يهون في سبيلها. إن اصطلاح «الحضارة المسيحية ــ اليهودية» الذي لا يعلم أحد له أباً أو منشأً أو تاريخ ولادة أو تعريفاً واضحاً (فهو مثلا يستثني من ملكوته كل المسيحيين واليهود غير الأوروبيين بشكل عام والمسيحيين العرب بشكل خاص) ليس بأول زواج انتهازي من نوعه في تاريخ «فكرة إسرائيل»، فالكتاب

المقدس مثلاً يحدثنا عن كثير من مثل هذه التحالفات[٨]، بل إن الفرس والعرب (الأمتين المستهدفتين اليوم) تعرضتا لمثل هذه الغواية.

في محاولتهما لتجريد الحضارة العربية/الإسلامية من فضائلها وتطويبها لليهودية، اشتركت باتريشيا كرون Patricia Crone (أستاذة التاريخ فى مؤسسة الدراسات العليا في برنستون) ومايكل كوك Michael Cook (أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة برنستون) في تأليف شهادة أكاديمية من ٢٦٨ صفحة[٩] عن مشروع زواج بين العرب واليهودية أعدته العناية الإلهية عند ظهور الإسلام، صاغا له اصطلاح «اليهودية ــ الهاجرية» (نسبة إلى هاجر الجارية التي تقول الكلاسيكيات العبرانية إنها الجدة التي أورثت نسلها العربي خدمة السادة أولاد سارة إلى يوم القيامة). والكتاب محاولة باهرة لتوثيق اعتقاد اليهود في القرن السابع بأن عمر بن الخطاب هو «المسيا» المنتظر الذي أطلقوا عليه اسم پاروقَ Paroqa (الفاروق) الذي يعني بالآرامية: المخلص أو الفادي Redeemer. ونقل المؤلفان عن مصادر مختلفة شهادات عن التحاق كثير من اليهود بجيش العرب المسلمين الزاحف إلى بيت المقدس، وحول تهليلهم بفتح القدس عام ٦٣٨ واعتباره تحريراً مباركاً من العناية الإلهية. ما يذهل فعلاً في جهدهما الصبور هو كشفهما عن هذا التراث اليهودي الهائل من المدائح والملاحم والنصوص القيامية التي مجدت مسيائية الإسلام وأشادت بقوته الصاعدة وأعادت الاعتبار إلى أولاد الجارية، وحرّضتهم (كما يفعلون اليوم في واشنطن) على الانتقام لهم من أعدائهم الأزليين الأبديين؛ الروم (مسيحيي الشرق) وكل أبناء الحضارات المنذورة للدمار في الشرق العربي القديم. من ذلك أن بعض الأحبار جندوا كل عبقرية التأويل والخرافة للتأكيد على أن الأنبياء توقعوا كل شاردة وواردة من هذه الفتوحات

العربية وبشروا بأبطالها الذين «سيقودون اليهود إلى مملكتهم». فما دام عمر بن الخطاب من نسل إسماعيل فإن كل إشارة لإسماعيل في الكتب المقدسة تؤكد على ظهور ملك من ذريته يخلص بني إسرائيل. وما دام هذا الخليفة يدخل الأرض المقدسة على حمار فإننا نجد في «ملحمة الأسرار» للحاخام شمعون بن يحيى *The Secret of Rabbi Simon Be Yohay* مقطعاً طويلاً مخصصاً لنبوءات حمير التوراة استيحاء من حمار الخليفة عمر. وتقول الملحمة أيضاً إن اليهود أقنعوا عمراً بأنه هو «ثاني ملوك بني إسماعيل الذي تقول عنه التوراة إنه سيكون عاشقاً لإسرائيل مغرماً بها فيجدد عهودها ويرأم جراحها ويكفكف دموع أبنائها ويعيد بناء معبدها، وأن بني إسرائيل بعد الآن لن يفارقوا معبدهم ولن يبعدوا عنه إلى الأبد». وفي عقيدة يعقوب الرهاوي *Doctorina Iacobi* ما هو أتقى[١٠].

أربعة عشر قرناً انقضت بين نجم الإسلام الصاعد في الجزيرة العربية ونجم الصهيونية الأنكلوسكسونية الصاعد في الولايات المتحدة، تغيرت فيها اللغة والوجوه، ولم تتغير طبيعة الشراك المنصوبة لاصطياد الدولة الأم وتحريضها على القتل والدمار. بين «پاروقَ» العربي و«پاروقَ» اليانكي أفل نجم وبزغ نجم، مات الملك وعاش الملك، ولم تتغير إلا الأسماء.

في عام ٦١٤ (قبل الفتح الإسلامي بحوالى ربع قرن) كان هذا الصدى المسكون بعطش كعب الأحبار ويول وولفويتز إلى الدم يتردد في بلاط كسرى. وعلى غرارهما راح ينصب شراك الغواية لنجم الأمبراطورية الفارسية الصاعد ويحضها على القتل والدمار. ويروي كولن ثوبرون Colin Thubron في كتاب «القدس»

Jerusalem كيف غضب سكان القدس المسيحيون من تحريض اليهود للفرس على الغزو[١١]. بينما يروي تيدي كولوك كيف التحق المسلحون اليهود بجيوش الغزو الفارسي ... فقُتل عدد كبير من المسيحيين ودمرت الكنائس أو تضررت، وسيق البطريرك زكريا مع آلاف من المسيحيين إلى فارس أسرى[١٢]. ووفقاً لديونيزيوس التلمهري، أحد أعظم مؤرخي السريان فقد بلغ عدد القتلى من مسيحيي القدس تسعين ألفاً، وأضاف في حولياته Chronicles أن «اليهود دفعتهم ضغينتهم إلى شراء المسيحيين بأسعار بخسة من أجل قتلهم»[١٣]. وأمام مشهد انتصار الموت في قدس مقفرة من أهلها وملطخة بالدم، تقول كارين آرمسترونغ Karen Armstrong: «هاجت الآمال المسيائية: وبدأ الرؤياويون يشخصون بأبصارهم إلى المسيا [الفارسي] الذي سيطهر لهم الأرض كلها ويعيد بناء المعبد»[١٤].

لم يكن پول وولفويتز، الأب الإيديولوجي لـ«مشروع من أجل قرن أميركي جديد [في العالم العربي]»، بحاجة إلى تهييج الآمال المسيائية أو حتى إلى الاستعانة بلغة ستيوارت ميل الاستعمارية لتسويق «فكرة إسرائيل» وحاجتها إلى طقس العنف المميت، ففي تراث «فكرة أميركا» وفي عقيدتها القيامية، وفي البنية الثقافية للمؤسسة الأميركية الحاكمة، وفي فلسفة «ثروة الأمم» ما يجعل من الولايات المتحدة و«روحها الرسالية» المريضة بجنون التوسع la folie de grandeur مثال «الدولة الأم» القادرة على توفير كل العنف الذي لا تتحقق «فكرة إسرائيل» و«فكرة أميركا» بدونه. لقد استبطنت الغواية الجديدة نسيجاً معقداً من المصالح والأطماع والهوس الأمبراطوري والتعصب الديني ونصبت شبكتها بين فكي الوحش الرأسمالي بعد أن لَمَّظَتْه بدم الفرائس المشتهاة وحققنت

غرائزه بكل سعار الصيد. ففي «عيون المها» كل ما يحتاج له فن الغواية لتنظيم «حفلة صيد مفعمة بالحياة» يتسابق فيها مدراء مصانع السلاح ورؤساء شركات النفط وأنبياء «وول ستريت» تحفّ بهم صلوات تجار القيامة. إن تلميذ جابوتنسكي يقرع أجراساً عذبة تعشقها الآذان في البيت الأبيض والبنتاغون وتحت قبة الكونغرس، وتطرب لها القلوب المؤمنة التي تنام وتصحو على حلم دمار بابل. فدمار بابل وتحقيق «فكرة إسرائيل» بما تتضمنه من «حفلة صيد مفعمة بالحياة» لشعبٍ، ولثقافةِ شعب، وتاريخِ شعب، خطوتان لا بد منهما لدمار عالم الفساد واستبدال المصير الطبيعي لأرضنا وحياتنا الإنسانية بمصير «فوق ــ طبيعي». أما إذا أمهل الله فإن إصبع «موسى العصر» اليانكي القريب من زر القيامة يغني عن قيامة الله.

الهوامش

(١) *Souldiers Counselled and Comforted, a discourse Delivered Unto Some Part of the Forces Engaged in the Just War of New England Against the Nothern and Eastern Indians,* (Boston, 1689). p.9.

(٢) Francis Paul Prucha (Ed.), *Documents of United States Indian Policy,* (University of Nebraska Press,Lincoln/ London 1990). p.1,2.

(٣) Theodor Herzl, *The Jewish State*, trans. Sylvie D'Avigdor, (London, 1946), pp. 28-29.

(٤) بعض شركات بيع اللحم ومشتقات الحليب في أميركا تزين مبيعاتها وإعلاناتها بصورة لبقرة ضاحكة ترقص في الحقل فرحاً، في صور بهيجة تخفي ما وراء «ضحكة الذبيحة» من سادية. هناك عدد من أفلام «الفيديو» التي التقطها أنصار الرفق بالحيوان وبعض الحقائق التي نشروها عن خلفية تلك «الضحكة». من ذلك تقرير قرأته في «الواشنطن بوست» قبل حوالي سنة يقول إن متوسط سرعة الذبح في مسالخ أميركا يبلغ ثلاثمئة ذبيحة في الساعة ستزيد في المستقبل القريب إلى حدود الخمسمئة. ونظراً لهذه السرعة التي تقتضيها المنافسة التجارية فإن آلافاً من هذه الذبائح تعلّق بالكلاّب الآلي وتسلخ وتبقر أحشاؤها قبل أن تفقد وعيها تماماً، حتى إن منها من يحدث أصواتاً أو يلتفت يميناً أو شمالاً أثناء السلخ.

(٥) نشر جابوتنسكي هذا المانيفستو أولاً بالروسية في ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٣. وهذه ترجمة لأبرز ما في النسخة الإنكليزية المنشورة في *Save Israel, Articles and Thoughts on the Jewish States.* http:// www.saveisrael.com/ jabo/ jabowall.htm:

«ليس هناك أي أمل في مصالحة طوعية بيننا وبين العرب، لا الآن، ولا في المستقبل المنظور. إن كل العقلاء، باستثناء الذين ولدوا عمياناً، أدركوا منذ زمن بعيد الاستحالة الكاملة للتوصل إلى اتفاقية رضائية طوعية مع عرب فلسطين تسمح بتحويل فلسطين من بلد عربي إلى بلد ذي غالبية يهودية. إن لدى كل منكم حظاً من المعرفة في تاريخ الاستعمار. فحاولوا أن تجدوا مثلاً واحداً استُعمرت فيه بلاد برضاء أهلها. إن مثل هذا لم يحدث أبداً.

وسواء أكان أهل البلاد مثقفين أو غير مثقفين فإنهم أبداً سيقاومون مستعمريهم بعناد. لقد تصرف جنود [القائدين الفاتحَيْن] كورتز Hernan Cortez أو بيزارو Francisco Pizarro كما قطاع الطرق. لكن [الهنود] ذوي البشرة الحمراء حاربوا الغزاة، الأشرار منهم والأخيار، بحماسة لا هوادة فيها. ولقد ناضلوا لأنهم ككل سكان وطنيين يرفضون الاستعمار مهما كان شكله.

كل سكان وطنيين يعتبرون بلادهم أوطاناً لهم، لهم فيها السيادة التامة. ولن يتنازلوا عن ذلك طوعاً لمن يريد أن ينازعهم هذه السيادة. وكذلك هي حال العرب. إن بعض المساومين منا يحاولون أن يقنعونا بأن العرب كائنات مغفلة يمكن خداعهم بصيغ لا تكشف عن أهدافنا الأساسية. وإنني أرفض هذه النظرة إلى العرب الفلسطينيين رفضاً قاطعاً.

إن قواهم النفسية لا تختلف عن قوانا. وإنهم ينظرون إلى فلسطين بنفس الحب الغريزي والحماسة الصادقة التي كان ينظر بها شعب الأزتك إلى مكسيكو أو شعب سو Sioux إلى براريه. وإن كل شعب سيناضل المستعمرين حتى يخبو آخر بصيص من الأمل في مجابهة الفتح أو الاستعمار...

كل استعمار، بما فيه الاستعمار المقيَّد بأقسى أنواع القيود والشروط، هو تحدٍّ لإرادة أهل البلاد، لا شك في ذلك. ولهذا فإنه لا يستطيع أن يستمر وينمو إلا بدرع القوة الذي يتضمن جداراً حديداً لا يستطيع أهل البلاد اختراقه. هذه هي سياستنا تجاه العرب. وكل صياغة مغايرة لهذه السياسة هو نوع من الدجل.
وسواء عبْر وعد بلفور أو عبر الانتداب فإن القوة الخارجية ضرورية لإنشاء شروط حكم ودفاع يجرد فيها أهل البلاد ـــ رغماً عنهم ـــ من كل إمكانية لمقاومة استعمارنا، إدارياً أو جسدياً. إن على القوة أن تؤدي دورها بحزم وبدون تساهل.

وجواباً على القول المبتذل بأن هذا عمل غير أخلاقي فإنني أقول: هذا غير صحيح على الإطلاق فهذه أخلاقنا. وليس هناك أخلاق غير هذه الأخلاق. فما دام هناك أمام العرب بصيص من أمل في أن يقفوا في وجهنا فإنهم لن يبيعوا هذه الآمال بأي كلام معسول ولا بأي فتات ذكي الطعم، لأنهم ليسوا غوغاء بل شعب؛ شعب حي.

وليس هناك شعب يقدم على تنازل هائل في مثل هذه القضية المصيرية إلا حين تغلق في وجهه كل منافذ الأمل، وإلا حين لا ندع أمام عينيه ثغرة يستطيع أن يخترق بها جدارنا الحديدي».

(٦) **هآرتز** (النسخة الإنكليزية) ٢٦ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

(٧) .. ولن يزول حتى بزوال دولة إسرائيل نفسها، أو ــ لا سمح الله ــ حتى باختفاء يهود اللحم والدم من الأرض، لمن ما زال يتوهم أن احتلال فلسطين كان ممكناً لولا أن يهود الروح في بريطانيا والولايات المتحدة (وأكثرهم من أعداء السامية) كانوا أشد منهم تصميماً على هذا الاحتلال وأكثر سعياً. (وقد بينت شيئاً من هذه المفارقة في سابقاً). وربما سيكشف التاريخ أن الإسرائيليين كانوا ضحايا قصر نظرهم وضحايا أوهام انتصارات ظنوا أنها انتصاراتهم. ومن يدري، فلعل هذه الموجة الأنكلوسكسونية التي يركبونها ستنتهي بهم وبنا إلى مصير واحد. وسوف نرى.

(٨) أنظر مثلاً: **الملوك الثاني**، ١٧:١٨ ــ ٢١.

(٩) Patricia Crone, Michael Cook, *Hagarism: The Making of the Islamic World.* (Cambridge ; New York : Cambridge University Press, 1977).

(١٠) أشرت إلى هذه النزعة التزويرية وإلى انطلائها على بعض المغفلين المسلمين في «عبادة إسرائيل» (التراث والهيمنة، جسور٥/٦، الصفحات ٢٧ ــ ٥٧. ويمكن مراجعة المصدر السابق، ص ٤، لبعض الشواهد الأخرى.

(١١) Colin Thubron, *Jerusalem* (Little Brown and Company, Boston 1969), p.189.

(١٢) Teddy Kollek & Moshe Pearlman, *Jerusalem, Sacred City of Mankinde* (Steimatzky's Agency Ltd. Jerusalem / Tel Aviv, 1979), p. 152.

(١٣) *The Seventh Century in the West-Syrian Chronicles*, Translated by Andrew Palmer (Liverpool University Press, Liverpool 1993), p. 128.

(١٤) Karen Armstrong, *Jerusalem, One City, Three Faiths* (Alfred A. Knopf, New York) p.215.



الملاحق



ملحق رقم ١

الجَلادُ المُقَدّس

إن أميركا لم تتخلّ عن توراتها الاستعمارية لحظة واحدة، فبرغم الهزيمة السياسية التي لحقت بالپيوريتانز في أول القرن التاسع عشر ما تزال أيديولوجيتهم تنسج روح الأخلاق الأميركية التي شقت طريقها إلى المؤسسة السياسية فأوجدت ثوابتها. وأول هذه الثوابت القناعة العميقة بحتمية تجميع يهود العالم في فلسطين استعداداً لنهاية التاريخ، وبأن سيطرة الشعب [الأميركي] المختار على العالم هي إرادة الله.

مونيكا سجو وبربارة مر،

The Great Cosmic Mother

الجلاد المقدس

في ربيع ١٩٩٢ أعلنت «النيويورك تايمز» عن اكتشاف ثقافي غني بالدلالات والعبر الإنسانية، وهو أن «خطبة» الزعيم الهندي الأحمر سياتل Seattle التي ألهبت مخيلة الأميركيين وكانت إنجيلاً لحركات البيئة ومحبي الطبيعة وأصدقاء الأرض ومناضلي الحقوق المدنية وأنصار حوار الحضارات، وكانت نصاً شعرياً صوفياً إنسانياً

محبباً تراه في الكتب المدرسية ورسائل التبرعات للجمعيات الخيرية، هي خطبة مزورة منحولة لفقها أستاذ أدب في تكساس على منوال الروح الهندية التي أثبتت دائماً تفوقها الأخلاقي وسموها الإنساني على جلادها الأوروبي.

خيبة إضافية، وضاعت في الزحام. لكنها كانت مُرة وموجعة، لا لأنني رأيت في «خطبة الزعيم سياتل» وجهاً عربياً عليلاً فترجمتُها وقدمت بها لعدد «جسور» الذي ضم «خطبة الهندي الأحمر» لمحمود درويش أيضاً، وإنما لأن هذ التزوير فضح أمام عيني قسوة العبث التي يتسلى فيها الجلاد بلسان ضحيته.

لم أعلم بقصة التزوير إلى أن كتب إلي صديق هندي من شعب سو Sioux يخبرني به متألماً ثم يقول:

> «... وإذن خُدعتَ (...) كما خدع شاعري المفضل محمود درويش. لقد مُحيت رواية الهنود لتاريخهم. تاريخنا مكتوب بالحبر الأبيض. إن أول ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزوم. ويا الله ما أغزر دموعهم فوق دماء ضحاياهم. وما أسهل أن يسرقوا وجودهم من ضمير الأرض. هذه واحدة من الإبادات الكثيرة التي واجهناها وسيواجهها الفلسطينيون. قل لدرويش: إن جلادنا المقدس واحد وأنه يواصل حرب الإبادة من قبره، للنهاية. لهذا وجدت نفسي في قصيدته أكثر مما وجدتها في خطبة الزعيم سياتل. ترجم ما استطعت من شعر درويش إلى الإنكليزية وانظر كيف سيصبح واحداً من أعظم زعمائنا الهنود».

كانت عبارة «جلادنا المقدس واحد» في رسالة الصديق الهندي هي الريح التي جرت بسفينة هذا البحث. ولا بد من الاعتراف بأنه هو الذي دلني على كثير من المراجع المفيدة ونبهني إلى أن أساطير «الشعب المختار» و«فكرة إسرائيل» كما ترويها الكلاسيكيات العبرانية هي التي منحت المستعمرين الإنكليز راحة النفس وقرارة العين عند التضحية «المقدسة». بحياة الهندي الأحمر، وهي التي طبَعَتهم بأخلاق «الجلاد المقدس». إنني لا أشك في أن عبارة «الجلاد المقدس» إحالة مقصودة إلى العقيدة التي وضعت المبررات الأخلاقية اللازمة لأكبر حرب إبادة واستعباد في تاريخنا الإنساني المعروف، ونسجت طقوس «التضحية المقدسة» بالشعوب والأمم، وأرست أيديولوجيا الاستيطان والتوسع في العالم الجديد والقديم.

هذا «الجلاد المقدس»، في الأصل النظري، شخصية أسطورية تسكن طقس التضحية البشرية وطقس «الجريمة المقدسة» في كثير من أساطيرنا الإنسانية. إنه الكائن أو الشعب أو العرق الذي يعتقد بأن آلهته، أو أية قوة غيبية خارقة، ميزته عن بقية الكائنات وفضلته عليها، وأنها بذلك وهبته حياتها وأقطعته بلادها وأورثته مملكة سعادتها. لقد وقَع المستعمر الإنكليزي في أساطير «فكرة إسرائيل» على مرسوم تعيينه «جلاداً مقدساً» للشعوب والأمم، وعثر فيها على خطة كاملة لإبادة سكان أميركا. إن المستعمرين الأنغلوسكسون كما تقول عالمتا الأديان مونيكا سجو Monica Sjöö وبربارة مر Barbara Mor في كتابهما الشاعري «الأم الكونية العظمى» *The Great Cosmic Mother* صاغوا من أساطير إسرائيل التاريخية فلسفة الأخلاق اللازمة للاستعمار والقتل والنهب والاستعباد.

على المستوى الأخلاقي لم يستسهل هؤلاء المستعمرون الإنكليز

قتل الهندي الأحمر إلا لأنهم كانوا يعتقدون بأنهم عبرانيون وأنهم كانوا يقتلون كنعانياً فلسطينياً. كانت صورتهم عن «الهندي الملعون» تزويراً حقيقياً لصورة «الكنعاني الملعون». وكان هؤلاء الإنكليز البيوريتانز Puritans (المتطهرون) يفكرون في عالم بدون هنود مثلما كان الغزاة الإسرائيليون القدامى يفكرون بعالم بدون كنعانيين. وعندما كان الهنود الأبرياء ضحايا مسالمين وضعفاء مقهورين مسلوبين منهوبين مهانين تقتات كلاب المستعمرين من لحم أطفالهم كان الأدب الاستعماري يصورهم وحوشاً يهددون حضارة العالم وكائنات على شكل السعالي والغيلان الشيطانية تفترس الأطفال وتغتصب الأبكار وتسمم حياة المستعمرين الأبرياء!

كل تصورات الإسرائيليين القدامى ومفاهيمهم عن الحياة والتاريخ والمقدس زرعها المستعمرون الإنكليز في أميركا التي أطلقوا عليها اسم «أرض الميعاد» و«صهيون» و«إسرائيل الجديدة» و«أرض كنعان» وغير ذلك من التسميات التي أطلقت على فلسطين في الكلاسيكيات العبرانية. ولقد عبر جون كوتون John Cotton وهو من الآباء الروحيين للبيوريتانية الأميركية عن هذه الحتمية القدرية في موعظة له قال فيها قبل أن يتوجه إلى العالم الجديد لتأسيس مستعمرة «خليج ماسّاشوستس» Massachusetts Bay:

> «إن الله حين خلقنا ونفخ فينا روح الحياة أعطانا أرض الميعاد (أميركا). وما دمنا الآن في أرض جديدة فلا بد من بداية جديدة للحياة نعمل فيها من أجل مجد [بني] إسرائيل، هذا الشعب المختار المتميز».

وكان جون كوتون، بهذا الخطاب، قد وضع اللبنات الرسالية

لاستعمار «المجاهل» Errand into the Wilderness وإبادة من فيها من بشر. إن أيديولوجيته كما يقول شارلز سانفورد Charles L. Sanford في كتابه الوثائقي عن عقيدة «القدر المتجلي والمسألة الإمبريالية» *Manifest Destiny and the Imperialism Question* كانت تستند إلى نصوص توراتية توحي لأتباعه بأنهم هم أيضاً بنو إسرائيل الذين أراد الله أن يستبدل بهم الهنود ويغرسهم مكانهم ويسكنهم في مساكنهم، منها نص من صاموئيل الثاني يقول: «واستبدلت بهم شعبي إسرائيل وغرستهم مكانهم فسكنوا في مساكنهم، وذلك حتى لا يخافوا بعد ذلك ولا يفزعوا كما كانوا من قبل»، ونص آخر من المزامير: «أنت بيدك استأصلت الأمم وغرستهم. حطمت شعوباً ومددتهم»... إلخ.

وجد المستوطنون الإنكليز في حكايات «سفر الخروج» نبعاً من العبر والإيحاءات التي فسرت لهم كل قصة تأسيس أميركا. فحكاية العبودية في مصر، والنجاة في البحر الأحمر، والتيه في سيناء، ودخول «أرض الميعاد»، وإبادة أهلها صارت خريطة سياسية للمجتمع الأميركي الجديد. وقد صاغ جون وينثروب John Winthrop الحاكم الأول لمستعمرة ماساشوستس كل هذه الآيات الإلهية في موعظته التي ألقاها في سفينة الهجرة عام ١٦٣٠ فشرح لمن فيها قصة «العهد» بين «إسرائيل» و«يهوه» في سيناء، وألهب حماستهم حين جدد هذا العهد معهم واختتم موعظته بما قاله موسى للإسرائيليين: «إنكم أنتم أيضاً مقبلون على الأرض التي حلف الرب لآبائهم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيهم إياها». ثم أخبرهم بأن كل مصير أميركا ومن فيها مكتوب في هذا «العهد» الذي أعطاهم فيه ربهم «الأرض التي حلف أن يعطيها آبائهم إبراهيم وإسحق ويعقوب».

وقد كان لهذا العهد فعل السحر في الحياة الأميركية، بل كان لأكثر من قرنين جوهر الخطب السياسية والمواعظ الدينية ووقود الروح التوسعية في كل مستعمرات «الدم الأزرق» يتردد في الشدة والرخاء والولادة والمرض والموت والزواج، وتُستجلى عبره وآياته مع كل مذبحة جديدة للهنود أو سفينة جديدة للعبيد. وهذا ما نسمع صداه قوياً بعد انتصار الثورة الأميركية في خطبة الحاكم جوناتان ترمبل Jonathan Trumble إلى الشعب الأميركي والتي استهلها بتلك الكلمات المتواضعة التي قالها يهوه لإسرائيل في سفر التثنية: «أنت مقدس عند الله. لقد اختارك الله لتكون شعباً فوق كل الشعوب». كان هذا الاستهلال ضرورياً ــ كما يقول ترمبل ــ لتمجيد الانتصارات السياسية التي حققتها «إسرائيل الله الجديدة God's new Israel» وإشارة نبوية إلى المستقبل الرغيد للولايات المتحدة التي ستكون «الأمة المخلّصة» للعالم، وستسود على كل جمهوريات وممالك الأرض.

كان تحويل العالم الجديد إلى «إسرائيل مقدسة» من أعز أحلام المستعمرين الأنغلوسكسون وطوباوياتهم الكثيرة. وكانت مخيلة «مسخ الكائنات» لا تشبع من الحنين. كانوا يعتقدون بأن الإنكليز أيضاً شعب مختار وأن هناك تطابقاً بين قصة خروج العبرانيين من مصر لاستعمار فلسطين وقصة خروج البيوريتانز من بريطانيا لاستعمار أميركا، حتى أن المؤرخ جون فيسك John Fiske يرى أن «كومنولث المستعمرات البيوريتانية» و«فيدرالية التوراة» تأسسا على الموجة الأخلاقية اليهودية، وأنك «حيث ترى تاريخاً يصنع في أميركا تجد تاريخاً أميركياً يهودياً».

لطالما اعتقد المستعمرون الإنكليز بأنهم ما جاءوا إلى «أرض الميعاد

الأميركية» إلا لتأسيس دولة «عبرية Hebraic» تحكمها شريعة موسى. أما أولئك «المتوحشون» الذين يعارضون «دولة إرادة الله» وما أصبح يعرف لاحقاً بالقدر المتجلي Manifest Destiny فإنهم ليسوا إلا مخلوقات الشيطان التي أحل الله لشعبه المختار أن يبيدها. ومعروف أن كتاب Hatania الديني يؤكد الاعتقاد التاريخي بأن كل إنسان خارج فردوس «الشعب المختار» هو مخلوق شيطاني، وأن كل ما هو مخلوق في هذا العالم مسخر بالطبيعة لهذا الشعب.

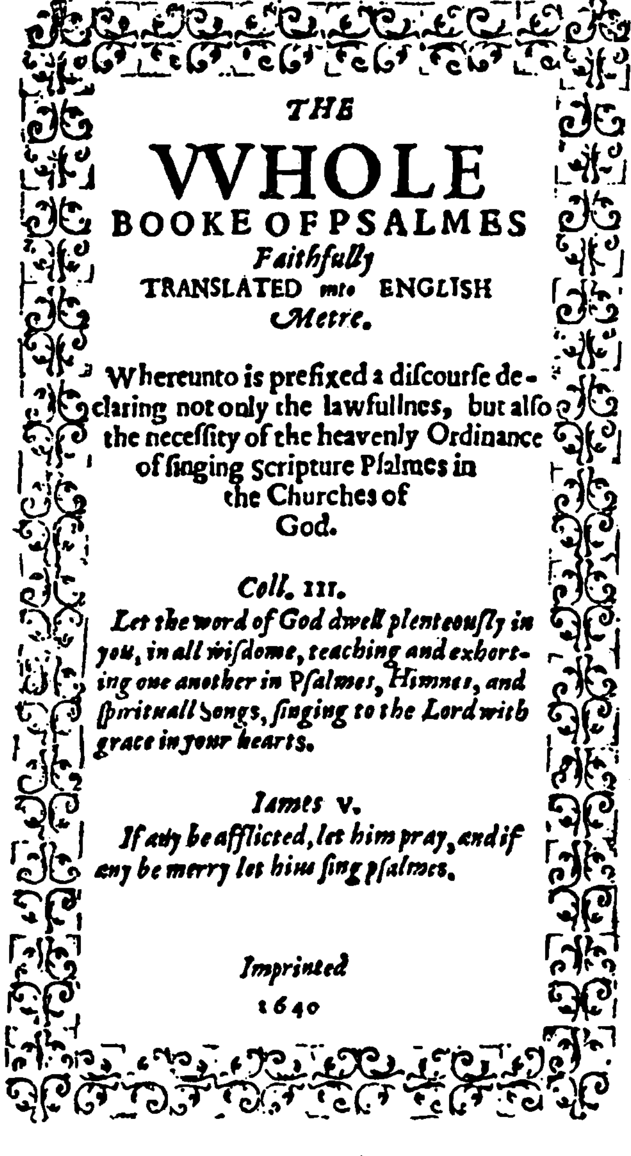
هذه الرسالة المقدسة لاستعمار أميركا وفلسطين تجلت أول ما تجلت في تاريخ الإصلاح البروتستانتي الذي أدخل أساطير «الشعب المختار» و«أرض الميعاد» ولاهوت إسرائيل السياسي إلى صلب العقيدة البروتستانتية والوعي الأنغلوسكسوني، ثم تجسدت منذ ١٦٢١ في دعوة بلاط جيمس الأول (أعقل الأغبياء في العالم المسيحي كما يقول عنه الفرنسيون) إلى «عودة بني إسرائيل إلى أرض أجدادهم وتأسيس أمبراطوريتهم الموعودة!»، كما تحققت تاريخياً في اكتشاف أميركا الذي تبين لهم أنه يتطابق مع حركة الشمس (من الشرق إلى الغرب) ويؤكد على المعاني المقدسة لاستعمار أميركا وإبادة أهلها انطلاقاً من أسطورة «الشعب المختار» و«أرض الميعاد» والمعنى الإسرائيلي لأميركا. لهذا كانت أساطير إسرائيل التاريخية خير جليس ورفيق ومرشد ونبراس للمستعمرين الإنكليز؛ يعرفونها ويحلمون باستعادتها أكثر من أي يهودي معاصر لهم، وكانت قوانين مستعمرة بليموث (١٦٣٦) وماساشوستس (١٦٤٧) وكونكتكت (١٦٥٠) كلها مستمدة من شريعة موسى بينما كانت نصف مواد قانون نيوهافن مقتبسة حرفياً من أسفار التوراة. إن «عبادة إسرائيل» هي روح رسالة جون كوتون ووليم

بوكس William Box وجون وينثروب وغيرهم من أنبياء الاستعمار الإنكليزي للعالم الجديد.

في كتابه المثير «اليهود الذين أعجزوا الموت *The Indestructible Jews*» يعتقد ماكس ديمونت Max I. Demont أن «المستعمرين البيوريتانز أرادوا أن يصنعوا تاريخاً جديداً للعالم يعكس إرادة إله العبرانيين كما عبر عنها العهد القديم. لقد تلبسوا بتصوراته عن الشعب المختار، وأرادوا تنفيذ وصيته بإبادة الأمميين Gentiles (كل من ليس يهودياً) والسيطرة على العالم». أما تعلم اللغة العبرية فلم يكن بطراً أو زخرفاً أو ترفاً للواعظ والكاهن والسياسي في المستعمرات الجديدة بل كان أساس العمارة الثقافية لكل متعلم متنور. لهذا لم يكن الكتاب الأول الذي طبع في أميركا كتاباً في أدب الإنكليز أو نحوهم أو إنجيلهم بل كان كتاب «مزامير داود»، وكان كتاب «النحو العبري» قد طبع في هارڤرد منذ ١٧٣٥ واستوردت له أحرف عبرية خاصة.

كانت العبرية تدرس مع بداية التعليم العالي في كل مستعمرات الإنكليز الأميركية حتى صارت رائجة بينهم أكثر من رواجها بين معاصريهم من يهود أوروبا. وعندما تأسست جامعة هارڤرد في ١٦٣٦ كانت العبرية لغة رسمية بل كان جون كوتون في خليج ماساشوستش يريدها لغة رسمية لكل مستعمرات «الدم الأزرق» الثلاث عشرة على ساحل الأطلسي لتصبح بعد ذلك لغة العالم المقدسة.

وفي شهادة نادرة عن تلك الفترة كتبها الحاخام لي ليڤنجر Lee Levinger في كتابه «*A History of the Jews in the United*


THE

VVHOLE

BOOKE OF PSALMES

Faithfully

TRANSLATED *into* ENGLISH

Metre.

Whereunto is prefixed a diſcourſe declaring not only the lawfullnes, but alſo the neceſſity of the heavenly Ordinance of ſinging Scripture Pſalmes in the Churches of God.

Coll. III.

Let the word of God dwell plenteouſly in you, in all wiſdome, teaching and exhorting one another in Pſalmes, Himnes, and ſpirituall Songs, ſinging to the Lord with grace in your hearts.

Iames V.

If any be afflicted, let him pray, and if any be merry let him ſing pſalmes.

Imprinted

1640

غلاف مزامير داود،
أول كتاب طبع في شمال أميركا، عام ١٦٤٠

States» أشار فيها إلى أن البيوريتانز الإنكليز كانوا أكثر تعصباً لليهودية من اليهود وأن غلبة عددهم وقوة نفوذهم في المستعمرات الأولى مكنتهم من رسم الملامح الأساسية لأميركا بريشة توراتية. وفعلاً فقبل وصولهم إلى أميركا كانوا في إنكلترا يعتبرون أنفسهم عبريين Hebraists، يصلّون بالعبرية، ويحبون أن يسموا أنفسهم بالعبريين. و«باستثناء عبادتهم للمسيح فإنهم ــ كما يرى ديمونت في اليهود الذين أعجزوا الموت ـ «أكثر يهودية من أيوب». صحيح أنهم لم يكونوا يعرفون اليهود شخصياً لكنهم، كما تقول مونيكا سجو وبربارة مر في «الأم الكونية المقدسة»: كانوا مولعين باليهودية ماضياً وحاضراً، ومفتونين باللغة العبرية وشريعة موسى. وكأنهم كانوا يؤمنون بأن نهاية العالم قريبة فإنهم [قالوا بأنه] لا بد من جمع شتات اليهود (في فلسطين) من أربعة أركان الأرض، فتلك هي إرادة الله والقدر المتجلي وحتمية نهاية التاريخ».

أما قصة اليهودي المظلوم في أميركا، وحكاية تلك الأماكن العامة التي تمنع دخول «اليهود والكلاب» وغير ذلك من الأضاليل المتداولة في أدبيات تفسير قيام اليهود في أميركا من الرماد وخروج ماردهم من القمقم فلا تقدم تفسيراً حقيقياً لا لقوة اليهود ونفوذهم ولا لمرض الاستذئاب lycanthropy الأميركي الرسمي على الفلسطينيين والعرب. إن هجرة اليهود إلى أميركا الشمالية بدأت مع حركة الاستعمار الأولى. وهناك أكثر من سجل لهجرتهم عام ١٦٥٤ إلى نيو أمستردام المعروفة اليوم بنيويورك، وإلى رود آيلاند في ١٦٥٨، كما أن هناك تاريخاً موثقاً لأسطول تجارتهم بالعبيد (كما يعترف بذلك الحاخام ليفنجر، ص ١٠٢ ــ ١٠٣) ولمستعمراتهم التي أنشأوها من رود

آيلاند شمالاً حتى جورجيا جنوباً. ولقد كان اليهود طوال قرن الحكم البريطاني للمستعمرات يتمتعون بكامل حريتهم الدينية، فكانت لهم معابدهم ومقابرهم وتنظيماتهم ومدارسهم ومتاجرهم (المفتوحة يوم الأحد) مثلما كانت لهم أضاحيهم المقدسة من العبيد والهنود الحمر أيضاً. وفيما كان البيوريتانز الإنكليز لا يطيقون العيش قريباً من الطوائف المسيحية الأخرى كان اليهود بينهم مثل نبات الكودزو Kudzo. ومع ذلك فإن تأثير اليهود المباشر على الحياة الأميركية ـــ بشهادة الحاخام لي ليڤنجر ـــ لا يكاد يذكر، إذ لم يكن لديهم ما يعطونه للمستعمرين البيوريتانز الذين كانوا أكثر يهودية منهم.

وفي كتاب سيسيل روث Cicil Roth الوثائقي «مقالات ووجوه في التاريخ اليهودي الإنكليزي - *Essays and Portraits in Anglo Jewish History*» نجد كثيراً من المعلومات عن دخول البيوريتانز في دين اليهودية أفواجاً، مما جعلهم نواة الجماعة اليهودية في بريطانيا وأميركا. هذا يعني أن النواة الصلبة ليهود أميركا وبريطانيا كانت أنغلوسكسونية بيوريتانية وليست ساميّة يهودية أو حتى «خزَرية» كما يعتقد آرثر كوستلر Arthur Koestler، ويعني أن المفكرة الاستعمارية الجيوسياسية لليهود والأنغلوسكسون على طرفي المحيط الأطلسي (خاصة بالنسبة لاحتلال فلسطين ومن يقاوم هذا الاحتلال) هي مفكرة أيديولوجية واحدة لكل الإدارات والأحزاب في واشنطن ولندن. إنها قد تتخذ أسماء مختلفة مثل «القيم المشتركة» و«الحلف الاستراتيجي» و«الالتزام الأخلاقي» وغير ذلك من التعميات لكنها تستمد أخلاقها من نسغ مشترك: «إسرائيل هي إرادة الله المطلقة المقدسة فوق كل الشعوب».

דקדוק
לשון עברית

DICKDOOK LESHON GNEBREET.

A
GRAMMAR
OF THE
Hebrew Tongue,
BEING
An ESSAY
To bring the Hebrew Grammar into English,
to Facilitate the
INSTRUCTION
Of all those who are desirous of acquiring a clear Idea of this
Primitive Tongue
by their own Studies;
In order to their more distinct Acquaintance with the SACRED ORACLES of the Old Testament, according to the Original. And
Published more especially for the Use of the STUDENTS of *HARVARD-COLLEGE* at *Cambridge*, in NEW-ENGLAND.

נחבר והוגה בעיון נמרץ י"ל ידי
יהודה מוניש

Composed and accurately Corrected,
By JUDAH MONIS, *M. A.*

BOSTON, N. *England*
Printed by JONAS GREEN, and are to be Sold by the AUTHOR at his House in *Cambridge*. MDCCXXXV.

TITLE PAGE OF JUDAH MONIS' GRAMMAR

غلاف كتاب «النحو العبري». طبع في كامبردج عام ١٧٣٥
بعد مضي قرن على اعتبار العبرية لغة رسمية في هارفرد

أميركا والقدر المتجلي

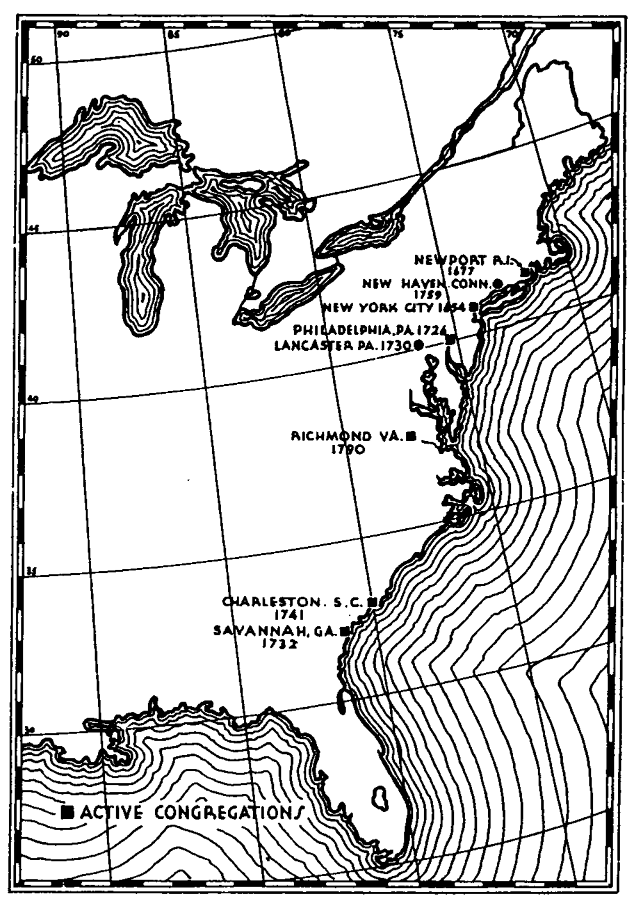
في أربعينيات القرن التاسع عشر، عندما بلغت روح التوسع ذروة حماستها في أميركا عند الأنغلوسكسون المسكونين بهاجس قيامة العالم، أطلق جون أوسوليڤان John O'Sullivan عبارته الأسطورية «القدر المتجلي» Manifest Destiny التي أسست للأميركيين ديناً استعمارياً جديداً ذا قشرة علمانية حشدت تحت لوائه كل من ليس أسود أو ملوناً في شمال أميركا. إن العبارة مستلهمة أصلاً من اعتقاد أوسوليڤان بأن القدر قد كشف عن غطائه وأوضح عن نفسه ونواياه وخططه فأعلن أنه قد اختار «البيض ــ الأنغلو ــ سكسون ــ البروتستانت WASP» ليكونوا «شعباً فوق كل الشعوب»، وفضلهم على غيرهم من الأعراق والأمم والأديان والمعتقدات، وأوكل إليهم أمانة الهيمنة على الأراضي territories الهندية وعلى العالم. إن القدر كما رآه أوسوليڤان يرسم التاريخَ خطاً مستقيماً يتجه نحو عالم يهيمن عليه هذا الشعب المختار الجديد، وهذا ما يتطلب من أميركا أن لا تطفىء حرباً إلا بنار حرب أخرى.

أججت عبارة أوسوليڤان في الأميركيين شهوة التوسع المقدس في أراضي الهنود، واعتبرها كثير من المؤرخين أساس أيديولوجية الإمبريالية التي حملت العلم الأميركي أول ما حملته إلى جزر الفيليبين في ١٨٩٨. أما داخل القارة فكانت حرب إبادة الهنود وتهجيرهم، والحدود التي يجب أن تتسع بلا نهاية سياسة مقدسة وقدرية لدى كل القادة والأحزاب. حتى في أوج مشاعر الثورة على الإنكليز وروح التنوير كان اللاهوت يلهب حماسة الثوار بتلك النار المقدسة التي صهرت كل ملابسات الثورة وأحداثها وأبطالها في مسيرة الشعب المختار إلى أرض الميعاد: إن إسرائيل

الجديدة (أميركا) بدأت تقتلع نفسها من مصر (بريطانيا)، وما هذه الثورة إلا نصر جديد للشعب المختار وتجسيد جديد لقصة «خروج» بني إسرائيل من مصر لتأسيس مملكتهم. كان هذا التأويل لاستعمار العالم الجديد رائجاً بين معظم رجال الثورة، بمن فيهم توماس پاين Thomas Paine وجون آدامس John Adams وجورج واشنطن George Washington بينما ظل الزحف الاستعماري يستلهم هذا التأويل، وظلت لغته العلمانية تربط مسألة الحرية والرفاه بضرورة توسع شعب الله الجديد في أرض كنعان الجديدة والقضاء على أهلها المتوحشين وتأسيس دولة مقدسة صالحة تنعم بالرفاه والبحبوحة والنعيم وكل ذهب الهنود وخيرات أرضهم الطيبة، تماماً كما أراد الإسرائيليون القدامى غزو أرض كنعان القديمة والقضاء على أهلها وتأسيس مملكة مقدسة تنعم بالرفاه والبحبوحة والنعيم وكل ذهب الكنعانيين وخيرات أرضهم الطيبة.

ومن قبل أن يبدأ فردريك تيرنر Frederick Jackson Turner فيلسوف الثُغور الحربية بتسمية هذه البربرية المكابية «تمديناً للمجاهل المتوحشة» كانت كل عمليات التوسع والإبادة تستلهم معناها المقدس من مسيرة موسى إلى أرض الميعاد ومن الدور العنصري الخلاصي الذي نسبه الإسرائيليون لأنفسهم. فالاختيار (أو التفوق) باعتباره آية من آيات القدر، والتاريخ باعتبارة استجابة ومرآة لحتمية هذا الاختيار؛ كلاهما كان للمستعمرين الإنكليز من أهم العقائد التي تجلى من خلالها قدر أميركا ومصير أهلها ثم صارت هذه العقائد أساساً من أسس الأيديولوجية الجمهورية بعد الثورة.

إن أميركا «أرض الميعاد» و«البلاد المقدسة» و«صهيون» و«أرض



First Jewish Settlements in The United States

المستعمرات اليهودية الأولى في الولايات المتحدة، وأولها أقيمت فيما يعرف اليوم بنيويورك (نيو امستردام سابقاً) عام ١٦٥٤ مع بداية الاستعمار الأنكلوسكسوني للشمال الأميركي، (عن كتاب ليڤنجر المذكور)

كنعان» التي اختارتها العناية الإلهية لغاية سامية مقدسة وجدت هنا مقابلها «العلمي» في اصطلاح «التفوق العرقي» ومقابلها الثوري السياسي في اصطلاح «أمة الحرية» التي ستنهض بصرح «الحرية» في العالم لخير الإنسانية كلها. أما على المستوى الأيديولوجي فقد ظلت عقيدة «شعب مختار في مواجهة كنعانيين» تشكل المعنى المقدس لمختلف الألفاظ العلمانية التي اتخذتها على مر العصور. كانت هذه العقيدة تسلخ جلدها من عصر إلى عصر، لكنها أبداً لم تغير طبيعة سمومها المقدسة، لا حين صارت «حضارة في مواجهة وحشية» ولا حين صارت «عرقاً أبيض في مواجهة عرق أسود أو عرق ملون» كما يرى شارلز سانفورد في كتابه «القدر المتجلي والمسألة الإمبريالية» *Manifest Destiny and the Imperialism Question*. أما مر وسجو فتقولان في «الأم الكونية العظمى» *The Great Cosmic Mother* إن أميركا لم تتخلّ عن توراتها الاستعمارية لحظة واحدة، فبرغم الهزيمة السياسية التي لحقت بالبيوريتانز في أول القرن التاسع عشر ما تزال أيديولوجيتهم تنسج روح الأخلاق الأميركية التي شقت طريقها إلى المؤسسة السياسية فأوجدت ثوابتها. وأول هذه الثوابت القناعة العميقة بحتمية تجميع يهود العالم في فلسطين استعداداً لنهاية التاريخ، وبأن سيطرة «الشعب [الأميركي] المختار» على العالم هي «إرادة الله».

إن كثيراً من المؤرخين وعلماء الاجتماع يعتقدون بأن أميركا اليوم (في تقرير نشرته «الواشنطن بوست» ــ ٢٦ نوفمبر ١٩٩٥) أكثر أصولية وتزمتاً مما كانت عليه أيام المستوطنات الأولى وأنها البلد الأكثر تطرفاً دينياً بين كل بلدان العالم الغربي كما يقول رودني ستارك Rodny Stark أستاذ علم الاجتماع والأديان المقارنة في جامعة واشنطن. ويقول ستارك وزميله روجر فينك Roger Fink

في كتابهما الوثائقي «كيف صارت أميركا كنسية» *The Churching of America 1776 - 1990, Winners and Losers in Our Religious Economy* أيضا:

إن نسبة الملتزمين بالكنيسة ارتفعت من ١٧ بالمئة في عام ١٧٧٦ إلى ٦٥ بالمئة في عام ١٩٩٠، وأن هذه النسبة ما تزال في ارتفاع سينتهي بأميركا حتماً إلى أن تصبح دولة أكثر التزاما بالدين من المستعمرات الأميركية الأولى!

هناك من اتهم عقيدة «القدر المتجلي» بأنها ضلال وهرطقة. وهناك من رأى فيها التعبير المناسب عن روح التوسع التي غيرت وجه أميركا من مفازات وقفار وحشية خاوية من البشر إلى جنات وأنهار وعالم متحضر، وانتقلت بها من مستعمرات مشتتة إلى قوة تحكم العالم. في هذا القدر المتجلي نكتشف صوراً من السوقية الأميركية التي تستظل دائماً بالادعاءات الرسالية. إن هذا الاستعمار المكابي Maccabi ما يزال مولد السياسة الأنغلوسكسونية وما يزال أهم أوراق لعبتها الرأسمالية. فحين تنجح أي قوة انتهازية في جعل مصلحةِ «تكساكو» أو «جنرال موتورز» أو «AT&T» مثلاً مصلحةَ أميركا؛ سرعان ما تبدأ عملية الإقناع على المستوى الشعبي بوضع ملابسات الأحداث في إطار النبوات وطلاسم «الرؤيا»، وسرعان ما تستظل تلك المصلحة النفعية بجملة توراتية أو واقعة من وقائع التاريخ العبراني. تلك العصا السحرية لآدم سميث تعمل دائماً على تحويل النفعية الخاصة إلى خير عام مقدس يستأهل حرباً نفعية مقدسة لإبادة مخلوقات الشيطان أعداء شعب الله الذين هددوا مصلحة «تكساكو» أو «جنرال موتورز» أو «AT&T». بهذا المنطق تربعت إسرائيل على عرش النفعية المقدسة في مركز التجارة العالمية

وصارت من أنجح استثمارات السماء. إنها «إرادة الله» التي ترسل الرياح مدراراً على طرفي المحيط الأطلسي لتمطر على الأنغلوسكسون بذهب الأباشي العرب.

لقد شُحنت عقيدة «القدر المتجلي» بكل مشاعر المستعمرين الأوائل ونبضهم المسيائي. إن دوران الشمس مع حركة التوسع الإنكليزي من الشرق إلى الغرب في اعتقاد ناتنيِل إيمس Nathaniel Ames أحد أنبياء الاستعمار الأنغلوسكسوني للعالم الجديد ليس مصادفة بل كان تعبيراً عن «إرادة الله» وقدره، وحقيقة ثابتة من حقائق مملكة الطبيعة وحركة التاريخ والسعادة والرفاه الإنساني؛ حقيقة رسمت منذ الأزل صورة المستقبل للشعب الأنغلوسكسوني المختار ذي البشرة البيضاء والعيون السماوية ثم تجاوزت هذه الحدود لتمنح بركة الاختيار الإلهي لكل الأميركيين المتحدرين من أصل أوروبي. من هذه الحقيقة الخالدة لاقتران دوران الشمس بزحف الأنغلوسكسون غرباً (عبر الأطلسي إلى المستعمرات الأولى، ومنها إلى شاطىء المحيط الهادي) استمدت جملة الفيلسوف جورج بيركلي George Berkeley «مسيرة الأمبراطورية ماضية غرباً» Westward the course of empire takes its place معناها وظلالها النفعية المقدسة، ومن هذه الحقيقة أيضاً تحس بهذا النبض المقدس للفترة الاستعمارية الأولى يخفق في قلب ما يسمى اليوم في الولايات المتحدة بالدين المدني. صحيح أن الموجة المقدسة كانت عارمة في الاستعمار الاسباني والبرتغالي لأميركا، لكن الأنغلوسكسون البيوريتانز تفردوا بعقيدة «الاختيار» و«الهمّ الإسرائيلي» و«المطابقة مع تاريخ العبرانيين» و«إضفاء صفة القداسة على الأرض الأميركية» التي جعلوها (بعد أن ارتدت الحملات الصليبية على أعقابها من الأراضي المقدسة) أرضاً مقدسة بديلة

يتجمع فيها «شعب الله» ليعيد صياغة العالم استعداداً لنهاية التاريخ أو القيامة كما هندستها الكلاسيكيات العبرانية.

القيامة ونهاية التاريخ

هذا الطموح الدائم إلى إعادة صياغة العالم ما يزال إلى الآن جوهر مشاريع «النظام العالمي الجديد» منذ أن عبر عنها شعار «الختم الأميركي»: ليبارك الله مسعانا من أجل نظام جديد للعصور Annuit coeptis; Novus ordo seclorum إلى أن قال پات روبرتسون Pat Robertson (نوستراداموس الحزب الجمهوري، حزب الرؤساء نيكسون وفورد وريغن وبوش) مفسراً دعوة الرئيس بوش [الأب] إلى نظام عالمي جديد في كتاب له بذلك العنوان The New World Order:

«إن الكتاب المقدس هو الذي يعد بتلك الحكومة العالمية التي ستقضي على كل أعداء إسرائيل».

وهو طموح مسكون بالعداوة للعرب والمسلمين، لازم «فكرة أميركا» في مرحلتها الجنينية المنسوخة عن «فكرة إسرائيل»، ثم في مرحلة «القدر المتجلي» وبناء «الإمبراطورية الكونية». بهذه الروح بنى جون سميث أول مستعمرة إنكليزية دائمة في العالم الجديد بعد أن حارب الأتراك مع جيوش الصرب وأُسِر لديهم خمس سنوات، وبها كتب مؤسس مستعمرة كونِتيكت وأبو الديموقراطية الأميركية توماس هوكر Thomas Hooker عندما حجّ إلى ڤرجينيا عام ١٦٣١: «إن الأتراك (يقصد العرب والمسلمين) والكفرة سيجدون نار جهنم أرحم بهم من إنكلترا». وكان لقب الحجاج

pilgrims يطلق على المستعمرين الأوائل الذين أسسوا مستعمرة پليموث Plymouth في نهاية سعيدة لتلك القصة الأسطورية التي يروونها عن تيهٍ في البحر لا يختلف عن ذلك التيه العبراني في الصحراء وذلك بسبب ما تعرضت سفينتهم مايفلور Mayflower من أهوال وهي تمخر عباب المحيط إلى «إسرائيل الله الجديدة» وما عاناه الحجاج من مخاطر في سبيل عقيدتهم البيوريتانية. لقد حقنهم هذا الإسقاط بكل جنون عبادة الذات ودموية نهاية التاريخ. بذلك قالوا على لسان أوليڤر كروموميل إن «الله رجل إنكليزي» God is an Englishman ثم تحول هذا الشعار إلى عنوان رواية لدلدرفيلد R. F. Delderfield، وقالوا ــ متابعة لونثروب ــ بأن الله اختارهم لتطهير أرض «كنعان الجديدة» من أهلها وفاءً «بعهد» جديد وثواباً على «خروج» جديد إلى أرض رسمت السماء معالمها وملامحها وموقعها ومصير أهلها.

بذلك كانت مسيرة التمدين الدموية في «مجاهل كنعان الجديدة» آية من آيات القدر والعناية الإلهية، وكان انتصارهم على الكنعانيين الحمر وفاء بالعهد الجديد الذي قطعوه مع ربهم وصاروا بموجبه شعباً مختاراً يدخل الأرض المقدسة. هذه العناية الإلهية تجلت في كل حروب الإبادة والتوسع والاستعباد داخل القارة الأميركية وخارجها، ولم تفارق الشعب الأنغلوسكسوني المختار في طريقه إلى نهاية التاريخ لحظة واحدة.

كانت كل مذبحة جديدة للهنود وكل سفينة جديدة للعبيد آية إلهية على أن السماء هي التي اختارتهم واختارت «انكلترا الجديدة» لتدبير شؤون العالم وتحضيره للقيامة الموعودة. في عام ١٦٣٠ عندما أصيبت قبيلة هندية بالجدري قال جون ونثروب

حاكم مستعمرة ماساشوستس: «هذه نعمة إلهية ومعجزة صنعها الله ليعيننا على إبادة الهنود». ثم ردد الرئيس بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin مثل هذه العواطف الإنسانية النبيلة في مناسبة مماثلة فقال: «إنها تدابير معينة اتخذتها العناية الإلهية لاستئصال هؤلاء الوحوش».

ومع ما يسمى بالصحوة الكبرى Great Awakening في منتصف القرن الثامن عشر تجلت العناية الإلهية في حروب التوسع والإبادة التي صارت من علامات نهاية التاريخ وتأكيداً على أن السماء هي التي أوكلت للشعب المختار أمانة إعداد الإنسانية لقيامتها القريبة. بذلك جندت أميركا في حرب إفناء الهنود واستعباد السود كل التصورات القيامية للمستعمرين الأوائل، بينما كان جوناثان إدواردس Jonathan Edwards قديس «الصحوة الكبرى» ينادي بتنشيط الرسالة الاستعمارية وتوسيع آفاقها، ويبشر برسالة أميركية لتغيير نظام العالم وإعداده لحرب الخلاص الكبرى. كان إدواردس يبشر بعالم ستشرق عليه الشمس من الغرب (الأميركي)، ومعها ستشرق أنوار الذرية الأنغلوسكسونية المختارة التي أوسع إدواردس معناها لتضم إلى فردوسها كل العرق الأبيض في أميركا. ومع ذلك فلم يكن التوسع غاية في حد ذاته كما يقول أندرس ستيفنسون Anders Stephenson في كتابه «القدر المتجلي: التوسع الأميركي وإمبراطورية الحق» *Manifest Destiny: American Expansion and the Empire of the Right:*

> «فمن خلال تأسيس إسرائيل الجديدة (الولايات المتحدة) سيتمتع هذا الشعب المختار بحق مطلق وشامل ومقدس في هذه الأرض، وسيبدأ بإعادة صياغة العالم

> وتهيئته لحرب نهاية التاريخ. بذلك يتحقق العهد بين يهوه وشعبه [...] إن كل مصير العالم معلق على هذا العهد! وقد جاء البيوريتانز للتأكيد على هذا البعد في قضية اختيار الله لهم وعهده معهم [...] إن البيوريتانز يتحملون مسؤولية كبرى في خروجهم إلى اسرائيل الجديدة. فبهذا الخروج صارت رسالتهم على الأرض صورة حرفية لرسالة بني إسرائيل وصار العهد مع يهوه يشملهم أيضاً.

وبهذا الخروج أيضاً تحتم على الشعب المختار الجديد تهيئة العالم لنهاية تاريخه التي لا بد لها من ثلاثة ثوابت أخلاقية تشكل أساس الوعي القيامي الأميركي وروح القيم المشتركة! بين الولايات المتحدة وما يسمى اليوم بإسرائيل:

* تجميع اليهود في فلسطين من كل أرجاء الأرض استعداداً لعودة المسيح ونزول أورشليم من السماء.

* تدمير بابل «بقصفها من السماء، ومحوها من على وجه الأرض لكي لا يبقى فيها أثر لبشر، ويصعد دخان حرائقها إلى أبد الآبدين» كما تقول «الرؤيا».

* «عصر دم» أبناء المدنيات الملعونة ما بين الفرات والنيل في «معصرة غضب الرب». إن من القوانين الدينية الخاصة بالأمميين (غير اليهود) كما يروي إسرائيل شاحك قانوناً خاصاً بالكنعانيين والشعوب غير اليهودية التي عاشت في فلسطين وجوارها قبل يشوع. ويقضي هذا القانون بإبادة كل هذه الشعوب عن بكرة

أبيها، ولكن خطوة خطوة كما جاء في «الخروج»:

> «إن ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين فأبيدهم [...] لا أطردهم من أمامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية. قليلاً قليلاً أطردهم من أمامك وإلى أن تثمر وتملك الأرض وأجعل تخومك من بحر سوف إلى بحر فلسطين، من البرية إلى النهر».

هذا الوعي النوسترادامي الذي تفقد فيه أشياء العالم اتساقها وهويتها يتجسد هناك بكل اهترائه ولامعقوليته في الخطاب القيامي لپات روبرتسون (المستشار الروحي للرئيس السابق جورج بوش أيام عاصفة الصحراء والحملة الرئاسية الثانية، وأحد مرشحي الحزب الجمهوري للرئاسة في عام ١٩٨٨). إنك تعثر على هذا الخطاب القيامي فظاً، عارياً من كل ما يحجب عدميته ودمويته في كل كتب روبرتسون ومواعظه وجامعته ومحطاته التلفزيونية (إحداها في المنطقة التي كانت تحتلها إسرائيل من جنوب لبنان).

في كل أدبياته وكتبه يؤكد روبرتسون على أن عودة المسيح ومملكته في نهاية التاريخ القريبة جداً مشروطة بتلك الثوابت الثلاثة: إبادة الأمم الملعونة بين الفرات والنيل، وتجميع اليهود في فلسطين لتحقيق حلم صهيون، وأخيراً لا بد من تدمير بابل التي يصفها أكثر من مرة ــ على لسان كتابه المقدس! ــ بأنها «أم العاهرات... إلخ!!»:

The mother of harlots and abominations of the earth

ولتجنيد هذا الخطاب الطاهر في حرب «نهاية التاريخ» يؤكد روبرتسون في كتابيه *The New Millennium* و *The New World Order* أن «عاصفة الصحراء» كانت المعركة التي حسمت حرب الأربعة عشر قرناً بين الشرق والغرب، وبين الإسلام ومنافستيه المسيحية واليهودية! ثم يستشهد بما كتبته مجلة *U.S. News & World Report* في عدد ٢٧ آب/أغسطس ١٩٩٠ لكي يؤكد على أن الأوساط غير اللاهوتية لا تختلف في موقفها وتفسيرها عن موقفه وتفسيره:

> إن النزاع المخيم في الخليج الفارسي بكل بساطة ليس مجرد معركة من أجل الكويت أو لبسط السيطرة على نفط الشرق الأوسط. إنه الفصل الأخير في حرب قديمة تدور رحاها منذ أربعة عشر قرناً بين الشرق والغرب، بين الإسلام ومنافسيه التوحيديين: المسيحية واليهودية.

> ...the looming conflict in the Persian Gulf is not simply a battle for Kuwait, or even for mastery of Middle East's oil. It is the latest chapter in a 14 - century - old battle between East and West, between Islam and its monotheistic rivals, Christianity and Judaism.

وكالعادة، يرسم روبرتسون أفق هذه الحرب بأساطير إسرائيل التاريخية عن بداية العالم ونهايته، ويلونها بالأحقاد والشتائم التي ترددها هذه الأساطير عن بابل ومدنيات عالمنا العربي القديم ليجعلها أساساً إيمانياً صالحاً لرسم استراتيجية الولايات المتحدة في

«حرب نهاية العالم». كذلك يستعيد الحكاية البدوية العنصرية عن «الست ساره والجارية هاجر» ليوحي بأن استعباد العرب أو إبادة من يقاوم هذا الاستعباد من «إرادة الله» مثلما كانت حرب إبادة الهنود واستعباد السود من إرادة الله. وبعد سلسلة من المشاهد الساتركونية المستمدة من الخرافة التي أرادت تفسير تعدد لغات العالم وأممه وشعوبه بأن يهوه هو الذي بلبل الألسنة في بابل وأوقع الشقاق بين بني الإنسان، لا يُبقي روبرتسون أمام القارىء فسحة للتردد والشك في أن انبثاق النظام العالمي الجديد من «رماد بابل» هو آية من آيات نهاية التاريخ، وأن حرب الإبادة التي انبثقت من ذلك الرماد لا تختلف أخلاقاً ولاهوتاً وسياسة عن حرب إبادة الهنود واستعباد السود.

ويمضي روبرتسون في الكشف عن الدروس والعبر في «رماد بابل» الذي قام منه النظام العالمي الجديد، فيقول:

> من موقع برج بابل حيث تبلبلت الألسنة وتفرقت كل أمم الأرض ها هي [الأمم] تعود من جديد وتدخل في حلف عسكري واحد. وها هي كما تقول النبوات العبرانية تشكل نظاماً عالمياً جديداً للدفاع عن إسرائيل والانتقام من بابل بقصفها من السماء لأنها هي التي عذبت شعب الله وأغرقته بالدموع والأحزان.

و«سفر الرؤيا» طافح بمثل هذه الآيات الرحيمة التي يمثلها هذا النص القيامي:

> ورفع الملاك حجراً أعظم من حجر الطاحون ورماه في البحر قائلاً: هكذا ستقصف بابل العظيمة وستمحى

> من وجه الأرض فلن تَسمع فيها صوتاً لقيثار ولا لحناً من مزمار، ولن يبقى فيها صانع يصنع، ولا طاحون يدور ولا سراج يضيء... ها دخانها يصعد إلى أبد الآبدين.

مع هذه النصوص السادية يضيء روبرتسون الأبعاد الروحية للصهيونية ويوحي بأن أهدافها هي أهداف السماء. لهذا يمجد سموها الأخلاقي ومعناها الإنساني «لأنها كالپيوريتانية استجابت للعهد الذي أعطى فيه يهوه لبني إسرائيل الأرض المقدسة من نهر النيل جنوباً حتى أعالي الفرات». ووفاء بهذا العهد يعتبر روبرتسون اجتياح إسرائيل للقدس في عام ١٩٦٧ «أعظم حدث روحي في تاريخ الكتاب المقدس». ولهذا قضت إرادة الله أن تبقى القدس عاصمة إسرائيل إلى الأبد مهما كانت التضحيات والعواقب التي يذكر روبرتسون من بينها إفناء العالم كله بالقوة النووية الإسرائيلية والأميركية. ويروي روبرتسون أن مسؤولاً رفيع المستوى في وزارة الدفاع الأميركية أكد له أن الإسرائيليين لن ينسحبوا من القدس الشرقية قبل أن يفرغوا ترسانتهم من كل أسلحتها التقليدية والنووية. وأن على كل أمة تحاول تقسيم القدس أن تتحمل عاقبة زج العالم في مذبحة نووية، لأن أميركا أيضاً لن تتخلى عن إسرائيل ولن تسمح بتقسيم القدس إلا إذا تخلت عن إيمانها بعودة المسيح والانتصار المحتم على أعداء إسرائيل في حرب نهاية العالم.

هذا الوعي القيامي للقدس وفلسطين لا يقتصر على الحزبين الجمهوري والديموقراطي وحدهما بل إنك تعثر عليه في كثير من أعمال أدباء أميركا ورحالتها بدءاً من توماس شيپرد Thomas Shepard وروجر وليامس Roger Williams وكوتون ماذر

Cotton Mather في بداية الاستعمار الأنغلوسكسوني لأميركا، مروراً بهنري داڤيد ثرو Henry David Thoreau وهرمان مِلڤيل Herman Melville ومارك توين Mark Twain وهنري ڤان ديك Henry Van Dyke وفيليب روث Philip Roth حتى مسك الختام سول بلو Saul Bellow.

ومعروف أن لروبرتسون الذي يخيم فوق الحزب الجمهوري مثل ضباب لا نهائي من السموم والغشاوات، وصيةً مشابهة لوصية كاهن الرئيس كلينتون تؤكد على أن عبادة إسرائيل هي من الثوابت الأساسية للدولة الأميركية. وكان روبرتسون في إطار التعبئة لتدمير بابل وتحقيق النبوءات القيامية لنهاية التاريخ قد قال هذه الوصية:

> إذا تخلت أمتنا عن إسرائيل فإن غضب الله سيحل عليها: If our nation turns against Israel, it will incur the wrath of God إننا لا نستطيع إلا أن ندعم إسرائيل، ذلك لأن الأنبياء في كل العهد القديم حذروا من أن الله سيدين كل من يقف في وجه إسرائيل.

إن العقل السياسي الأميركي لا يكاد يفكر في إسرائيل حتى يعوم مثل بعوضة ميتة في بحر من الخرافة والدم. وإنك قد تجد في أميركا بعض الأنغلوسكسون الذين يكرهون اليهود ويعادون السامية لكن «إسرائيل» التي تتربع على عرش الپانثيون الأنغلوسكسوني تبقى معبودهم الذي ليس له شريك في الملك ولا ينافسه إله آخر إلا الدولار.

* * *

كانت النهاية القيامية للتاريخ موضوع جلسة خاصة للكونغرس في أول تشرين الأول/نوفمبر الماضي بعد أن التهبت حماستها بين الأميركيين مع اقتراب عام ٢٠٠٠ وتزايد عدد المؤمنين بقرب عودة المسيح وأخذت تشحن غرائزهم بنار «حرب نهاية العالم Armageddon». إنك لكي تكون پيوريتانياً تقياً ينبغي عليك التسليم بأن على حوادث العالم قبل أن تصبح تاريخا أن تستأذن إسرائيل وعليك قبل ذلك أن تؤمن بالنهاية الدموية للعالم كما رسمها ذلك النص المعروف باسم «رؤيا يوحنا البطمي».

في كتيب طريف ونادر عنوانه «القيامة Apocalypse» يشك دي. إش. لورنس D. H. Lawrence في نسبة هذه «الرؤيا» إلى يوحنا ويعتبرها نصاً انتقامياً من أعظم كتابات الكراهية في التاريخ الإنساني. بل يقول إنها نص ينقض كل تعاليم السيد المسيح وأخلاقه. هذا النص الذي يشكل أساس مواعظ الآحاد في الولايات المتحدة (وبريطانيا طبعاً) ويعتبر هاجساً يومياً لكل بروتستانتي مؤمن إنما يرسم الصورة الأميركية المرتجاة لحرب نهاية التاريخ وما بعد نهاية التاريخ في مشاهد هيتشكوكية أخاذة يخرج في أحدها من فم «الرب» سيف ماض يضرب به الأمم ويرعاهم بعصا من حديد ويدوس معصرة الإنسانية ليصنع منها خمرة غضبه وسخطه، بينما يصف مشهد سادي آخر كيف ستُعصر دماء البشر وكيف سينفر الدم من المعصرة إلى لجم الخيل مسافة ألف وستمئة غلوة. (حوالى ٢٠٠ ميل أو ٣٢٠ كلم). كل تلك السلسلة القيامية لمشاهد القتل والتعذيب والإبادات العجائبية للشعوب والأمم هي من أجل أن تنزل أورشليم من السماء فوق حطام الأرض وأهل الأرض وفيها أسباط إسرائيل . وبذلك ينسجم الكون كله مع اختيار الله لشعبه:

> «أورشليم المقدسة نازلة من السماء... ولها اثنا عشر باباً، وعلى الأبواب اثنا عشر ملاكاً، وأسماء مكتوبة هي أسماء أسباط بني إسرائيل الاثني عشر» ومع كل سبط اثنا عشر ألفاً من ذريته المباركة التي ختم الله على جباهها ليميزها ويلتقطها من بين هذه الكائنات الملعونة كما يلتقط اللؤلؤ.

إن هزيمة كل شعوب العالم في هذه الحرب التي اشتركت فيها أعظم مخيلات الكراهية والجريمة والبارانويا شحنت حركة «الإصلاح» البروتستانتية بكل الأخلاق اللازمة لكي تخوض حرب قيامة العالم Armageddon انطلاقاً من القارة الأميركية. كذلك فإنها جعلت البيوريتانز يعتقدون بأن حركتهم من علامات «نهاية الزمان» وأن الله لم يرفع لهم النقاب عن «العالم الجديد» إلا لأنهم شعبه المختار وسيفه الذي «سيضرب به الأمم ويرعاهم بعصا من حديد». كانت أوروبا في تلك الفترة قد احتكرت لنفسها مفهوم العالم المسيحي Respublica Christiana، وجعلت الهوة بين ما هو مسيحي وما ليس بمسيحي هوة جغرافية كان من أول نتائجها أنها طردت مسيحيي الشرق العربي من فردوس العالم المسيحي وربطت مصيرهم بمصير المسلمين وانتهت إلى العمل مع غزاة فلسطين على تصفية المسيحيين جسدياً في مهد المسيح بأخلاق لا تقل كراهية عن أخلاق إبادة هنود أميركا.

كانت شمولية تعاليم المسيح، وتبشيره بالمحبة وبحضور الله الدائم فينا وبيننا، وبأن الخلاص يجب أن يعم الإنسانية ويقوم على أساس الأخلاق لا العنصر والعشيرة، وحربه على ظاهرية الشريعة ومحرماتها صفعة لكل أساطير مملكة التراب. إن جوهر الإيمان

المسيحي يقوم على مبدأ «أحبب عدوك» الذي كان ثورة على تقليد العنف والكراهية اليهودي المكابي، مثلما كانت حياة المسيح وأخلاقه وتعاليمه ـ كما يعتقد يونغ C. G. Jung في كتابه «جواباً على أيوب» Answer to Job ـ ثورة إنسانية على وحشية إله التراب. ولطالما كان كل تاريخ المسيحية الشرقية العربية تجسيداً لهذه الإنسانية النبيلة التي غابت عن التقليد الأنغلوسكسوني يوم نبش تقليد العنف والكراهية المكابي وأحله محل جوهر الإيمان المسيحي. إن المركزية العنصرية للبروتستانتية الأنغلوسكسونية أدت إلى إغلاق كل تعاليم المسيح في المركزية العنصرية للشعب المختار وفي المسيائية اليهودية، وحولت مملكة الله إلى شركة مصادرات وقرصنة عقارية. أما مبدأ «أحبب عدوك»، فقد تجلى بأعظم تساميه وجوهره المسيحي المتعالي في استقبال المسيحيين العرب للفاتحين المسلمين وفي فتح خزائن وكنوز تراث المدنيات القديمة لإحيائه وتطويره.

وللأسف فإن انحسار البعد الطوباوي من الكاثوليكية الرومانية إلى داخل الأديرة هو الذي أدى إلى تحكم تلك الكنيسة بالمصير الأرضي، وهو الأمر الذي أرادت البروتستانتية أن تتغلب على ثنائيته بالتوحيد بين ما هو ديني وزمني. بذلك فتحت الباب لكل يوتوپيا ممكنة، فراح البيوريتانز ينبشون مفهوم «الشعب المختار»، ويتبنّون «فكرة إسرائيل» ولاهوتها ومكابيتها وعنفها وأخلاق كراهيتها. وبذلك دخلت عقيدة «نهاية التاريخ» بمعناها القيامي الأسطوري في الحياة اليومية الأميركية وصار لزاماً على الپيوريتاني تحويل أرض كنعان (العالم الجديد) إلى «إسرائيل جديدة» وإبادة أهلها الكنعانيين ثم العمل على تجميع اليهود في فلسطين من مختلف أنحاء الأرض والاستعداد لحرب نهاية العالم.

لقد أصبحت «إسرائيل الجديدة» للأنغلوسكسون نهايةَ كلِّ نهايةٍ للتاريخ. فيها سيصنعون التاريخ المقدس الذي رسمته العناية الإلهية، ومنها سيكشفون المصير المقدس لكل هذا العالم. إن إسرائيل هي ربهم الذي يعبدونه وهي صلواتهم التي يرددها البسطاء والرؤساء والوزراء والجنرالات وصانعو القرار السياسي في قداس الآحاد وكلما فتحوا كتاب الصلاة *The Book of Prayer*:

ألم تري أن الذي يحميك يا إسرائيل لا تأخذه سنة
ولا نوم
إن الرب هو الذي يرعاك،
وإنه هو الذي يذود عن حياضك بيمناه

Behold, He that keepeth Israel: shall neither slumber not sleep.

The Lord himself is thy keeper: the Lord is thy defence

upon thy right hand;

الرب هو الذي بنى أورشليم، ولملم شمل بني إسرائيل
إنه هو الذي يغسل أحزان قلوبهم،
ويعطيهم البلسم الذي يشفيهم من السقام

The Lord doth build up Jerusalem: and gather together

the out - casts of Israel

He health those that are broken in heart:
and givth medicine to heal their sickness.

بين اليهود عُرف الله. وتمجد اسمه في إسرائيل
معبده في سالم، ومسكنه في صهيون

In Jewry is God known: his Name is great in Israel

At Salem is his tabernacle: and his dwelling in Sion.

حين خرج بنو إسرائيل من مصر،
وخرج بيت يعقوب من بين الغرباء
يهودا كانت ملجأهم، وإسرائيل كانت ملكهم
بذلك شهد البحر وفاض، وبذلك شهد نهر الأردن وانحسر
أما الجبال فرقصت كالأغنام، وأما الآكام فطارت فرحاً كالحملان

When Israel came out of Egypt: and the house of Jacob from among the strange people,
Judah was his sanctuary: and Israel his dominion.
The sea saw that, and fled: Jordan was driven back.
The mountains skipped like rams:
and the little hills like young sheep.

إن قديسي الأنغلوسكسونية وشعوبها على طرفي المحيط يمجدون الله بهذه الصلوات ويعملون ليل نهار منذ بداية حركة الإصلاح لتحضير أعداء «الشعب المختار» لنهايتهم الدموية التي لن تنزل أورشليم القدس من السماء بدونها.

لهذا كان استعمار أميركا وإبادة أهلها أول طلقة في «حرب نهاية التاريخ»، وكان هنود أميركا أول الضحايا، لا آخرهم. لقد لاقى هؤلاء الأشقياء الهنود مصيرهم الدامي بالغلط، ونيابة عنا نحن المقصودين بالذبح على الحقيقة. إنه موتنا الذي فدانا به هنود أميركا وأبعدوا به سكين الجلاد الأنغلوسكسوني المقدس عن رقابنا

أكثر من أربعمئة عام. وها قد جاء الأجل بأيديهم وأيدي دُماهم، فليلمس كل «حر» منا رقبته، وليلبس كل «حيّ» منا كفنه. إنهم لن يتركوا منا إلا عبداً أو حاكماً وغداً، ولن يبقوا من أرضنا إلا المقابر وأقفاص الحيوانات. سنوات معدودة، لعلها أقصر من سنوات الأباشي والشيروكي، ولن يبقى من هذه الفريسة إلا العظام.

كانت إبادة هنود أميركا أولى الإبادات على الطريق إلى هيروشيما وناغازاكي وڤيتنام وبغداد فالمدن العربية المقبلة واحدة بعد الأخرى صعوداً إلى أورشليم السماوية، وكان استعمار أميركا أول الطريق إلى استعمار أرضنا وثروتنا وحكامنا وجامعة دولنا وكل مقدساتنا. إن قدر أميركا هو ابتلاع الأراضي كما يقول السناتور هارت بنتون Hart Benton في خطاب ألقاه في مجلس الشيوخ عام ١٨٤٦ ونقلته «حوليات سان فرانسيسكو» The Annals of San Francisco:

> إن قدر أميركا الأبدي أن تمضي في غزوها قدماً. إنها مثل عصا هارون التي صارت أفعى وابتلعت بقية الحبال. كذلك ستغزو أميركا الأراضي وتضمها إليها أرضاً بعد أرض. ذلك هو قدرها المتجلي Manifest Destiny. أعطها الوقت اللازم لذلك وستجدها تبتلع في كل بضع سنوات مفازات بوسع معظم ممالك أوروبا. ذلك هو معدل توسعها.

في أول معركة خاضتها أميركا على «طريق نهاية التاريخ» واجه أكثر من أربعمئة أمة وشعب من هنود أميركا قسوة الإبادة أو العبودية المطلقة، وواجه ستّون مليون أفريقي قسوة العبودية والموت في أبشع

تجارة للعبيد عرفتها الأرض. لقد كانت أول معركة في «حرب إسرائيل المقدسة» لتي يخوضها الأنغلوسكسون على طرفي المحيط منذ أربعمئة عام والتي لن يطفئوا نارها إلا بدمنا في «معصرة غضب الرب» مع نهاية التاريخ (القريبة) حين لا يبقى من أبناء مدنياتنا ــ بين الفرات والنيل ــ إلا العبيد، أو الموتى يدفنون الموتى.

عقيدة الإبادة والاستعباد

عندما نشر الشاعر الروائي المستشرق الفرنسي العنصري غوبينو Joseph Arthur de Gobineau مقالته الفرزدقية عن تفاوت الأعراق البشرية L'Essai sur L'inégalité des races humaines في ١٨٥٤ ونال مجداً وشهرة هائلة في العالم الأنغلوسكسوني إنما كان ينظم «ألفيّة» عنصرية عن عدم تساوي البشر في الخلقة الطبيعية يسرد فيها خلاصة الأفكار الأوروبية العرقية التي راجت في زمانه. وكان من الطبيعي أن تلقى مقالة غوبينو رواجاً في أميركا قبل أن يسمع عنها أحد من أهله الفرنسيين. فقد كانت الولايات المتحدة في ذلك الأوان تلهث وراء حلم قيادة العالم على أساس عرقي مقدس متفوق على عرقية «ماما إنكلترا» العجوز، وكان شعب الله الأنغلوسكسوني قد أبلى في حرب الأعراق بلاء لم تعرفه الأرض، وصار له في سفك دماء المتوحشين الهنود واستعباد الملعونين السود تاريخ عرقي مجيد يؤهله لبطولة العالم.

أكثر من قرنين مضيا في «إسرائيل الجديدة»، اتسع فيهما معنى «الاختيار الإلهي» وعمت بركاته كل أميركي ميزه الله ببشرة بيضاء، ودم أزرق، وبندقية، وتوراة، وجوع مجنون إلى ذهب الآخرين. إنها «إرادة الله» كما عبر عنها كلينتون في خطبة

الكنيست. وإنها «القدر المتجلي» وآياته التي تجسدت في «الخروج» وازدهار المستعمرات وإبادة المتوحشين واستعباد الأعراق المنحطة وأنهار الخيرات تفيض بها «أرض الميعاد» وهي تتسع وتتسع، مذبحة بعد مذبحة، ومعاهدة سلام بعد معاهدة سلام. وإنها إرادة «قوانين الطبيعة» وقد تجلت في لغة داروين Darwin وغوبينو وكالدويل Charles Caldwell والبراهين العلمية. لقد أشبع الوسط الثقافي الأميركي شهوتها إلى العلمنة والعلمية وروح التنوير والثورة بالخبرة المتراكمة والتجربة الطويلة مع «المتوحشين والعبيد»، فكنت ترى الصحف والأعمال الأدبية والكتب الجامعية والخطب السياسية ومواعظ الآحاد كلها مسكونة بالبرهان العلمي والدليل الميداني على «الاختيار المقدس» للشعب الأميركي الأنغلوسكسوني الذي ميزته الطبيعة على الأعراق البشرية وأهّلته للسيطرة على العالم.

هذه التجربة الفريدة مع «المتوحشين الهنود والعبيد السود» هي التي طبعت أسلوب التبادل العلمي للأفكار العرقية مع «ماما إنكلترا» علماً بأن العنصرية الأميركية شبت وشابت في لاهوت «عبادة إسرائيل» هناك على الطرف الآخر من المحيط في كانتربري وفي بلاط هنري الثامن Henry VIII وجيمس الأول James I قبل أن تظهر لحية هرتزل بثلاثة قرون. كان ذلك التاجُ البريطاني الذي لا تغيب عنه الكراهية والعنصرية بيضةَ هذه الأفعى الصهيونية وأفتك سمومها. ومنذ أول مستعمرة إنكليزية في العالم الجديد وأول سفينة شحن للعبيد وأول مجزرة هندية كان الأنغلوسكسون على طرفي المحيط من أعظم دعاة الحرية السياسية والفردية... لأنفسهم فقط!

ومع أن «الأنغلوسكسونية» كذبة أفحش من كذبة «الشعب المختار» فإن الذين برهنوا علمياً على تفوق «الأنغلوسكسون» عرقياً كانوا

يشيرون إلى ذلك الخليط المهجن للجماعات البشرية التي تسكن الجزيرة البريطانية من الجرمان والسلت والفايكنغز، ثم عمموه على تلك الأخوة الضبابية بين الناطقين بالإنكليزية من البيض فقط! وقد ظل هذا التفوق يعتمد أولاً وأخيراً على أساطير «الاختيار الإلهي» والمسيائية اليهودية التي قامت عليها كل أمجاد أميركا.

أما في أميركا نفسها فما يزال تعريف «من هو الأنغلوسكسوني» يعاني إلى الآن مما يعانيه تعريف «من هو اليهودي» في فلسطين المحتلة. لهذا اكتفى تعريف التفوق الأنغلوسكسوني بالنفي لا بالإثبات. فبدلاً من تحديد من هم الأنغلوسكسون المتفوقون الذين اختارهم الله وفضلهم القَدَر وقوانين الطبيعة على العالمين اكتفت البراهين العلمية بالقول إنهم كل من ليس أسودَ البشرة أو ملوّنَها في أميركا. بهذه البهلوانية اللغوية طرد العلمُ كل سكان أميركا الهنود وعبيدها السود من ملكوت الإنسانية استمراراً مع طرد اللاهوت لهم من ملكوت الحياة. بذلك صار تجريد هؤلاء الأشقياء من إنسانيتهم مبرراً إضافياً لاستعبادهم أو تطهير الأرض المقدسة منهم دينياً.

لأكثر من أربعة قرون كانت «فكرة اسرائيل» وعنصرية أساطيرها عن حام (أبي كنعان) وسام ويافث و«الشعب المختار» وتصنيف الأمم والشعوب عبيداً وأسياداً ومباركين وملعونين تنسب حق استعباد السود إلى «إرادة الله» وتحقنهم بالأخلاق التي اصطادوا بها عشرات الملايين من أطفال أفريقيا ونسائها ورجالها واقتلعوهم من أهلهم وبيوتهم وحقولهم ليباعوا عبيداً لشعب الله الأنغلوسكسوني. إن تاريخنا الإنساني لم يعرف أساطيرَ تُقدس استعبادَ التوأم لأخيه التوأم من قبل أن يولدا، وتؤمن بأن هناك إلهاً يميز بين بهائم هذا

وبهائم ذاك كأساطير اللاهوت الذي صنع أميركا وأباد سكانها:

* «في بطنِك أمّتان ومن أحشائِك يفترقُ شعبان؛
شعب يقوى على شعب.
وكبير يستعبد الصغير»...
* «بسيفكَ تعيش ولأخيكَ تستعبد»...
«يميز الرب بين مواشي إسرائيل ومواشي المصريين»...
* «مباركاً تكون فوق جميع الشعوب،
لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك».

ومع تشارلز كالدويل ــ كما سنرى لاحقاً ــ أثبتت التجارب العلمية فعلاً أن هؤلاء الأفارقة السود هم من ذرية «الملعون حام» وأنهم بسبب هذه اللعنة مُسخوا وصاروا يشبهون القرود!

ومع أن وثائق تجارة العبيد قد اختفى معظمها فإن هناك إجماعاً على أن عدد السود الذين اصطيدوا من أفريقيا وشحنوا إلى أميركا كما يقول ريجنالد هورسمان Reginald Horsman في كتابه «العنصرية والقدر المتجلي *Race and Manifest Destiny*» وتوم فيلينغ Tom Feeling في مقدمته لكتابه الفني عن شحن العبيد *The Middle Passage* لا يقل عن ستين مليوناً، لاقى ثلثاهم مصرعهم في عرض البحر المحيط مرضاً وقتلاً وانتحاراً وغرقاً وتعذيباً. لهذا لم يكن غريباً أن تجد سرباً من سمك القرش يواكب سفينة شحن العبيد في انتظار من يلقى بهم من تلك الأرواح الشقية أو من أولئك المتمردين الذين لا يجدون سبيلاً إلى الحرية إلا بالموت كما يروي المؤرخ جون كلارك John Henric Clark. كيف لا يصاب العبد بالأمراض المهلكة وهو مقيد بالسلاسل في

قاع السفينة لا يُطعم إلا قذراً ولا يسقى إلا كدراً، دامياً تحت السياط، مريضاً دون علاج، متروكاً في هاوية الموت، وحيداً كأن الأرض لم تعرف إنساناً غيره.

حدثنا جون نيوتون John Newton أحد قباطنة سفن العبيد بعد أن تاب ودخل الدير تكفيراً عن ذنوبه فقال:

> كنا نصفد العبيد من أقدامهم بسلسلة واحدة ونحشرهم على رفوف كأنها التوابيت في قاع السفينة مع الفئران والجرذان التي كانت تمتص جراحهم. وكنا في كل صباح نستيقظ لنجد الميت والحي مصفدَيْن معاً بقيد واحد.

لقد ترك نيوتن شهادة نادرة عن عذابات هؤلاء السود الذين لعنوا مصيرهم، ولم يعرفوا لماذا خُطفوا وعذبوا ولا ماذا يريد منهم هؤلاء الوحوش البيض الذين يسوطونهم ليل نهار في قاع السفينة. إلى أين؟ ولماذا؟ ولا من جواب. كان كثير منهم يصاب بالجنون وينتهي في لجج البحر لمصيره الفردي بينما كان كثير من الضعفاء يسترحمون الأقوياء من إخوانهم أن يقتلوهم. وفي آخر شهادته المنشورة بعنوان «نعمة الله المدهشة Amazing Grace» يقول نيوتن: إنني أقلعت عن تجارة العبيد لأن نعمة الله هي التي أنقذت خسيساً مثلي That saved a wretch like me.

كل شهادة نيوتن تؤكد على أن الشمولية الإنسانية المسيحية التي أعطت الخلاص لكل إنسان، وأن السيد المسيح الذي عاش مع المظلومين والفقراء وعانى ظلم الأقوياء وعجز الضعفاء ورفض تقليد

العنف والكراهية اليهودي كما رفض التقليد الروماني أن يستولي قيصر على ما ليس لقيصر؛ كل هذه الأخلاق المسيحية النبيلة أنكرها الأنغلوسكسون المستعمرون حين عَبَدوا «إسرائيل» وآمنوا بأساطيرها عن حام (أبي كنعان) وسام ويافث و«الشعب المختار» وتصنيف الأمم والشعوب عبيداً وأسياداً ومباركين وملعونين. إن معظم المستوطنين العبريين Hebriests الأوائل رفضوا تعميد عبيدهم لأنهم رفضوا الاعتراف بإنسانيتهم ولأن القانون الإنكليزي يحرم استعباد المسيحي. كانوا يعتقدون بأن تعميد العبيد ــ كما يقول عالم الاجتماع الديني ألبرت روبوتو Albert Roboteau في كتابه «دين العبد *Slave Religion*» ــ سيفسد أخلاقهم ويجعلهم يقدرون أنفسهم فوق قدرها. «إن المسيحية ستطيش بصوابهم وتنزع بهم إلى التمرد والمطالبة بالمساواة أو بالمعاملة الأحسن». ثم إن عبادة إسرائيل والمركزية الأوروبية أحالتا الدين إلى ما يشبه اللغة واللون والعرق، مما يعني أن تعميد الأفارقة السود سوف يثير بلبلة بين الأعراق المتميزة ويهدد بنسف النظام الاجتماعي في المستعمرات. لكن الصدام بين «شفقة» الكنيسة البريطانية على أرواح العبيد الوثنيين وبين لامبالاة المستوطنين انتهى بسن قانون جديد يقول كما يذكر روبوتو:

> إن تعميد العبيد لا يغير شيئاً من شروط عبوديتهم. لقد طمأنتهم الكنيسة البريطانية إلى أن المسيحية لا تتنافى مع الاستعباد! بل إنها ــ أكثر من ذلك ــ ستروض العبيد وتجعلهم يقبلون عبوديتهم باعتبارها إرادة الله. بذلك تصبح الطاعة واجباً أخلاقياً دينياً لا مجرد خوف».

كانت الإرساليات في جنوب كارولينا تطلب من العبد قبل تعميده

أن يقسم بأنه لا يتعمد من أجل الحرية، بينما كانت جملة تعاليم المسيحية التي يلقيها الواعظ في العبيد المؤمنين كما يقول إدغار پنينغتون Edgard L. Pennington في كتابه «أول مئة سنة من حياة الكنيسة الإنكليزية في رود آيلاند *The First Hundred Years of the Church of England in Rhode Island*» تتركز على: «لا تسرق دجاج سيدك وأطعه في كل ما يقول».

أبداً لم يعترف الأميركيون، لا پيوريتانز ولا أنغلوسكسون ولا عرقاً أبيض، بإنسانية السود. أما الهنود فإنهم لم يعترفوا بقابليتهم على أن يكونوا مجرد رعايا أو حتى قطيع من الحيوانات في دولتهم، وصنفوهم كما يصنفون كل من يقاوم هيمنتهم واحتلالهم اليوم. إن الهندي هو «وحش الغابات الذي يتعذر ترويضه» كما وصفهم وليم غراهام William Graham ممثل نورث كارولينا في الكونغرس. وإنهم في رأي داڤيد ليفي David Levy ممثل فلوريدا في عهد الرئيس جاكسون:

> شياطين وأرواح شريرة لا بشر. لديهم شكل البشر لا قلوب البشر. إنك لا تستطيع أن تفكر فيهم من غير أن تقرف وتتقزز وتخاف. ولهذا، فاذا تعذر تهجيرهم فإنه لابد من إبادتهم».
>
> They are demons, not men. They have the human form, but nothing of the human heart. Horror and detestation should follow the thought of them. If they cannot be emigrated, they should be exterminated.

وبينما كانت أصوات بعض الإنسانيين وأصحاب الضمير الحي

تحاول «تحسين صورة الهندي» بإثبات قابليته الإنسانية على التحضر والتمدن والتكيف مع جلاده المقدس، لم يكن هنالك من يسمع هذه الأصوات الخافتة في ضوضاء الشعارات العرقية ورهج البارانويا الدينية. وظل سفك دماء الهنود وتشريدهم أو سجنهم في مناطق حكم ذاتي موقت تسمى reservations آيات جديدة على انتصار أفكار التفوق العرقي والاختيار الإلهي إلى أن صارت سياسة رسمية وشعارات علنية بعد ١٨٣٠. ولطالما كانوا يعللون الهنود بأن هذه المناطق ــ التي يصفها مؤرخ ما يسمى بالحروب الهندية جون تيبل John Tebbel بأنها شكل من أشكال معسكرت التعذيب وأقفاص الحيوانات ــ ستكون وطناً دائما لهم يمارسون فيها عاداتهم وتقاليدهم وحكم أنفسهم بأنفسهم، بينما كانت القوة السياسية الأميركية على قناعة مطلقة بأن هذه المناطق ليست إلا أحد أسلحة الإبادة لأن هذا الهندي كائن منحط لا بد من تطهير الأرض منه. (عن الحكم الذاتي للهنود الحمر حديثاً، انظر كتاب فيليب كينيث Philip Kenneth «الحكم الذاتي الهندي *Indian Self - Rule*» ففيه شهادات واقعية عن هذا الحكم منذ روزفلت حتى ريغن). كانت كل الأعذار والمبررات العلمية لهذا «الموقف النبيل» تضرب جذورها في لاهوت الانتقام والكراهية والشتائم المقدسة للكنعانيين والأمم الملعونة التي كانت تسكن فلسطين والمناطق الواقعة بين الفرات والنيل.

منطق الجلاد المقدس: الاغتصاب فضيلة والمقاومة شر

وعلى استحياء شديد، بدأت تتردد بين الكتّاب المتنورين والإنسانيين الرومانسيين عبارة «الوحش النبيل Noble Savage». كان معظم هؤلاء الكتاب مثل هوثورن Nathaniel Hawthorne وثُرو

وميلفيل قد توصلوا ـــ مع نتائج «العلم» ـ إلى قناعة يائسة بأن هذه الوحوش النبيلة في أحسن أحوالها كائنات مأساوية وأنها بالتأكيد أفضل من بهائم متوحشة bestial savages لا بد من أن تفنى، وهي اللهجة التي تخاطبنا بها السياسة الأميركية اليوم عملياً والتي أكد عليها الرئيس كلينتون في تلذذه السادي بمذبحة قانا وبدم ليلى العطار وأطفالها الصغار وفي خطابه في تل أبيب وشرم الشيخ عندما أكد بأن «رحلة إسرائيل وأميركا رحلة واحدة Your journey is our journey» وهدد كل من يقاوم الاحتلال بأنه سوف يُستأصل root out. لقد ذكر الرئيس جون كوينسي أدامس John Quincy Adams في مذكراته أن وزيره هنري كلاي Henry Clay كان شديد الشفقة على الهنود. إن حقائق العلم جعلته على «قناعة بأن تمدين الهنود مستحيل، وأن قدرهم الحتمي هو الانقراض. إنهم، مقارنةً بالأنغلوسكسون الذين يأخذون مكانهم الآن، عرق لا يستحق البقاء وسلالة عاجزة عن التطور. لهذا فإن اختفاءهم عن وجه الأرض لن يكون خسارة للعالم».

أما توماس دو Thomas Dew فكان يرى أن «الحل الوحيد» لإنقاذ الهنود (والعرب اليوم) من الموت هو أن يصيروا عبيداً يرضون بما ارتضاه العبيد. وهذا ما جاء في عقيدة جيمس بولدوين James Boulduin الذي كان يقول (كما جاء في *Congressional Globe*، الكونغرس ٢٤، الدورة الأولى، ٢٩ حزيران/ يونيو، ١٨٣٦):

> انظروا إلى السود. إنهم يزدادون عدداً في أميركا لا لشيء سوى أنهم ارتضوا بأن يصيروا عبيداً في ظل أسيادهم الأنغلوسكسون.

لقد ظل علماء أميركا أكثر من عقدين يقدمون البراهين العلمية التي تدعم وجهة نظر كلاي ودو وبولدوين وشفقتهم الإنسانية. ولحسن الحظ فإن هذه الشفقة المهينة التي أبداها هنري كلاي ظلت محصورة بين بعض الطوباويين والشعراء الرومانسيين وبعض الرهبان الطيبين الذين آلمهم أن يفنى الهنود قبل أن تتخلص أرواحهم من الوثنية. أما عامة البشر من الباحثين عن مزيد من الأرض ومزيد من الثروة ومزيد من التقرب إلى ربهم بدم الكنعانيين، فإن كل هذه الثرثرة الأدبية لم تكن لتعني لهم شيئاً أمام سيل أدبيات الرعب والتخويف التي كانت تصنع من الهندي المسلوب المنهوب المغلوب المهدور الدم شيطاناً مجرماً معتدياً على جلاده المقدس البريء. وكانت التجارب العلمية التي أجريت على الهنود قد مدت الخيال الأدبي والشعبي ملحمية عن حتمية إبادة الهنود وانقراضهم تلقائياً بسبب طبيعتهم المنحطة. ولك أن تتخيل كيف ترجم هذا المسخ العلمي إلى مذابح وتطهير عرقي مع مجيء الرئيس أندرو جاكسون Andrew Jackson الذي أباح لكل فرد أميركي أن يطرد الهندي من أرضه وبيته وأن يستولي عليهما، ومع حملة إبادة هنود تكساس عندما عرضت الدولة مكافأة لكل من يجيء بجثة هندي رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً أو شيخاً مهما كان شعبه أو قبيلته. وكما يقول نيوكوم Newcome, W.W., Jr. في كتابه عن هنود تكساس *The Indians of Texas*:

> إن الأميركي لم يكن يرى في حياة الهندي أكثر مما يرى في حياة الكلب، بل أحط منها في بعض الأحيان:
>
> Americans who often had no more regard for the life of an Indian than they had for that of a dog, sometimes less.

أما في كاليفورنيا وأوريغون فتقول الأرقام الرسمية عام ١٩١٠ إنه لم يبق من هنود هاتين الولايتين سوى عشرين ألفاً، معظمهم قتلوا على أيدي المستوطنين ومافيات المناجم قتل البعوض والحشرات المنزلية.

* * *

هذه الأميركا الأرض التي وُعد بها الشعب الأنغلوسكسوني المختار هي بلاد الهنود منذ آلاف الأجيال. وهي مهد حضارات وأشكال متطورة من الفن والبنى السياسية والاجتماعية والثقافية. لقد كانت لهم ديانات نبيلة ونصوص مقدسة إنسانية وعمارة متطورة مدهشة، واشتغلوا بالرياضيات والفلك والطب والكتابة والزراعة وصنعوا الأدوات والعقاقير ومراصد النجوم حين كان أهل الجزيرة البريطانية فوق أغصان الشجر. تصور مطابخنا الإنسانية بدون بندورة (طماطم) أو بطاطا أو ذرة أو غير ذلك الكثير مما يحكي قصته الأنثروبولوجي جاك وذرفورد Jack Wetherford في كتابه الوثائقي «الواهبون الهنود *Indian Givers*» الذي يروي فيه عن ثورتهم الغذائية وتقنياتهم الزراعية وتقدمهم الطبي والصناعي والهندسي والدستوري. إن كل هذه المنجزات الإنسانية التي طمست بضجيج البروباغندا الأميركية تشهد على عبقرية الهنود وتطورهم الحضاري يوم لم يكن لدى جلاديهم إلا الكراهية المقدسة والعطش إلى الدم.

في عشرينيات القرن الماضي أطلق الدكتور شارلز كالدويل Charles Caldwell نظريته الشهيرة عن أصل العرق الأبيض في كتابه العرقي الخالد «خواطر في وحدة الجنس البشري» *Thoughts on the Original Unity of the Human Race* فقال إنه يتحدر

من ذرية نوح، وأنه كان في زمن من الأزمان عرقاً متخلفاً كالسود والهنود لكن ملكاته الطبيعية المتفوقة هي التي أهلته لقيادة حضارة العالم. وقال إن الأفارقة السود هم من ذرية الملعون حام وأنهم بسبب هذه اللعنة مُسخوا وصاروا يشبهون القرود. أما الهنود فقد خصهم بأعجب تجربة علمية في تاريخ العلم الأنغلوسكسوني قبل أن يقرر بأن قدرهم مشؤوم وأن الحضارة حكمت عليهم بالانقراض تماماً كما حكمت على الحيوانات المفترسة. لقد فتح الدكتور كالدويل رؤوس عدد من الهنود الحمر (ربما اصطيدوا خصيصاً لهذه التجربة) وفحص ما فيها ثم قارنها ببعض الجماجم الهندية التي نبشت من مقابر قديمة فتوصل إلى النتيجة العلمية التالية:

> «عندما يتحول الذئب والجاموس الوحشي والفهد إلى حيوان أليف كالكلب والبقرة وقطة البيت؛ عندها، لا قبل ذلك أبداً، ربما يتحضر الهندي ويصبح مثل الإنسان الأبيض».

لقد اكتشف العلم كل قوانين الانقراض في جسد الهندي الأحمر ودماغه وأخلاقه ولغته ودينه وعاداته، وظل أمل الإنسانية معقوداً على أن يعجل «الجلاد المقدس» في هذه النهاية المحتومة لما فيه الخير لأميركا والعالم (الذي تهيمن عليه أميركا). هكذا اقتضت هذه الغاية النبيلة أن تكتفي الحكومة الفيدرالية بالتعليق على مذابح الهنود الوحشية في كاليفورنيا خلال خمسينيات القرن التاسع عشر بأنها استجابة لقوانين العلم والطبيعة التي أرادت أن تستبدل بقوم منحطين أقواماً متفوقين. هذا المنطق تبناه اليوم بعض فقهاء الهيمنة والاحتلال في عالمنا العربي كي ينتهوا في حكمهم على العرب

والمسلمين إلى ما انتهى إليه الدكتور كالدويل في حكمه على الهنود.

إن كل تاريخ أميركا كما يرى هربرت غانس Herbert Gans كان حرباً على الضعفاء والضحايا والفقراء والمظلومين استخدمت فيها كل أسلحة التشويه والتشنيع والتزوير الممكنة لقتل روح هؤلاء الضحايا وأخلاقهم. إنها تتطلب منهم دائماً أن يبرهنوا على آدميتهم ويثبتوا حسن سلوكهم لجلاديهم ضمن شروط معجزة لا تختلف عن شروط حسن السلوك التي يطلبها الذئب من النعجة والمزارع من البقرة. وقد وقع بعض الهنود في هذا الفخ (كما وقع الفلسطينيون وبعض العرب والمسلمين الذين صار قصارى جهدهم أن يستجدوا من أعدائهم شهادات حسن سلوك لأنفسهم أو للعروبة والإسلام) فكانوا وهُم يقدمون لجلاديهم البرهان بعد البرهان على آدميتهم وحسن سلوكهم يحفرون قبورهم بأيديهم ويمهدون الطريق لإبادتهم. كل ما أرادته هذه الحرب النفسية هو أن تضيف مزيداً من التعاسة والشقاء إلى حياة الضحايا من الهنود والسود والفقراء والعرب والمسلمين وتعريهم من بشرية البشر لتجعل منهم فريسة سهلة. إنها كما يصفها غانس في كتابه الرائع «الحرب على الفقراء *The War Against the Poor*»:

> حرب تشنيع وتجريح وتعيير وسحق لهؤلاء الضحايا لجأت إلى التشكيك في طبيعتهم وأخلاقهم وقيمهم وإنسانيتهم لتشيع اليأس من وجودهم ومن مستقبلهم. بهذا تصبح مساعدتهم هدراً ويصير إنقاذهم عبثاً لأنهم [وهذا بيت القصيد في هذا المنطق العلمي] منحطّون طبيعياً وأخلاقياً ومسؤولون وحدهم عن كل ما أصابهم.

إنها «إرادة الله والقدر المتجلي».

وعندما حُمَّ القضاء على هؤلاء الأشقياء في عهد الرئيس جاكسون اتخذت حملة التهجير والإبادة بعداً وحشياً. ولأن الجريمة يجب أن تستند إلى قانون في «دولة حكم القانون» فإن الرئيس جاكسون وقع قانون تهجير الهنود وجعل سياسة الاستئصال والترحيل والاقتلاع والقتل التي انتهجها المستوطنون أكثر من ٢٥٠ سنة سياسة شرعية. بذلك أعطى الحق لكل ولاية بل لكل أميركي أبيض أن يغتصب أرض الهندي وبيته وأملاكه ويطرده منها، ووضع كل حياة الهنود ومصيرهم قانونياً بين أشداق المستوطنين الذين صار يحق لهم أن يتعاملوا معهم على أساس شعار الجنرال فيليب شريدان Philip Sheridan: «ليس هناك من هندي صالح إلا من مات» The only good Indian was a dead one

وهو ترجمة حرفية للشعار المقدس: «أفضل الغوييم (غير اليهود) اقتله، وأفضل الأفاعي اسحق رأسها».
The best of Gentile-kill him; the best of snakes-dash out its brain

ومع هذا القانون كان لا بد من إلغاء كل اتفاقيات الهدنة مع الهنود الذين لم يكن أمامهم إلا الاقتلاع أو الموت.

الذين انصاعوا لقدر الاقتلاع وجدوا أنفسهم عام ١٨٣١ — ١٨٣٢ في أسوأ شتاء عرفه الجنوب الأميركي يتسكعون في العراء الثلجي دون غطاء ولا حذاء ولا ملابس الشتاء. وكما يقول ريجنالد هورسمان Reginald Horsman:

> لقد رماهم «شعب الله» إلى الذئاب جائعين مرضى مقهورين بينما كان المستوطنون يطاردون فلولهم المتعبة ليقتلوهم ويتسلوا بصيدهم. ليس هناك من يعلم عدد من مات في هذا النزوح الخرافي لكن التاريخ الرسمي الأبيض يتهم الأمراض والأوبئة بإبادة الملايين في تزوير صار يعرف بأنه حرب الإبادة الثانية.

كان الرئيس جاكسون يعتقد بأن «الرعاية الإلهية» وقوانين الطبيعة التي أخذت بيد العرق الأميركي (الأنغلوسكسوني) إلى القوة والرفاه هي العلة في أن الهنود كائنات مختلفة عن البشر. ولهذا فإن على هؤلاء المنحطين أن يرتضوا ما ارتضته لهم العناية الإلهية وما أقرته نتائج العلم وأن يذعنوا ويتخلوا عن مناطقهم الموات لهؤلاء الذين اختارهم القدر لإحيائها. وفي رسالته السنوية الثانية قال جاكسون متسائلاً:

> ماذا يفضّل الإنسان الصالح؟ أيفضل بلدا تكسوه الغابات وتهيم فيه آلاف قليلة من المتوحشين أم يفضل جمهوريتنا الإصلاحية المزدهرة بالمدن والمزارع والمنجزات العظيمة في الفن والصناعة، والعامرة بأكثر من ١٢ مليون إنسان ينعمون بالسعادة ويتمتعون بالحرية والحضارة والدين.

وكانت هذه الرعاية الالهية قد تجلت كذلك في حملة تنزيح الهنود إلى غرب المسيسيبي عندما تبين أن غالبية أعضاء الكونغرس يؤمنون بأن الأنغلوسكسون شعب مختار وأن الهنود وغيرهم كائنات منحطة لا بد لها أن تنقرض كما عبرت عن ذلك عقيدة

بولدوين James Boulduin بقولها:

> إن قدر الهندي الذي يواجه الأنغلوسكسوني مثل قدر الكنعاني الذي يواجه الاسرائيلي: إنه الموت.

في البدء لم يستطع الهنود أن يفهموا حرب إبادتهم والتوسع في أراضيهم وحاولوا أن يجدوا لها أعذاراً بريئة. إن الهنود كما وصفهم مطران الرحمة الإنساني النبيل برتولومي دي لاسكازاس Bartolomeo de Las Casas في مذكراته:

> أكثر شعوب الأرض تواضعاً وصبراً ومسالمة وسكينة. إنهم لا يعرفون الضغينة والصخب والعنف والخصام. شعوب تجهل الحقد وسوء الطوية، وتعف عن الثأر والانتقام.

ولهذا فما كاد الهنود يدركون ما يخبئه لهم «الشعب المختار» من مفاجآت سعيدة في العالم الآخر حتى بدأت حرب التشنيع والتشويه والتحقير التي ما تزال ــ بعد تطهيرهم عرقياً ــ تلاحقهم إلى الآن إلى مقابرهم الجماعية. كانت حرب التشويه التي جسدتها في زمن الرئيس جاكسون رواية بيرد *Robert Montgomery Bird* «شيطان الأدغال Nick of the Woods» تقوم على منطق بسيط يلخصه ريجنالد هورسمان بهذا القانون الخالد للبروباغندا الأميركية:

> إن اغتصاب أراضي الهنود وإبادتهم فضيلة إنسانية، أما مقاومة الهنود لذلك الاغتصاب وتلك الإبادة فوحشية وشر.

كانت حرب التشنيع على الهنود جزءاً من حرب الإبادة والتوسع حتى آخر شبر في أرض كنعان. لم يترك التوسع للأميركيين أي أمل في قبول الهنود ضمن الأسرة الإنسانية، ولم تبق لهم «إرادة الله» أي خيار غير إبادتهم. كانوا يرون في هذا التوسع ــ كما يقول مؤرخ الأديان توماس هِيتلا Thomas R. Hietala ــ استمراراً لمسيرة موسى إلى أرض الميعاد. إن شهوة التوسع الجائعة أبداً إلى أرض الهنود الطيبة والعطشى أبداً إلى دماء الهنود الزكية جعلت الحكومة الفيدرالية تضرب رقماً قياسياً في نقض معاهداتها مع الهنود. فأميركا التي وقعت ٣٧١ معاهدة مع الهنود لم تحترم واحدة منها. لقد نقضتها كلها. وهذا ما عبر عنه الزعيم الهندي رد كلاود Red Cloud بقوله:

> لقد عاهدونا ووعدونا بالكثير مما لم أعد أحصيه ولا أتذكره، لكنهم لم يحترموا من كل عهودهم ووعودهم إلا واحداً. قالوا بأنهم سيأخذون بلادنا منا وقد نفذوا ذلك فعلاً.

وحين كان الوزير جيمس باربور James Barbour يتفاوض مع الهنود على معاهدة جديدة قال:

> إنهم يرون بأعينهم أن بياناتنا ثرثرة فارغة، وأن وعودنا كاذبة، وأن طمعنا في الأرض يجعل حياة الهندي عندنا ضحية رخيصة مبتذلة. إننا نقول للهنود الآن إن لهم أن يختاروا ما شاءوا من الأرض لأنفسهم. ولكنهم يسألونني: كيف سنثق بأنك لن تنفينا من جديد عندما تشتهي امتلاك تلك الأرض. إنهم يعرفون

> أن مد الإنسان الأبيض قد فاض وأنه لن يتوقف إلا عند شواطىء المحيط الهادي.

كان نقض المعاهدة القديمة مقدمة جديدة لاستلاب المزيد من الأراضي وقتل المزيد من البشر وتهجير المزيد من هؤلاء الأشقياء الذين يضطرون بالقوة والإرهاب إلى توقيع معاهدة جديدة سرعان ما ينقضها الأميركيون في حلقة دموية لم تبق من ١٨,٥ مليون هندي في أميركا الشمالية ــ بحسب التقديرات الأركيولوجية، أول هذا القرن ــ سوى ٢٥٠ ألفاً يعيشون في معسكرات تعذيب وموت بطيء ذليل لا يشبهها شيء على وجه الأرض إلا مناطق الحكم الذاتي في فلسطين المحتلة.

هذا ما عبر عنه الزعيم الهندي پيابو Piapot بقوله:

> لكي نصير وحدنا أسياد أرضنا فقد حجزونا في مناطق صغيرة مثل راحة يدي، وأغدقوا علينا وعوداً طويلة مثل ذراعي. لكن وعودهم صارت في السنة التالية أقصر، ثم صارت تقصر وتقصر مع توالي السنوات إلى أن صارت الآن أصغر من أصبعي. ومع ذلك فإنهم لم يحترموا نصف هذه الوعود.
>
> In order to become sole masters of our land they relegated us to small reservations as big as my hand and make us long promises as my arm; but the next year the promises were shorter and got shorter every year until now they are the length of my finger, and they keep only half of it.

على مستوى الوعود السياسية، أرادت بريطانيا وهي تحارب

الفرنسيين أن تكسب الهنود إلى معسكرها فوعدتهم بتأسيس «الدولة الهندية الكبرى» أو ما يعرف بالفيدرالية الهندية، لكنها بتقليدها البريطاني العريق نقضت وعودها للهنود بعد انتصارها في تلك الحرب، ثم حاولت جهدها تمزيق شملهم والحيلولة دون وحدة صفهم. بذلك واجهت كل قبيلة من قبائل الهنود موتها المحتوم منفردة ضعيفة في وجه القدر «الانكلوسكسوني المتجلي». وبينما كان الهنود والخنجر البريطاني في ظهرهم في حال من الذهول والغضب والإحباط وعدم التصديق كان البريطانيون ــ وقد صار الشمال الأميركي تحت سيطرتهم ــ في حال من النشوة والعربدة والتجبر والصلف الذي عبر عنه الجنرال المنتصر توماس غايج Thomas Gage (حاكم ماساشوستس لاحقاً) لحلفائه الهنود المخدوعين أفضل تعبير بقوله:

> ألم يحن الوقت لكي يفهم الهنود أنهم لم يكونوا حلفاء بل حثالة من العملاء الأنذال.

وعندما صار هنود توسكاروراس Tuscaroras قوة مخيفة استطاعت أن تهزم المستوطنين الإنكليز والألمان في أكثر من معركة (١٧١٢) تحالف المستوطنون مع قبائل الشيروكي Cherokees والياماسي Yamasees وغيرهم حلفاً لم يثمر شيئاً سوى تجنيد هؤلاء الهنود المغفلين لقتل إخوانهم وإضعافهم في حرب دمروا فيها كل مدنهم وذبحوا كل أسراهم الذكور، وساقوا من تبقى عبيداً للإنكليز والألمان لقاء وعود كاذبة وفتات من ثروتهم المنهوبة. ولم يمض قرن واحد حتى أبيدت قبائل الشيروكي والياماسي وغيرهم من القبائل الحليفة التي تجندت للدفاع عن الإنكليز والألمان بالطريقة التي أبيد فيها هنود توسكاروراس. وعندما ثار هنود البحيرات الكبرى ووادي أوهايو مع هنود سينيكا Ceneca في

١٧٦٣ فاستولوا على كل المواقع العسكرية البريطانية باستثناء نياغارا وديترويت وحصن پيت Pitt لم يحاربهم البريطانيون بالسلاح، لكنهم مزقوهم بشراء الذمم الرخيصة، وضربوا بعضهم ببعض بمفاوضات سلام سحبت كل الأرض من تحت أقدامهم وتركتهم مشتتين ضعفاء يواجهون حرب الإبادة بينما لاقى پونتياك Pontiac زعيم التمرد مصرعه على يد أخيه الهندي (صديق الغزو البريطاني).

وفي أيام الثورة التي كانت كارثة على الفيدراليات الهندية، تكررت المواعيد والعهود من كل جانب فأمطرت المنّ والسلوى على قلوب الهنود اليائسين الذين ظنوا أن أعداءهم قد صاروا أصدقاء سيصدقونهم ما وعدوهم. بذلك انضم هنود الشيروكي Cherokee إلى صفوف البريطانيين وراحوا يقتلون إخوانهم الهنود الذين يحاربون في صفوف الثوار ليجدوا أنفسهم في النهاية وقد أحاط بهم إخوانهم مع جيش الثوار فأبادوهم ودمروا محاصيلهم وحرقوا مدنهم. كذلك انضم هنود الألغونك Algonquians إلى البريطانيين وصادقوهم ليكتشفوا بعد نهاية الحرب أن البريطانيين عند انسحابهم ــ كما فعلوا في فلسطين ــ فضلوا أن يتخلوا عن الأراضي الهندية التي يحتلونها للغزاة المستوطنين لا لأصحابها الهنود. ووسط ذهول الهنود وإحباطهم تلقى المستوطنون الأميركيون الثوار من الإنكليز كل الأراضي التي عجزوا عن احتلالها واستيطانها بأنفسهم.

كانت المناطق الهندية عرضة سهلة لعدوان المستوطنين الباحثين عن الثروة والذهب والمراعي والمياه والحقول الخصبة. وكان «أمن» المستوطنين يفرض كل شيء ويرسم مصير هؤلاء الضحايا. فكلما

زاد التوسع والاستيطان تطلب الأمن مزيداً من التوسع والاستيطان، وكلما زاد التوسع والاستيطان زاد التفنن في تفسير متطلبات الأمن إلى أن لم يبق أمام الهندي إلا البحر والعدم. كانت «نظرية الأمن» تعني كل شيء يشتهيه المستوطنون؛ كل شيء. وكانت لدى هؤلاء المستوطنين (الذين تصدرهم أميركا اليوم إلى الأراضي المحتلة) دائماً بندقية وتوراة وملايين الأعذار لترويع الهنود ونهب ذهبهم وثروات أراضيهم وممتلكاتهم الخاصة والتسلي بأرواحهم وحرق محاصيلهم وبيوتهم وإطعام بناتهم وصبيانهم للكلاب. إنهم يريدون أرض كنعان المقدسة بدون كنعاني واحد فيها، فتلك هي «إرادة الله». لقد كتب القبطان جورج فانكوفر Captain George Vancouver في يومياته عام ١٧٩٣:

> أثناء رحلاتنا، ولا سيما في رأس دسكوفري كنا نرى تلالا من الجماجم والأعضاء وعظام الصدر والأعمدة الفقرية وغير ذلك من رمم الضحايا مبعثرة على طول الشاطىء. ولقد أخبرني أعواني أنهم شاهدوا في تجوالهم هناك كثيراً من مثل هذه المقابر الخرافية العائمة مما يعني أن دسكوفري كلها كانت مقبرة لكل ما جاورها من هذه المناطق التي كانت عامرة بالسكان.

أباد «شعب الله» الأنغلوسكسوني كنعانيي الأرض الأميركية المقدسة في مذبحة بعد مذبحة، ودمر مدنهم وقراهم مدينة مدينة وقرية قرية، ونهب أرضهم ومساكنهم وممتلكاتهم ثم عرّاهم وتركهم للريح والذئاب.

اصطاد زعماء مقاومتهم ورجالهم الروحيين، ومحا معابدهم

وهياكلهم المقدسة فقتل كهنتها وسرق ذهبها وحجارتها الكريمة ثم سوّاها بالأرض.

مزق أواصر شعوبهم وقبائلهم بالإرهاب والتهجير وشراء الذمم ومفاوضات السلام حتى تركهم أشلاء ممزقة دون هدف ولا قادة ولا أرض ولا مستقبل.

استعبد من استعبد منهم في المزارع وسخرهم لما يذلهم ويمتهن إنسانيتهم، وحرمهم من كل أمل ولم يبق لمن نجا منهم جسدياً إلا اللهاث وراء لقمة الموت البطيء تحت أقدام الغزاة.

اتهموا هنود البيكو Pequot بأنهم أولاد الشياطين، وشنعوا عليهم وشوهوهم جسدياً وروحياً وأخلاقياً فيما كانوا يسفكون دمهم ويسحقونهم كالحشرات. ولقد مضت سنوات طويلة حتى استطاع هنود البيكو أن يصدقوا فعلاً أن وحشية هؤلاء الغزاة الذين استقبلوهم بالمحبة وأعانوهم ومدوهم بكل ما يعينهم على الحياة ليست هفوة أو سهوة بل سياسة وعقيدة. وفي شهادة نادرة للراهب روجر وليامس Roger Williams كتبها في ١٦٤٣ نجد وصفاً لتفوق أخلاق الهنود وسموّها وأثرتها وكرمها ورغبتها في التعاون والمشاركة، ونجد وصفاً لأخلاق المستعمرين البيوريتانز الذين كان هدفهم الأسمى وواجبهم المقدس هو تطهير العالم من الهنود:
Their avowed objective, and a sacred duty was to rid the world of Indians.

كان تجريد هنود البيكو من ممتلكاتهم وكسر قوتهم واختراع العذر بعد العذر لمواصلة حرب النهب والإبادة هي صلاتهم اليومية

المقدسة. وكان المستوطنون في كل عدوان على هؤلاء الأبرياء الطيبين يقتلون المئات من الأطفال والنساء والشيوخ، وذلك بإحراقهم في مآمنهم وحصونهم وبيوتهم وملاجئهم التي يلجأون إليها، أو يتركون عدداً منهم يفر مشوهاً مثخناً بجراحه لينشر الرعب في القبائل والشعوب الهندية المجاورة. في سنة ١٦٣٧ ذبحوا هنود البيكو ذبحاً كاملاً ومحوا كل ما يشير إلى ذكرهم ووجودهم على وجه الأرض. وحين أسروا الزعيم الهندي ميتاكوم Metacom المعروف باسم الملك فيليب King Philip قطعوا رأسه وأجبروا أهله على أن ينصبوا رأسه على سارية عالية في پليموث. وبعد نقاش لاهوتي صاخب حول مصير أرملته وابنه صدر القرار ببيعهما مع المئات من شعبه الذين اصطيدوا مثل الحيوانات فقتل منهم من قتل واستعبد منهم من استعبد. بذلك تم القضاء نهائياً على مقاومة الهنود في نيو إنغلاند.

قبل أن ينتهي ذلك القرن بسنتين وقف الأب الفرنسي كوزميه Father St. Cosmé على مرتفع يطل على قرى كواپاوس Quapaws في المسيسيپي وقال عبارته الشهيرة: «لا شيء سوى القبور. لا شيء غير الموتى».

كان تدمير ثقافة الهنود ومنجزاتهم وحضاراتهم أفظع من تدمير وجودهم الجسدي. إنها حرب ما تزال مضرمة حتى هذه الساعة في الأدب والسينما والمسرح والإعلام وكل أسطول البروباغندا الأميركية، وها هم كنعانيو العالم الجديد غابوا وأندثروا وانمحى ذكرهم من ذاكرة العالم. إن صورة الهندي في كل هذه الأرض هي الصورة التي رسمها جلادهم المقدس الذي اقتلع هنديتهم بالحديد والنار والتزوير وحرب التشويه والتحريمات والعقوبات

والقوانين العنصرية فلم يبق منهم إلا الموتى يدفنون الموتى. وهاهي شجرتهم وقد احتطبها كما يقول لهم محمود درويش «حطاب أمي وأمك» فلم يبق منهم في أول هذا القرن إلا ربع مليون هندي مسحوق بالمخدرات والكحول والفقر الإجباري. خمسمائة عام من «حرب إسرائيل المقدسة» التي لا يستطيع أحد أن يرى وثائقها أو يعرف لها تاريخاً غير التاريخ الأبيض. لقد اختفت رواية الهنود لتاريخهم ومحيت في ضجيج العجرفة الخالدة للمنتصرين الغزاة. وهذا في اعتقادي ما أراد مايك هولي إيغل أن يؤكد عليه في رسالته حين قال:

> تاريخنا مكتوب بالحبر الأبيض. إن أول ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزوم. ويا الله ما أغزر دموعهم فوق دماء ضحاياهم. وما أسهل أن يسرقوا وجودهم من ضمير الأرض. هذه واحدة من الإبادات الكثيرة التي واجهناها وسيواجهها الفلسطينيون [...] إن جلادنا المقدس واحد.

واشنطن، ١٩٩٤



ملحق رقم ٢

عن حوار الحضارات وحرب استئصال الأصالة

إنهم لا يعرفون السلام إلا فوق جثثنا الهامدة

الزعيم الهندي تيكومسه، ١٨١١

قَدَرُ عِرقنا [الأنغلوسكسوني] هو الزحف [من الولايات المتحدة] غرباً إلى أن يُتم دورة الأرض كلها ويعود إلى مهده [في الجزيرة البريطانية].

الجنرال آرثر مكآرثر ١٨٩٨

العالمية ألتي تسكننا

قبل ٣,٦٠٠,٠٠٠ سنة انفجر بركان عنيف في أقصى شمال ما يعرف الآن بتنزانيا وغطت حممه الأراضي المعشوشبة حوله. وفي عام ١٩٧٩ عثرت عالمة العصور الجيولوجية ماري ليكي Mary Leakey في ما تبقى من رماد تلك الحمم على آثار أقدام بشرية ربما كانت آثار أول من مشى على وجه الأرض من أجدادنا البشر.

وهناك على مرمى ٣٨٠ ألف كلم من الأرض، في سهل

صحراوي قفر سماه البشر في لحظة من لحظات التفاؤل ببحر السكون يوجد الآن أثر قدم تركه أول إنسان مشى على سطح القمر عام ١٩٦٩.

بين الآثار التي تركناها في رماد البركان والآثار التي ختمناها على وجه القمر جادت إنسانيتنا بالكثير من المهارات والبراعات والحضارات إلى أن كسرت أغلالها الأرضية وراحت تصغي إلى رسائل إخوتنا الكونيين الذين شيدوا حضاراتهم على كواكب أو أقمار تبعد عنا ملايين السنين الضوئية.

بين خطوة الرماد وخطوة القمر طوى الزمان خمسين ألف جيل من أجدادنا الذين لا نعرف من أسمائهم وملامحهم وعواطفهم وديارهم أكثر مما نعرف عن إخوتنا الذين يسكنون بين النجوم. على أننا نسمع بين الحين والآخر عن اكتشاف حضارة عظيمة هنا وحضارة عظيمة هناك، ونمتلىء بالفرحة حين نعلم أن الذين شادوا هذه الحضارات بشر مثلنا أحبوا وكرهوا، وتساءلوا وأجابوا، وظن بعضهم أن لديه علم السموات والأرض وأنه قادر على أن يجيب عن كل الأسئلة المصيرية التي ما زالت تعذب الإنسان.

كل هذه الحضارات والأجيال الإنسانية أسهمت في تقدمنا ورفاهيتنا وأغنت عقولنا ولطفت أخلاقنا وصنعت إنسانيتنا. وهي حضارات وأجيال لا يحتكرها عرق أو وطن أو إيديولوجيا أو ذكورة أو أنوثة، بل هي حضارات تنتمي إلى كل أرجاء هذه الأرض وأعراقها وذكورها وإناثها. إنها حضارة إنسانيتنا التي نعرف نزراً ضئيلاً جداً عنها ونجهل قدراً عظيماً عن صانعيها وأذكيائها وعلمائها وحكمائها. إن عالمية الحضارة الإنسانية لا تتجلى إلا في

هذا التراث الذي يعيش في كل إنسان منا من غير أن نعلم شيئاً عن أشكال صانعيه وأوطانهم وأعراقهم وأجناسهم.

في هذه الصفحة التي تقرأها الآن مثال على هذه العالمية التي تعيش معنا في كل تفصيل من تفاصيل حياتنا. هنا في هذه الصفحة يعيش أجدادنا الذين اكتشفوا النار، واخترعوا اللغة، وعرفوا الكيمياء، وصنعوا الأدوات، وابتدعوا الكتابة، واخترعوا التصوير وآلات الطباعة ووسائل النقل والاتصال، وهيأوا لنا كل ما يلزم لأن نصنع ورقة بيضاء نستطيع أن نكتب عليها شيئاً نفهمه جميعاً. لقد تعاون على تهيئة هذه السطور المطبوعة كل ذكاء الإنسانية دونما تمييز. إن لكل كلمة نقرأها تاريخاً عريقاً حياً لا نعلم أين يبدأ. فنحن نعرف أن وراء كتابة هذه السطور بشراً مثلنا، ينتمي من ينتمي منهم إلى الصين أو بلاد الرافدين أو اليونان أو العرب أو أوروبا أو الذين سموا زوراً وبهتاناً باسم الهنود الحمر، لكننا نجهل الكثير عن أولئك الأجداد الذين عاشوا قبل اختراع الكتابة وأعدوا لنا كل ما يلزمنا لصناعة الكتابة والتاريخ والحضارات. لقد كانت لهم اختلافاتهم وفروقاتهم وخصوصياتهم العرقية أو الحضارية أو الجغرافية، لكنهم جميعاً انصهروا فينا وصاروا جزءاً من تاريخ كل فرد منا، وأساساً لكل عمارة عقولنا ومعارفنا.

إن إنسانيتنا تجمح بخيالاتها وهي تحبو على شواطىء الألف الثالث من تقويمها الميلادي حيث ما يزال التقدم يزداد نوعاً بينما يزداد التخلف كمّاً، وحيث ما تزال الأسئلة الملازمة للإنسان كما كانت منذ بداية الإنسانية: أسئلة البداية والنهاية والمصير، أسئلة الخوف والدهشة، أسئلة الولادة والموت، ذلك السيل العرم من الكيف

واللماذا المُرّة . وإن معظم من عبر منا جسر تلك الليلة إلى الألف الثالث كان يسأل عن مستقبل هذه الإنسانية؟ وأية إنسانية؟ وهل هناك فعلاً انسانية واحدة؟ ما هو المضمون الأخلاقي لهذه الإنسانية؟ وما هي العواقب السياسية لإعطاء إنسانيتنا وحدةً ومضموناً أخلاقياً؟ وهل سيتمكن البشر من تخطّي ولاءاتهم الضيقة وانتماءاتهم المشرذمة إلى ما هو أرحب من الحزب والعشيرة والطائفة والدولة والوطن والعرق والذكورة والأنوثة والأيديولوجيات والعقائد المتحاربة؟ في تلك الليلة لم يكن السؤال الملح سؤالاً عما إذا كانت الإنسانية قادرة على صناعة مستقبل أفضل أو أعدل أو أكثر حرية أو رخاء، بل لربما كانت في تلك اللحظة أحوج إلى التساؤل عما تبقى من هذه الإنسانية وعما إذا كان سيكتب لها النجاة من وحشية القوى العمياء لتنعم بالمستقبل.

.. والعالمية التي غبنا عنها

قبل ألف سنة، حين احتفل العالم بانقضاء ألف سنة من تقويمه الميلادي لم يكن التقويم الميلادي عالمياً، ولم تكن العالمية ذات مركزية أوروبية أو محتكرة لمفاهيم الغرب وقوته كما هي في نهاية هذا الألف الذي شيعناه. وفي تلك الليلة كان الكثير من الأوروبيين يرون العدد 1000 مفهوماً شديد التعقيد لا يمكن تصوره أو عده أو حسابه، ذلك لأن الصفر نفسه لم يكن معروفاً لديهم، وكان المتنورون من أهل حساباتهم يعتقدون بأن المسلمين ــ باستخدامهم الصفر في أعدادهم ــ إنما يتعاطون بالعدم! وفي تلك الليلة الألفية الأولى كان القرن الرابع الهجري قد شاخ وبلغ عقده الأخير، وكان التقويم الهجري عالمياً أو شبه عالمي، فقد كان شائعاً من البروڤانس الفرنسي إلى ما وراء القوقاز، أي أنه كان تقويم العالم المتحضر المفتون بقرطبة ودمشق وبغداد والقاهرة

والقدس وغيرها من هذه النجوم التي تغرب عن سمائنا واحدة بعد واحدة.

وعالمية ذلك الزمان تفسر عالمية هذا اليوم. فالعالمية لا تفرضها الجيوش والأسلحة بل تنتشر انتشار الهواء مع نهر العطاء العلمي والإبداعي الذي يفرش روحه الخضراء على ضفاف العقول والأفئدة. في نهاية الألف الميلادي الأول حين كانت أوروبا تعيش ما يسمى بظلمات عصورها الوسطى كانت عالمية العطاء في الآداب والعلوم والفلسفة والطب لأبي الوفاء الفلكي الرياضي، وللفارابي الفيلسوف الموسيقي، ولعلي بن العباس الطبيب الجراح، وللمتنبي الشاعر. في تلك الليلة الألفية كانت أوروبا تحتفل أيضاً بالذكرى السنوية الثامنة لاستخدام الأعداد العربية في حساباتها بعد أن كانت تستخدم الحروف.

على أننا نعيش أحياناً في وهم مقاومة العالمية بالتقوقع والانغلاق والسلبية والخوف. وهذا ما يزيد قابليتنا لتسميم مواهبنا وتعطيل عقولنا وإغلاق الأبواب في وجه عطائنا، وهو الطريق الذي لا طريق غيره إلى المساهمة في هذه العالمية وتوليف ملامحها. ومثلما أننا لا نستسيغ عالمية تلقى علينا بالصواريخ والقاذفات وتحت جنح العباءات، فإننا كذلك لا نستطيع أن نفرّ من عالمية نستهلكها ونلبسها ونتخاطب بها ونقتل بعضنا بعضاً بأسلحتها، ونتحالف معها على أهلنا وحقوقنا وخصائص تحدينا.. ثم نكتفي بأن نوسعها سباباً وشتماً. إننا نحن الذين نفرض على أنفسنا هذه العالمية كلما ضاقت ولاءاتنا وانتماءاتنا ونشاطات عقولنا ومواهبنا، وكلما أمعن وعينا في الغياب عن مصيرنا وأمانة عقولنا.

بين نهاية ذلك الألف الأول ونهاية هذا الألف الثاني لم تتغير طبيعة العالمية ومركزيتها وهويتها وقضاياها وقيمها وحسب، بل تغيرت طبيعة الخطر الذي يهدد العالم. فبينما كان الألف الأول ينتهي بزلزال في دمشق وطاعون في أوروبا وتخرصات عن قرب قيامة العالم؛ انتهى الألف الثاني وخطر نهاية التاريخ كما رسمها «العهد القديم» بدم كل هذه الإنسانية هي من أعظم خصائص هذه العالمية التي انمحت بصماتنا عنها ولم نعد نجد في ظلها إلا وطناً محتلاً، وإرادة مشلولة، وحرية مسلوبة، وفاعلية مختلة، وحماسات عشواء.

إن انحسارنا ـ عالمياً ـ مع نهاية هذا الألف الثاني قد انتهى بنا وبالألف الثاني خارج العالم. وها هي تخرصات «قيامة العالم» و«نهاية التاريخ» بالصورة الدموية التي رسمها «العهد القديم» وجعلنا أول ضحاياها تُبحث على مستوى سياسي في الكونغرس الأميركي (٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥) بعد أن ملأت الولايات المتحدة وأخذت تشحن المشاعر والغرائز بشهوة الدم.

في تلك الليلة الأخيرة التي انزاحت ستارتها عن الألف الثالث ختمت الانسانية قرناً من أكثر القرون التي عاشتها دموية وعنفاً وضحايا، ومن أسخاها علماً ووفرة ومحاصيل. حتى اللحظة الأخيرة من ١٩٩٥؛ بلغ عدد الحروب التي نشبت على مدى ٩٥ عاما ١٣٩ حرباً كان الغرب الرأسمالي طرفاً ظاهراً أو خفياً في ١٢٧ حرباً منها، وكان عدد الذين سقطوا في حروب هذا القرن أكثر من كل ما حصدته الحروب بين البشر منذ بداية التاريخ: ١٢٢ مليون إنسان بينهم نصف مليون طفل عراقي ماتوا [في السنوات الثلاث الأولى] من الحصار الاقتصادي (Trouw الألمانية،

٣٠/٦/١٩٩٤)، وهو أكثر من ضعفي ضحايا التطهير العرقي في البوسنة.

سيظل هذا القرن الدموي المشؤوم محفوراً في ذاكرة البشر وعلامة على هذه العالمية التي انمحت خطوطنا وألواننا من ملامحها. وسيبقى التاريخ يشير إليه بأنه قرن الموت، وأنه قرن التقدم والخصب والوفرة والتجويع حتى الموت. إن ثمن النماء الغربي في ظل هذه العالمية هو ٧٠٠ مليون إنسان لا يملكون قوت يومهم، يموت منهم في كل يوم أربعون ألفاً موت الذباب، بينهم ٣٤ ألف طفل دون الخامسة... وإن النماء الرأسمالي الغربي يلقي على العالم الثالث كل يومين قنبلة غذائية معادلة لقنبلة هيروشيما (International Herald Tribune، ٩ حزيران/يونيو ١٩٩٤)، وإن ضحاياه في هذا القرن أكثر من كل ضحايا الحربين العالميتين.

في هذا القرن الذي سقطت فيه ضحايا الحروب في كل القارات (بمعدل ٤٥٠٠ قتيل يومياً)؛ استطاع التقدم الطبي أن يبعد شبح الموت بالأوبئة التقليدية عن معظم من يسكن في فردوس الشمال من هذه القارات. وفي هذا القرن الذي أكلت فيه المجاعات مئات الملايين من البشر كان الفائض الزراعي الذي تحرقه أو تدمره الولايات المتحدة وحدها كافياً لإنقاذ كل الذين ماتوا جوعاً. إن ما يحتاج له العالم لإنقاذ كل وفيات أطفاله ولتوصيل مياه الشرب النقية إلى كل بيت في العالم الثالث هو ٢٥ مليار دولار، وهذا المبلغ أقل مما تنفقه الولايات المتحدة سنوياً على شرب البيرة أو ما تنفقه أوروبا على شرب النبيذ (North West Synthesis, N: O).

في ظل هذه العالمية المسكونة بأخلاق السوق وأصولية نهاية التاريخ

ضيّع التقدم العلمي إنسانيته كما فقد الخصب معناه وقلبه الخصب. في نهاية القرن الماضي كان الاقتصادي المتطير مالتوس يظن أن أرضنا الطيبة السخية ستتشح بالقوت على ساكنيها، وقد بدا أن تطيّره قد طار مع تطور الأدوات الزراعية والتقدم العلمي الذي سمح بري أفضل وحصاد أكمل ووقاية أسلم من الآفات والحشرات. إن اثنين بالمئة من زراعة الولايات المتحدة ومحاصيلها الغذائية تكفي حاجتها. أما المتبقي من هذا الفائض فما زالت هي ودول الغرب الرأسمالي تشهره سلاحاً في وجه الجائعين والغرثى. وبفضل هذا التقدم العلمي خرجت الصين من نفق المجاعات التاريخية ومن ويلات التدمير والنهب للفترة الاستعمارية البريطانية، وها هي تنتج ما يزيد على حاجة سكانها الذين يبلغون أربعة أضعاف سكان الولايات المتحدة، وها هي نسبة الفقراء فيها ــ برغم كل التهريج الإعلامي الغربي ــ أقل بأربع مرات من نسبة الفقراء في الولايات المتحدة الذين يموتون جوعاً بالآلاف دون مأوى في طرقات مانهاتن وعلى مرأى من شرفات الكونغرس والبيت الأبيض.

هزيمة المشروع السياسي للرسول العربي

شهد هذا القرن ذروة التقدم العلمي والطبي، لكنه كان بحق قرن الموت والضحايا، وقرن الخيبات السياسية والتمييز والحروب العالمية، وقرن اقتلاع جذور شجرة المشروع السياسي العربي الذي بناه الرسول بيديه، وهو المشروع الذي صنع أمتنا بكل ألوان طيفها ورسم الملامح الأساسية لهويتها التاريخية وحضارتها.

هذا القرن الذي افتتحته بريطانيا وحلفاؤها العرب بمخطط قتل الرجل المريض وإجهاض مشروع الدولة العربية وتمزيق أشلائها

ونهب ثرواتها، أنهته بريطانيا ووريثتها الأميركية وحلفاؤهما العرب باقتلاع شجرة المشروع السياسي المحمدي من روضتها التي نبتت فيها. في هذا القرن شيعت بريطانيا دولة الإسلام التاريخية واختفت الدولة العربية فلم يبق إلا صورها المشوهة، صورة الدولة التابعة المحمية. لقد قُصقصت هذه الكيانات ومزقت وأحيطت بصدفة عازلة من الشروط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يستحيل معها إحياء مفهوم الأمة دون مواجهة «الاستعمار الداخلي» الذي يمثله النظام العربي؟ كيف سيقتنع الكويتي أو القطري بأنه ينتمي إلى الأمة التي ينتمي إليها السوداني أو الفلسطيني والفروقات الاقتصادية التي خلقتها بريطانيا ثم عمّقها خنازير بريطانيا بينهما عمداً ما تزال ترفع جدرانها التي لن تزول بالحوار ولا بالجوار ولا بالصدقات المهينة.

لأول مرة في هذه الألف سنة التي شيعناها قبل سنوات صار ابن هذا الوطن سجيناً في حدود استعمارية لا يخرج منها إلا بذلّ، ولا يدخل في غيرها إلا بذلّ. ولأول مرة في هذه الألفية سقطت كل الديار الإسلامية المقدسة من أيدي أهلها وتوحدت حال القبلتين. إن المشروع السياسي الذي أطلق هذه الأمم العربية من دولة «المدينة» سياسياً ومن غزوة بدر عسكرياً، فأعطاها هويتها وبنى حضارتها وبسط جناحيها على نصف كوكب الأرض قد استدار على نفسه الآن ٣٦٠ درجة وتقهقر إلى نقطة الصفر مهاناً مهزوماً مسحوقاً تحت دبابة الأصدقاء وفي النقطة المقدسة التي انطلق منها. ومع ذلك فإننا نستخدم كل مواهب افتراس المنطق لإنكار هذه الهزيمة والمكابرة على حقيقتها وطبيعتها وأخطارها، ونحاول تزيين بشاعتها، كما نستخدم كل دمامات بلاغتنا وأغاليطها وحماقاتها لتحويل هذه الهزيمة والاحتلال إلى بطولات

وانتصارات وأمجاد.

هذا الزمان الذي ودعنا ألف سنة من حياته لم يشهد أمة تملك عبقرية التسامح الرومانسي مع الذين يسوقونها من مذبحة إلى مذبحة مثل أمتنا! ولا شك في أن التاريخ لم يعرف أمة على وجه الأرض تعبىء كل ما لديها من طاقات وخيرات وبلاغات وعواطف وغرائز وإذاعات ومنابر وكتب مقدسة وفرق موسيقية لتأجيج وحشية مفترسيها والدفاع عنهم وتزيين افتراسهم لها ولثقافتها وأرضها ومقدساتها وثرواتها ودم أطفالها مثل أمتنا. إننا أمام هذا الحطام الكارثي للمشروع السياسي المؤسس لحضارتنا العربية الإسلامية لا نجد حرجاً في التوحيد بين هذه الهزيمة وبين إرادة الله، ولا نتورع عن المطابقة بين الأسس الثقافية والأخلاقية والدينية والسياسية لحضارتنا وبين هذا الواقع الذي فضح نتن وعينا الحديث وأخلاقنا، بدءاً من بكائنا على قبر مصاصي دمائنا ونحن «نفرم» قوى الأصالة التي تتحدى استمرار مصّ دمائنا مروراً بتوسلنا وتسولنا على عتبات البيت الأبيض، وانتهاء بمطابقتنا البهلوانية بين «عالمية» الإسلام وبين ما يريده الوحش الأعظم في غابة العالم.

.. وهزيمته ثقافياً

كان لا بد لهذه الهزيمة على الأرض من أن تواكبها هزيمة للعقول لكي يشيّع الاستعمار الصديق مقدساتنا المحتلة وعقلنا المحتل في جنازة واحدة. فلأجل أن تكتمل فصول الفاجعة لا بد من تسوية الثقافة بالأرض وإلحاق التاريخ بالجغرافيا، ولأجل تجفيف الينابيع لا بد من تفريغ معجم هذه الحضارة المهزومة من معانيه وحقنه بالمعاني التي تمجد الهزيمة. بذلك تختفي من أفواه الناس وعقولهم كل المعاني والقيم التي تشكل خطراً على الهزيمة وما ترتب عليها

من إعادة صياغة لوعينا لأنفسنا والعالم، وإعادة صياغة لهوية الأنا والآخر، وإعادة صياغة لذاكرتنا ومعنى وجودنا، وإعادة صياغة لحريتنا وإرادتنا وتعصبنا وتسامحنا وقيمنا، وإعادة صياغة لعلاقتنا بثرواتنا الطبيعية والشكل الاجتماعي والسياسي المناسب للحالة الشاذة من وجودنا، وإعادة صياغة لحاجتنا إلى القوة العسكرية وشكلها ووجه استخدامها وطبيعة علاقتنا بها، وإعادة صياغة لما هو مقدس وما ليس بمقدس، وإعادة صياغة لمن ينبغي جهاده وفرمه وإفناؤه بالحصار والجوع والخسة ومن يجب مسالمته وحبه وذرف الدموع على جيفته، وأخيراً إعادة صياغة لتاريخنا وتراثنا وكل ما يصنع من وجودنا مقبرة خرافية للاستهلاك والتكاثر والموت.

الحرب على الأصولية والحرب على الأصالة

في ظل هذه الصياغة التبعية تشن الولايات المتحدة وإسرائيل ومحمياتهما العربية أشرس حرب إبادة لخصائص مقاومتنا وتحدينا الحضاري. فباسم الحرب على الأصولية تتعرض «أصالة» المسلم والمسيحي والرجعي والتقدمي والمؤمن والملحد والعربي والأعجمي وكل من يقاوم الاحتلال والهيمنة أو يعارض هذه الأنظمة التي لا همّ لها سوى تزيين الاحتلال والهيمنة لحملة تشويه شاملة كاملة، بدءاً من أخلاقه ودينه وتاريخه وحضارته وانتهاء بشكله الجسدي وخصائص إنسانيته بحيث لا ينفع مع هذا الوحش الأصولي إلا إراقة دمه والتضحية المقدسة بوجوده.

هناك حملة ترويض عالمية لهذا الوحش الذي يرفض الاحتلال والهيمنة. فكما أن هناك بقراً وغنماً وخنازير وكلاباً ودواجن، يجب أن يكون هناك حيوان أليف آخر اسمه «الحيوان العربي الأليف» أو «الحيوان المسلم الأليف» الذي يعطي بجبرية القدر

المحتوم صوفه وحليبه وسخاله... وحياته إذا لزمت طقوس التضحية، ثم يبكي على جيفة سيده الجنرال رابين مثل الكلب الأمين.

هذا التشويه الإنساني للضحية كما عرفته أدبيات إبادة الهنود الحمر منذ رواية *Nick of the Woods* في القرن الثامن عشر لم تتغير؛ لا في حرب تدمير الاتحاد السوفياتي، ولا في حرب إبادة شعب فلسطين واغتصاب بلاده، ولا في الحرب المضرمة لإبادة خصائص أصالتنا ومقاومتنا وتحدينا الحضاري. إن أنظمتنا التي لم تعد وطنية ولا قومية ولا إسلامية ولا علمانية ولا عربية ولا اشتراكية ولا راديكالية ولا رجعية ولا تقدمية ولا ديموقراطية ولا استبدادية ولا حزبية ولا طائفية ولا قبلية ولا مدنية ولا أي صفة تنتمي إلى التاريخ أو الواقع أو أي معجم سياسي معروف؛ دخلت في دوامة العنف الأعمى مع شعوبها دفاعاً عن الهيمنة والاحتلال لكي تضمن قوى الاحتلال والهيمنة وجودها وتؤمن استمرارها. وهي اليوم تشكل خطراً حقيقياً على وجودنا ومصيرنا وأخلاقنا وقيمنا وحضارتنا وتهدد حياة كل حرّ منا.

بدلاً من أن تشن هذه الأنظمة حربها على الأصولية «السَّبتية» التي تحرق كل طاقاتها الإنسانية وقواها العقلية وحماساتها الدينية لتكفير البشر وإنكار تعدد الآراء ورفض المجتمع المدني وتقفيص المرأة وتكسير قناني الويسكي في هذا الزمن الذي ترسف فيه القبلتان في قيود الاحتلال ويبكي فيه صناديد العرب على جيفة من كسر رقبة هذه الأمة وعظامها، فإن معظم هذه الأنظمة تدعم هذه «الأصولية السَّبتية» العقيمة وتعيش على حماقاتها وتدفع مرتبات ميليشياتها وتنظم الكثير من جرائمها فيما هي تشن ــ باسم الحرب على الأصولية ــ حرب إبادة على قوى الأصالة التي ترفض الاحتلال

والهيمنة وتشكل خط الدفاع الأخير لوجودنا الحضاري.

مصادرة حوار الحضارات سياسياً

مثل هذا المناخ يجعل حوار الحضارات مع القوى الاستعمارية التي تنتطح لتمثيل الغرب صورة كاريكاتورية لحوار المزارع مع بقرته، ويسمح برسم علامة استفهام فلكية حول دوافع مثل هذا الحوار النخاسي الذي ترسم هذه القوى الاستعمارية طبيعته، وتملك تقنياته، وتحدد وجهته، وتستأثر بجدواه. وهو حوار ملغوم كاذب لئيم تتبنّته أنظمة المستعمرات الأميركية وشجعت عليه انطلاقاً من ثلاث مسلمات لئيمة:

أولها أننا نحن العرب مذنبون مع الغرب (وهذا الغرب المقصود بالغفران هو أميركا وبريطانيا ومعهما قفتهما إسرائيل) وأن علينا لذلك تحسين صورتنا هناك وكأننا نحن الذين نحتل، ونهيمن، وننهب، ونقتل، ونحاصر، ونقيم في فسطاط الولايات المتحدة وإماراتها ومشيخاتها وعتباتها المقدسة أنظمة عميلة فاسدة مستبدة نحميها بالجيوش والأساطيل والقواعد العسكرية التي ننطلق منها لقصف الأميركيين واحتلال ما عزّ من أراضيهم.

وثانيها أن ذنوبنا (تجاه أميركا وبريطانيا، وإسرائيل أيضاً) لا يقرها الإسلام لأن أخلاق الإسلام الحنيف تتطابق تماماً مع ما يريده وحش الغابة ولا بد بالتالي من العودة إلى ينابيع الإسلام وتفسير رسالته وقرآنه وتاريخه وبطولاته وأحاديث نبيه بما يرضي وحش الغابة ويقضي على ما تبقى جيوب مقاومتنا اليائسة وخيرات أرضنا.

وثالثها، كما ذكرت من قبل: ليس هناك تضليل أخطر من وصف ما يجري بأنه صراع مع الغرب، أو صراع حضارات، أو حرب على الإسلام. وإنه لمن الغريب حقاً الاعتقاد بأن هناك صراعاً جغرافياً مع الغرب ومواقف كل الشعوب والدول الغربية (باستثناء الولايات المتحدة وقفتها البريطانية) بدءاً من دول بحر الشمال كالدانمارك والسويد والنروج وانتهاءً بدول المتوسط كإيطاليا واليونان أكثر نبلاً وإنسانية وحرصاً على العرب والمسلمين من معظم الأنظمة العربية؟ أي صراع تواجهنا به فنلندا وألمانيا ولوكسمبورغ وسويسرا؟ إن هذه الاصطلاحات الفضفاضة لا تبدد جهودنا وطاقاتنا وحسب بل إنها تصرف أنظارنا عن مصدر الخطر الحقيقي الذي يهدد بقاءنا الثقافي والجسدي وكل مصادر هذا البقاء وعناصره. أليس أمراً ذا دلالة أن الذين يروجون لهذه الصراعات الوهمية ومؤتمراتها العبثية هم أنظمة المستعمرات الأميركية المشغولة الآن بتحسين صورتنا كأننا نحتل كاليفورنيا ونسيطر على آبار وعائدات نفط تكساس، ونعين الكوبيين على احتلال فلوريدا، وننصب قواعدنا العسكرية فوق أراضي أوهايو وبنسلفانيا، ونضرب حصاراً وحشياً على أريزونا نقتل فيه خمسة آلاف طفل من أطفالها شهرياً... إلخ؟

هل يمكن لمثل هذا الحوار الملغوم من جذوره بالموقف السياسي والمعلق ـ في أحسن أحواله ـ على نجاح حملة ترويض الآخر أن يساهم في توسيع ولاءاتنا وتجاوز مركزياتنا وبناء مستقبل يصالح خصوصياتنا الإنسانية ويضمها في باقة واحدة؟ هل يمكن لمثل هذا الحوار المعلق على إعادة صياغة عقل الآخر وأخلاقه وطريقة ولادته وموته أن يكشف عن حاجتنا المصيرية إلى تعانق كل ما هو إنساني في هوياتنا المختلفة، وأن يصل بحوار الحضارات فعلاً إلى

كسر الحواجز وبناء الجسور وتأسيس ذلك المشروع الكوكبي لمستقبل الإنسان ومصيره؟

إن هرولة أنظمة الاستعمار الداخلي وسفاراتها إلى عقد مؤتمرات لحوار الحضارات ليس أكثر من عمل مسرحي بيزنطي متهافت، لأن طبيعة مثل هذا الحوار الذي تخلقه السياسة تقتله السياسة، ولأن هدفه الأول والأخير ــ عرفوا أم جهلوا ــ هو تخبئة عدونا الحقيقي وراء ستارة حمراء تحيل كل مقاومتنا إلى ما يشبه صراع الثيران. حوار الثقافات لا يدور بقرار ولا يتوقف بقرار.

في ظل هذا الواقع الذي فقدنا فيه حقنا في القرار السياسي والعسكري والاقتصادي وصارت جملة «سياسة الأنا» مرسومة من قبل الآخر، تضاعف خطر المصادرة السياسية على حوار الحضارات. فالمصادرة تزيد في عمق الجراح وتلهب لغة الخطاب وتستثير العنف مثلما أنها تخصب الأرض لكثير من الطفيليات والأعشاب السامة. إن ظاهرة الفلسطينيَيْنْ سليمان محمد دياب وصلاح أحمد سليمان اللذين انضما إلى حزب الليكود لفتح الحوار الحضاري بهدف نسف سياسة التطرف الصهيوني من الداخل ليست ظاهرة فريدة في مسيرة المصادرات السياسية لحوار الحضارات، ففي واشنطن عدد من المنظمات والهيئات العربية والإسلامية التي تعمل مع الليكود الأميركي والمنظمات الصهيونية الأميركية على طريقتهما. وإذا كان بُعد المسافة لا يسمح لي بالحكم على المبررات والدوافع التي ألهمت هذين الفلسطينيين اليائسين من إخوانهما العرب وهما يريانهم منهمكين في القضاء على ما تبقى من خصائص المقاومة والتحدي للاحتلال والهيمنة، ومتفانين في التوسل لواشنطن، فإن قربي (الجغرافي) من هذه

المنظمات العربية والإسلامية في واشنطن يكاد يطفىء قلبي ويملأني بالإحباط واليأس. هذه الحوارات الحضارية أو الدينية المصادرة سياسياً ليست إلا تضليلاً عن مصدر الخطر الذي يستعمرنا وينهبنا ويهددنا ويهدد كل المعاني النبيلة لحوار الحضارات وتعايش الأديان، ذلك لأن «سياسة الأنا» المرسومة من قبل الآخر تسحب ظلها الأسود من عواصم المحميات العربية إلى العاصمة الأميركية، ولهذا فإن جل جهود هذه المنظمات والمجالس التي أنشاتها سفارات العواصم المحمية ومولتها لن تنتهي إلا إلى ما انتهت إليه تلك العواصم.

الغرام القاتل والحوار مع قوى التغيير

إن حوارنا (أو مجابهتنا مع القوى الاستعمارية في) الغرب منذ أن صار الغرب غرباً والشرق شرقاً لم ينقطعا ثانية واحدة على المستوى الاجتماعي والثقافي والديني والعسكري ولا أظنهما سينقطعان لحظة واحدة في المنظور القريب ولا البعيد. ولكنني لست أدري لماذا ينصرف الذهن فوراً ــ عند التفكير في الحضارات أو في حوار الحضارات ــ إلى ثلاثة أوهام خطيرة شائعة:

أولها الاعتقاد بأن الحوار الحضاري لا يتم إلا في المؤتمرات والندوات حيث يبدأ حين ندخل قاعة المؤتمر ثم يتوقف عند خروجنا.

وثانيها: أن المستعمرات اليهودية في عقولنا جعلتنا نعتقد بأن العالم ما قبل ظهور الاسلام لم يعرف غير اليهود وما فرّخته اليهودية. وهذا ما جعلنا نهمل أو نحتقر أو نعادي أو نكفّر الحضارات

والمدنيات التي صنعت إنسانيتنا على ضفاف النيل والرافدين والصين والهند وأميركا وننصرف إلى تلويث أدمغتنا بخرافات متسيبين عاشوا وماتوا على حلم تدمير هذه الحضارات.

وثالثها أن المركزية الأنكلوسكسونية للعالم والتاريخ والطبيعة صارت إحدى مسلّمات عقولنا فحجبتنا عن كلية الحضارة الغربية كما حجبتنا عن معظم حضارات العالم وتحكمت بتفسيرنا لحضارتنا العربية الإسلامية نفسها. فنحن لا نفكر إلا في التحالف مع هذه القوى الاستعمارية الأنكلوسكسونية في الغرب الرأسمالي وننسى الأمم والشعوب والقوى الصديقة أو المحايدة في الغرب وغير الغرب. صحيح أن هذه الدول الاستعمارية المتمثلة ببريطانيا والولايات المتحدة قوة لا بد لحوار الحضارات من أن يشملها، لكن ليس صحيحاً على الإطلاق أن يبقى الحوار مقتصراً عليها، بل لربما كان حوارنا وتحالفنا مع دول أوروبا الصديقة والمحايدة ومع حضارات العالم الأخرى أجدى لنا وأجدى من حوارنا مع هاتين القوتين الاستعماريتين اللتين تهددان الآن مصيرنا ووجودنا وحضارتنا وحياة كل فرد حرّ منا. ولعل السؤال: لماذا لا نتحاور ونتحالف مع أوروبا الصديقة أو مع الصين أو أفريقيا أو الهند أو حتى مع «قوى التغيير» داخل بريطانيا والولايات المتحدة من أكثر الأسئلة الجوهرية التي يجب أن تسبق الحوار وتساعد على نجاحه بعد أن لم تترك بريطانيا وأميركا حبلاً من حبال ودّنا لم تجعله مشنقة لنا.

إن تجربة أمتنا مع سموم الصداقة البريطانية ثم الأميركية طوال هذا القرن كافية لإيقاظ غريزة البقاء عند أحط البهائم.

ولعل أهم فوائد الحوار والتحالف مع دول أوروبا أو مع الصين أو

الهند أو قوى التغيير في الولايات المتحدة مثلاً هي محاولة التخفيف من تلك الجرع القاتلة لذلك الغرام السام، وعدم السماح لواشنطن ومستعمراتها العربية بتكرار عداوتنا الحمقاء للاتحاد السوفياتي التي وصلت بنا في النهاية إلى قطع شجرة «المشروع السياسي المحمدي» من منبتها بمنشار صداقتنا الشاذة مع الولايات المتحدة.

قبل الحديث عن المسلّمات المضللة لعمائم لانغلي وفقهاء الهيمنة والاحتلال لا بد من مواجهة هؤلاء بأن ابتذال الإسلام ومقدساته وثرواته في حرب صليبية على الاتحاد السوفياتي لم تؤذ بويلاتها شيئاً في العالم أكثر من الإسلام ومقدساته وثرواته. إن هذا الدب السوفياتي الذي جعلته عمائم لانغلي وفقهاء الهيمنة والاحتلال رمزاً للإلحاد والكفر، وقدمت لنا عداوته ومحاربته على كل عدو وحرب، قد كشفت التجربة عن أن الله قد سخره لنا أكثر من نصف قرن ليكون الحائل الوحيد.. نعم كان الحائل الوحيد دون دخول دبابة الاحتلال بمثل هذه الفجارة والاستهتار إلى مهد الإسلام ودون هذه النهاية الفاجعة للقبلتين ودون هذا الانهيار المريع للمشروع السياسي الذي أطلق به محمد بن عبدالله هذه الأمة وحضارتها العربية الإسلامية تحت أقدام أصدقائنا جنرالات البنتاغون.

بهذا الوعي الزائف للخطر، قدمنا لأحفاد الصليبيين ما عجزت عنه كل الحملات الصليبية، وها نحن من جديد نشتري موتنا بحياتنا، وها نحن نكرر حربنا الحمقاء على الاتحاد السوفياتي، نكررها مع الصين ومع أوروبا الجديدة ونسلم بذلك مصيرنا ومصير الإنسانية لأشرس الأيديولوجيات عداوة وظلماً للإنسان: أيديولوجية السوق

التي لا يدين رجل الدولة في واشنطن بدين غيرها، ولا يعبد رباً سواها، ولا يعرف حقوق إنسان إلا من خلالها، ولا يمارس ديموقراطية إلا بما يناسبها، ولا يتخلق بأخلاق تتعارض معها.

أيديولوجية السوق ــ لا الشعارات الاستهلاكية ــ هي التي تحدد سياسة واشنطن من الإسلام والمسلمين. إن رجل الدولة في واشنطن لا يمانع أن ترفع مئذنتك على سطح البيت الأبيض، ولا أن تعمر مسجداً فوق قبة الكابيتول أو في حدائق لانغلي حيث الاستخبارات المركزية. إن رجل الدولة في واشنطن مستعد لأن يصلي ويصوم ويطلق لحيته ويسمعك أعذب الكلام عن الإسلام وعظمته وإنسانيته، لكنه أبداً لن يسمح لك ــ حتى بالاعتقاد ــ بأي معنى يهدد هيمنته ونهبه، أو يتعارض مع حلفه الاستراتيجي مع الصهيونية. هؤلاء الذين ظلوا على مدى أربعمئة سنة يرددون «لا يصلح الهندي الأحمر إلا بعد أن يموت» يرفعون اليوم للهندي الأحمر تمثالاً فوق قبة الكونغرس. فاذا كنت لا تبحث إلا عن حرية الصوم والصلاة وممارسة الشعائر وتعمير المساجد بالرخام والذهب والدفاع عن قضايا الإسلام في بورما والماوماو فأهلاً ومرحباً بك وبإسلامك ورخامك وذهبك وإذاعاتك وصحفك وماوماوك. إن رجل الدولة الأميركي سيقف في صفك ويسمعك ــ وهو يعلك لحمك ويتلمظ بدمك ــ خطباً عصماء في عظمة إسلامك المستسلم»، ولعله بعد أن يقضي منك وطره سيرفع لك تمثالاً فوق تمثال أخيك الهندي الأحمر. أما إذا كنت تفكر في أي معنى يرفض الهيمنة والنهب واحتلال القبلتين فهيا إلى حوار حضاري مع جنرالات البنتاغون.

وسل إخواننا الهنود الذين سبقونا في الإيمان، فهم أفضل من

يعرفهم. تسل باشغنتاكيلياس، زعيم هنود دولاوير الذي خبر هؤلاء الأصدقاء فقال كلمته المأثورة (١٧٨٧):

> إنهم يفعلون ما يحلو لهم، يستعبدون كل من ليس من لونهم. يريدون أن يجعلوا منا عبيداً، وحين لا يتحقق لهم ذلك يقتلوننا. إياك أن تثق بكلامهم، أو وعودهم. إنها أحابيل، صدقني إنها أحابيل، فأنا أعرف سكاكينهم الطويلة جيداً.

واشنطن، ١٩٩٤

نبذة عن المؤلف

منير العكش ناقد وباحث في «الإنسانيات» يعيش في واشنطن حيث يصدر مجلة «جسور» وكتبها بالتعاون مع منشورات جامعة سيراكوس في نيويورك. منذ وصوله إلى أميركا وهو يدرس ويكتب عن تاريخ وثقافة الهنود الحمر وعن ظاهرة «الصهيونية غير اليهودية». له عدد من الكتب التي ألفها أو حررها أو ترجمها، منها «أميركا والإبادات الجماعية»، الصادر عن شركة رياض الريس للكتب والنشر ٢٠٠٢، «أسئلة الشعر»، و«عن الشعر والجنس والثورة» (بالاشتراك مع نزار قباني)، و«الثقافة، الإبداع والمنفى»، و«الثقافة والحرب»، و«الثقافة ومقاومة الموت». حائز على «وسام أوروبا» ١٩٨٣ لحوار الحضارات. عمل العكش طويلاً في الصحافة الثقافية والعلمية وأسس وتولى تحرير مجلتين علميتين: «٢٠٠٠» في لندن و«الصفر» في باريس.

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

د

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الأماكن

أ

ب

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن